أضواء على

قاموس الصّناعات الشاميّة



بدر الدّين السّباعي

دار الجماهير الشعبيّة

أضواء على

قاموس الصناعات الشامية

الدكتور
بدر الدين السباعي

إصدار
دار الجماهير الشعبية

المقدمة

بناء على اقتراح قدمته الى السيد وزير الدولة لشئون التخطيط فقد كلفت بقراره رقم ٢٣٥/و تاريخ ١٩٧٦/١٠/١٢ ، بالقيام بدراسة موضوعية ميدانية لعملية العمل وأدواتها المستخدمة في الانتاج المادي والخدمات لأخذ فكرة موضوعية عن وضع وسائل الانتاج الحالية من حيث النوع ، ولبيان توزيع هذه الوسائل بين مختلف القطاعات الاقتصادية ، ولاعطاء فكرة عن طرق العمل المتبعة ومراحله المتتالية ، وأقسام العملية الانتاجية الرئيسية والمساعدة ومدى ارتباط هذا بالتنظيم العلمي للعمل ، ولأخذ فكرة عن القوة المحركة المستخدمة في الانتاج من محروقات وكهرباء ، ولأخذ فكرة واضحة عن الجديد والقديم والحديث في وسائل الانتاج وتبيان الإنتاجية في الوسيلة الواحدة ، ولأخذ فكرة عن مصادر هذه الوسائل وقيمتها يوم ابتياعها اذا أمكن ، وعن المواد الاولية والمساعدة المستخدمة في عملية الانتاج ومصادر هذه المواد ، ولبيان الارتباط القائم بين المؤسسات الانتاجية والقطاعات الاساسية والفرعية ، ولأخذ فكرة عن الفوارق الموجودة بين وسائل الانتاج القائمة لدينا وبين مثيلتها الجديدة في البلدان المتطورة ، اذا أمكن ، وذلك على ضوء الثورة العلمية التقنية. وللتعرف ، من خلال الحاضر ، على الماضي الانتاجي القريب ، وعلى مدى انتاجية الحرف بالنسبة الى الانتاج الآلي، وعلى تباين النوعية بينهما للسلعة الواحدة ، وللتعرف على درجة تفاعل العامل مع الآلة الحديثة ، والى طاقة الابتكار لدى بعض العاملين في الانتاج وتفاعلهم مع ضرورات الانتاج الملحة ، ولمعرفة تنوع الانتاج المادي في القطر ، وأهمية هذا التنوع حسب القطاعين العام والخاص ، ثم لأخذ فكرة عن التنوع المكاني لوسائل الانتاج ، وزمن دخول الوسيلة الى القطر ، والتعرف على أسماء أدوات العمل ، واصطلاحات العمل من مصادرها ، ولدراسة العلاقة الوثيقة المتبادلة بين البنيان التحتي والبنيان الفوقي في القطر ، ولوضع الأسس اللازمة لتأسيس مديرية القوى المنتجة من أجل وضع الأسس العلمية لاقامة التخطيط على أساس موضوعي علمي ، ومن أجل اعداد قاموس مصور لوسائل الانتاج وقاموس للصناعات والحرف ...

ولم ينس القرار المذكور ، في سبيل القيام بهذه المهمة الكبيرة والضرورية الى أبعد الحدود ، من أن يطالب بوضع الأدوات اللازمة تحت تصرفي ، ويمنحني التسهيلات الضرورية ، وبفرز عدد من موظفي الهيئة يتلاءم ودرجة تطور العمل للعمل معي ، وبمناشدة الهيئات والمؤسسات والمنظمات والأفراد الفنيين المختصين تقديم المعلومات اللازمة ، وبمساعدتي في أداء المهمة .

وكان بين القضايا التي تضمنتها خطة العمل في التنفيذ قضية الرجوع الى بعض المراجع المتحدثة عن الصناعات السورية في السابق ، من أجل وضع اطار لتطور الصناعات ومعرفة القديم ومقارنته بالجديد القائم . فكان ان عثرت في كتاب الاستاذ محمد كرد علي ((خطط الشام)) على ذكر للشاعر ابن الصائغ الدمشقي الذي ألف ((منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع))(١) وعلى ذكر ((قاموس الصناعات الشامية)) بقوله ((وقد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع والحرف في دمشق خاصة على اختلاف أسمائها وضروبها فبلغت نحو /٣٤٠/ حرفة وصناعة))(٢) .

هكذا بدأت بحثي عن المنظومة والقاموس ، فوفقت أخيرا بالعثور على نسخة من القاموس دون المنظومة ، وبذلك تعرفت على هذا الكنز الثمين ، وعلى ((الصناعات)) الشامية .

كان القاموس المذكور عبارة عن جزئين . الجزء الأول وقد وضعه الأب محمد سعيد القاسمي في فترة زمنية يفترض اقصاها ممتدا بين عامي ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠ ، وهو عام وفاته ، والجزء الثاني وقد أكمله ابنه جمال الدين القاسمي وصهره خليل العظم ، خلال مدة يفترض أقصاها بين ١٩٠٠ (تاريخ وفاة الأب) و ١٩٠٧ ، وهو تاريخ انتهاء مسودة الكتاب (جمادي الثانية ١٣٢٠ هـ) ، اي ان القاموس تموضعهفي مدة يفترض أقصاها ١٧ عاما وقد تكون اقل قليلا .

وقد احتضن هذا القاموس الثمين المستشرق الفرنسي ماسينيون ، وسعى بنفوذه الشخصي الى طبع مخطوطة القاموس التي حصل عليها من أسرة المؤلف ، عن طريق معهد الدراسات العلمية العليا في باريس . وهكذا ظهر القاموس الى عالم الوجود في عام ١٩٦٠ ، ولم يلبث أن نفذت نسخه من الأسواق .

قرات القاموس بشغف وتمعن مثنى وثلاث ورباع وخماس .. وكنت في كل مرة أكتشف شيئا جديدا في هذا الكنز الثمين ، وأتعرف الى صورة حية

---

(١) خطط الشام ، الجزء الرابع ص : ٢٢٩ .

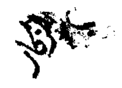
(٢) المرجع ذاته . الرقم المسجل في نهاية القسم الثاني من القاموس هو ٤٣٥ لا ٣٤٠ (المؤلف)

من صور شامنا في زمان وضعه وما قبله . وفي كل مرة أقرأه من جديد كان يزداد اعجابي بهؤلاء المؤلفين الذين وضعوا واتحفوا تراثنا بأول مؤلف نعرفه في موضوع كان ومايزال وسيبقى أساس الحياة المادية وأساس التطور الاجتماعي ، وظل مع هذا غير مطروق ، على ما نعلم ، خلال تاريخنا الطويل ، الا بهذا الشكل البسيط أو ذاك ، والى هذا الحد أو ذاك . ولذلك كان ، كما يقول المؤلف ، « نبذة عجيبة ، ونخبة غريبة ، ما سنح فكر بمثلها ولا سمع عصر بشكلها » . فاذا صح ذلك كان المؤلفون اول من يسد فجوة هامة في تراثنا الكبير ، ولهم في ذلك فضل لا يقدر.

كان القاموس أكبر مشجع لنا على مواصلة العمل في البحث الذي تفرد اجراؤه ، فما فكرنا به اليوم ، سبقنا الى تنفيذه اسلاف أجلاء ، نفذوه بأدوات بسيطة ، وبمعارف متواضعة ، وبجهود خاصة ، دون أن يكون لهم تخصص في الموضوع ، ودون أن يطلعوا على علم الاقتصاد . كا نأثمن ما يتمتع به المؤلفون هو ايمانهم بجدوى عملهم ، وارادتهم القوية في النجاح ، ومثابرتهم الجديـة على العمل طوال فترة طويلة من الزمن ، دون استشعارهم الملل ، ودون أن يدب الى نفوسهم اليأس ، ودون أن تثنيهم عن عزمهم كبريات الصعاب ، فكان هذا الاثر الذي نفخر به ونعتز .

لم يكن القاموس كله أيجابيات ، ولم يكن ليخلو من السلبيات . وقد تكون السلبيات كبيرة أحيانا ، وقد يكون الخطأ في الفكرة غير بسيط ، وقد تكون طريقة التاليف تشكو كثيرا من الاستطراد ، والخروج عن الموضوع ، واللجوء الى الاستشهادات الأدبية واللطائف والملح والنوادر . غير أن ما قاموا به ، رغم هذه السلبيات ، لم يسبقهم اليه ، على حد علمنا ، أحد .

وفي رأينا ان أول حق للمؤلفين علينا ، واول واجب علينا نحوهم هو أن نكمل ما بدأوه ، ونعد جزء جديدا وحديثا من قاموس الصناعات ، مستفيدين من فارق الزمن في التفكير ، والمعارف ، والعلم ، والطرق العلمية ، والتنوع ، ليكون الانتاج أكمل وأشمل .. وأن نكمل هذا القاموس ، ثانيا ، بقاموس مصور لأدوات العمل المستخدمة في الانتـاج والخدمات ، .. وأن نقوم بعمل آخر أكثر اصالة ، ثالثاً ، هو إقـامة متحف لهذه الأدوات يكون أكبر مركز ثقـافي تطلع الأجيال ، من خلاله ، على تطور العمل وأدواته وطرقه في هذه البلاد .



منهـاج الدراســة

في اعتقادنا ان بين ماينبغي فعله تجاه كتاب ك « قاموس الصناعات الشامية » لمؤلفيه الأجلاء ، أن نقوم بدراسة علمية لهذا الكتاب : فنضعه ، أولا ، في اطاره الزمني ، القريب المتصل بفترة وضعه ، والبعيد المتصل باستقاء معلوماته وأوضاع « صناعاته » المنتقلة الينا من جيل الى جيل ، كما نضعه ، مع زمنه ، في اطار تطور سورية التاريخي خلال الفترة الممتدة حوالي ١٨٥٠ – ١٩٠٧ ، وهي الفترة التي بدأ المؤلف الأب فيها وعيه لواقعه ، ومات قبل انتهائهـا ، والفترة التي ولد فيها الابن والصهر وبدءا حياتهما ، وأكملا عمل الأب العم . وندرس في هذه الفترة اهم العوامل التي أثرت في هذا التطور التاريخي .

وبعد هذا ننتقل الى الحديث عن الشكل والجوهر في القاموس . فنتحدث في فقرة الشكل عن عدد فقرات القاموس ، وعنوان الكتـاب ، وتناقض بعض التواريخ ، وعن فكرة وضع القاموس ، وعن الاخراج الذي ينبغي أن يتوفر للقاموس في طبعته المقبلة .

كما نتحدث في جوهر القاموس عن مفهوم القاموس للصناعة والحرفة ، ونبين مفهومنا لهما مع المهنة والصنعة ، ثم نتحدث عن النشاط الاقتصادي والمنزلة الاجتماعية التي خصها القاموس بهذه « الصناعة » أو تلك .

وبعد هذا ننتقل الى بحث أهم الصور التي خلفها لنا القاموس عن واقع شامنا سواء ما تعلق منها بالنشاط الاقتصادي أو بالحياة الاجتماعية . فندرس في الأول النشاط الاقتصادي والكنية ، والنشاط الاقتصادي والديانة والعرق والجنس ، والنشاط الاقتصـادي وأدوات العمـل ومراتبـه ، والنشاط الاقتصادي والأسعار والأجور .

في حـين ندرس في الثـاني اللباس ، والأفراح ، والاتراح ، والشئون الصحية ، والغش والخداع والتضليل واللصوصية ... الخ .

بهذا كله نستطيع الالمام بالقاموس ، اطارا ، وشكلا ، وجوهرا وصورا حية ، وبهذا نتمكن من خدمة القارىء العربي خدمة تجعله يستفيد منه على نحو أدق وأكمل .

الفصل الأول

١ ـ تأطير القاموس

بين عامين ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠(١) تمكن القاسمي الوالد من وضع الجزء الاول من « قاموس الصناعات الشامية » ، الذي انتهى بوفاته في التاريخ المذكور . ثم تابع القاسمي الابن وصهرهما خليل العظـم وضع الجزء الثاني من القاموس المذكور ، الذي جاء في آخر مسودته مايلي « وتم كتابته على يد الراجي عفو ربه حامد بن محمد أديب التقي في جمادى الثانية ١٣٢٥ »(٢) . وهذا يعني أن وضع القاموس المذكور انتهى في حوالي هذا الزمن . فاذا عرفنا أن وفاة القاسمي الابن كانت في ٢٣ جمادى الاولى ١٣٣٢(٣) (١٨ نيسان ١٩١٤) ، نتبين أن القاسمي الابن والصهر قد انفقا مدة على وضع الجزء الثاني تبدأ على أكثر تقدير ، من سنة وفاة الاب (٢٣ شوال ١٣١٧ ـ ٢٣ شباط ١٩٠٠) الى حوالي تاريخ انتهاء تحرير المسودة في جمادى الثانية ١٣٢٥ هـ ، أي قبل وفاة الابن بحوالي سبع سنوات هجرية .

وقد حصر القاموس « الصناعات الشامية » التي يقوم عليها الاقتصاد الدمشقي ، في ٤٣٥ « صناعة »(٤) ، بين زراعة وحرفة وتجارة ، وبناء وخدمات، « وصناعات » أخرى لاتدخل في اطار النشاطات الاقتصادية في رأينا .

ومهما كان التشابه قويا بين الاقتصاد الدمشقي والاقتصاد الحلبي أو الحمصي ، أو الحموي ... ، فليس بالامكان القول بأن مايقال في الاقتصاد

---

(١) لم يعرف موعد البدء بوضع القاموس . ويعتقد الاستاذ ظافر القاسمي ، استنادا الى تاريخ استشهد به المؤلف في فقرة البوابيجي ص٥٧ ، أن البدء كان في سنة ١٨٩٣ أو قبل ذلك بقليل وفي رأينا ان البدء بكتابة فقرات القاموس تستوجب مرحلة اعداد لجمع المعلومات اللازمة وتبويبها وربما استغرقت هذه المرحلة السنتين أو الثلاث مما يتيح لنا التفكير بالرجوع ببدء وضع القاموس الى حوالي ١٨٩٠ (المؤلف) .

(٢) راجع القاموس هامش ص ٥٠١ .

(٣) راجع القاموس ص ٢٠٦ .

(٤) سنتناول هذا الرقم بالتحليل فيما بعد .

الدمشقي هو نفس مايقال في اقتصاديات المـدن الأخرى . « فالصناعـات » الشامية قد تختلف ، في هذا النوع أو ذاك ، والى هـذا الحد أو ذاك ، عـن الصناعات الحمصية والحلبية والحموية . « فالصناعة » الاساسية في اقتصاد دمشق قد لاتكون أساسية الى الحد ذاته في اقتصاد حلب مثلا ، وقد توجـد هنا « صناعات » لاتوجد هناك ، وقد تكون « الصناعة » الواحـدة هنا علـى درجات متفاوتة من التطور هناك وهنالك . لهـذا لايمكن اعتبار الصناعـات الشامية نسخة ثانية عن الصناعات الحلبية أو الحمصية ... الخ .

ثم ان اقتصاديات المدن مهما تعددت وتنوعت ، فكل منها يشكل جزءا من كل هو الاقتصاد السوري ، يجمعها به قاسم مشترك ، وخطوط عريضة كبرى قد تكون أقوى على فرض سماتها العامة ، من الخصائص المحلية ، والفوارق المدينية . لهذا كان لابد لفهم تطور اقتصاد مكاني معين ، من فهم خصائص تطور الاقتصاد السوري وتطور سورية التاريخي ككل في مرحلة زمنية معينة .

واذا كان محمد سعيد القاسمي ، الاب ، قد ولد في أوائل محرم ١٢٥٩ ، (أوائل شباط ١٨٤٣) ، واذا كان القاموس قد وضع في فترة أقصاها ١٨٩٠ ـ ١٩٠٧ ، فهذا يعني أن معلومات القاموس قد استقيت من واقع الفترة ١٨٩٠ ـ ١٩٠٧ أولا ، ومن معلومات ومعارف شخصية سابقة اطلع عليهـا المؤلفون ، ولا سيما الاب ، ثانيا ، ومن معلومات ومعارف سابقة انتقلت الى المؤلفين خاصة عن طريق أهل « الصناعات » الممارسين أو طريق أخبار أهلها السابقين ، ثالثا.

وعلى هذا فلن نجد حرجا من اجل فهم أوضاع الاقتصاد الدمشقي الـذي يتحدث القاموس عن « صناعاته » من دراسـة مختلف أوضاع تطور سـورية التاريخي في الفترة الممتدة بين مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، حين انتهى وضع القاموس . وبذلك نضع القاموس في اطاره التاريخي العـام . فما هي خصائص تطور سورية التاريخي في هـذه المرحلة ؟(٥) .

١ ـ لقد تطورت سوريـة في هذه المرحلـة في ظل احتلال تركي تواصل منذ سنة ١٥١٦ وحتى سنة ١٩١٨ . وهذا يعني طبع تطور سورية بطابع تطور الدولة العثمانية وفرض نوع معين من العلاقات الانتاجية ، ودرجة معينة من التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي عليها .

---

(٥) راجع لزيادة الايضاح مؤلفنا « اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية » ص ٣ ـ ١٠ .

٢ ـ كما تطورت في ظل حكم سياسي اوتوقراطي لم يكن ينظر الى الشعب الا على انه اداة لتحقيق رغبات الحاكمين وطبقتهم الارستقراطية الاقطاعية .

كان هؤلاء السادة الاقطاعيون يحكمون الدولة بعقلية القرون الوسطى ، ويديرونها في ظل حكم استبدادي يكره الحرية والتجديد والاصلاح ويعادي الديموقراطية بمختلف الوانها واشكالها . كان هؤلاء السادة يعتبرون المملكة مزرعة لهم ولعنصرهم التركي الحاكم ، والسلطة السياسية اداة استثمار جماهير الشغيلة ، لاسيما شغيلة القوميات الاخرى ، ووسيلة لجر المغانم الشخصية والطبقية . وهذه العقلية الحاكمة التي قامت على الانانية والعنجهية ، والتنكر لمبادىء العلم الاساسية في الادارة والسياسة والاقتصاد والحقوق ، عجزت عن معالجة القضايا القومية معالجة علمية صحيحة ، ولم نجد أيسر ، في هذه المعالجة ، من طرق الفتك والقمع والارهاب . فكثرت الاضطرابات ، واشتعلت الثورات ، وكثرت الحروب . وكل ذلك يتطلب المال والوقود البشري اللذين وجدتهما الادارة القائمة بشكل رئيسي ، عن طريق نهب الشعب وتعميق طرق استثماره وعن طريق اذلاله ، وسوقه كالانعام ليكون طعام النار والحديد .

٣ ـ كما جرى تطور سورية والمملكة العثمانية في فترة بلغت فيها راسمالية حرية المزاحمة في العالم أوج تطورها في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر . واخذت ، بالتالي ، بالانتقال الى مرحلة جديدة في تطور الراسمالية ، هي مرحلة الاحتكار والامبريالية ، حين اخذ التمركز يتعاظم في الانتاج والبنوك ، والتشابك يتزايد بين المال والصناعة لينشأ عنه الراسمال المالي . واذا كان تصدير السلع السمة المميزة لراسمالية المزاحمة ، فان مايميز المرحلة الامبريالية بشكل خاص هو تصدير الراسمال ، واقتسام العالم اقتصاديا وسياسيا . هكذا خضعت المملكة العثمانية ، بما فيها سورية ، للسمة الجديدة في تطور الراسمالية ، واصبحتا ميدانا واسعا لتوظيف الرساميل الاجنبية ، ولتصريف السلع الاجنبية ، ولوضع اليد على اهم موارد المواد الاولية . وبذلك تحولتا ، شيئا فشيئا ، مع نمو السيطرة الاستعمارية وتغلغل الراسمال الاجنبي ، الى بلد نصف مستعمر ، يوجه كل شيء فيه لخدمة المشاريع والمصالح الاستعمارية .

٤ ـ وجرى تطور سورية والمملكة العثمانية أيضا في ظل نظام الامتيازات الذي فرضه الاجانب على المملكة ورعاياها . كان هذا القطاع سلاحا ماضيا في يد الدول المتطورة ، ولاسيما الاوروبية ، للتغلغل في الامبراطورية العثمانية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، واخضاعها ، شيئا فشيئا ، لنفوذ كبريات تلك

الدول . وقد سهلت هذه الامتيازات تغلغل الرساميل الاجنبية من سلعية ونقدية وانتاجية ، وكانت عاملا هاما في تأخر تركيا عن ركب الحضارة الاوربية وفي عرقلة نمو العلاقات الرأسمالية فيها ، وفي توطيد أسس العلاقات الاقطاعية في الامبراطورية ، وتدعيم الحكم البيروقراطي المتنكر لكل حق من حقوق شعوب هذه الامبراطورية ، والمعرقل لكل تقدم واصلاح حقيقي في البلاد . هذه الامتيازات جعلت من أصحابها دولا داخل الدولة ، وسلبت الامبراطورية العثمانية حق السيادة في بعض مظاهره الاساسية ، كما كانت أداة للتآمر الاستعماري ضد الامبراطورية ، تسهل الفتن ، وتشعل الثورات ، وتزرع في مختلف أنحاء الامبراطورية مؤسسات أجنبية ، فكرية ، ودينية ، واقتصادية توجّه حرابها ضد سيادة الامبراطورية ذاتها وفي سبيل استغلال شعوبها . انها بدأت بالقليل وانتهت بتحويل الامبراطورية الى مناطق نفوذ للدول الاجنبية والى توجيه وادارة البلاد واقتصادها ومواردها في خدمة الرساميل والمؤسسات المالية الاجنبية وسياسات الدول الاستعمارية . لقد بدأت عام ١٥٣٥ لتنتهي في عام ١٩١٤ .

٥ ــ وجرى تطور سورية والمملكة العثمانية في ظل اقتصاد تشكل الزراعة فيه القطاع الاساسي ، حيث كان يعمل في الزراعة السورية بين ٦٠ ــ ٧٠٪ من السكان ، ولا تشغل الصناعة والتجارة مجتمعتين اكثر من ١٠ ــ ١٥٪ منهم . وكان من أهم مايصدره هذا القطاع الحرير الخام ، والقطن ، وزيت الزيتون والتبغ والصوف والجلود . وكانت السيادة في هذا القطاع للعلاقات الانتاجية الاقطاعية ، وهي علاقات كانت تعتمد على التسلط والاستبداد والجهل في الاستثمار ، أكثر مما تعتمد على الاساليب العلمية والادوات الزراعية الحديثة ، والطرق الفنية والمفاهيم الحقوقية القويمة . كان الاقطاعي ، على العموم ، جاهلا متفطرسا ، انانيا ، جشعا . يعتمد في الاستثمار على أدوات العمل البدائية التي لاتعطي من المردود الا قليلا ، وكان بخيلا على ارضه فلا يقدم لها من الرساميل الا الحد الادنى الذي لابد منه لمواصلة الاستثمار ، معتمدا في الغالب على رحمة السماء ورأفة الطبيعة . ومهما جادت الطبيعة أو قست ، فهو دائما يجد نفسه وجها لوجه أمام فلاحيه المكافحين دائما في سبيل لقمة الخبز ، يجدهم البقرة الحلوب التي عليها أن تسد نهمه من جوعها ، وتشبع غرائزه من عريها ، وتؤمن له النفقات التي يفرضها طراز معيشة قائم على البذخ والتبذير ، ورثه عن أجداده ، واعتاده في حياته ، وهو يورثه بدوره لابنائه .

٦ ــ وكان الانتاج الصناعي في البلاد يقوم ، من حيث الاساس ، على أساس الانتاج الحرفي والمنزلي ذي الرساميل الضئيلة ، وأدوات الانتاج

البسيطة ، والتقسيم البدائي للعمل ، والإنتاجية الضئيلة ، وضعف التمركز والتركز ، والشعور الطبقي البسيط غاية البساطة . واذا كانت قد وجدت هنالك بعض المانيفا كتورات الصناعية الراسمالية ، أو حتى بعض المؤسسات الحديثة نسبيا والتي تضم أكثر من مائة عامل ، فانها كانت نادرة ، وضعيفة التجهيز ، والانتاجية ، وكثيرة التكاليف ،والغالبيةالعظمى منها مرتبطةبالراسمال الاجنبي والمؤسسات الصناعية الاجنبية .

وكان على البرجوازية الصناعية السورية أن تتحمل مقاومة الاستعمار والاقطاع التركي لتطورها ، ووطأة نفوذ الراسمالالاجنبي المتزايد ، وعبء قيوده واستثماره ، ومنافسة مؤسساته في الداخل أو الخارج .

٧ ــ أما القطاع التجاري ، على أهميته ، فقد بقي ، من حيث الجوهر خاضعا لسيطرة المؤسسات الاستعمارية والراسمال الاجنبي ، لاسيما في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، عبر المؤسسات العديدة، وعبو التجار الاجانب وعبر فئة الكومبرادور المرتبطة بالمصالح الاجنبية ، وعبر النفوذ الاستعماري ونفوذ هذا الراسمال في الجهاز الاداري والتشريعي المركزي.

وقد تمكنت انكلترا عام ١٨٣٨ من فرض اتفاقية تجارية على الدولة العثمانية الزمتها بموجبها بقبول تعرفة جمركية ثابتة على الصادرات الانكليزية هي ٥٪ من قيمة السلع المصدرة ، دون ان يخضع هذا الشرط للمعاملة بالمثل ومن غير أن تملك المملكة العثمانية حق تعديل التعرفة الجمركية دون رضا انكلترا ذاتها ، أو حق احتكار التجارة في أراضيها . وبذلك امنت انكلترا لنفسها سوقا واسعة لتصريف منتجاتها بشروط مفضلة ، ومنبعا غنيا بالمواد الاولية الرخيصة اللازمة لها . ولم تلبث هذه الاتفاقية ان شملت معظم الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة ، بين عامي ١٨٦١ ــ ١٨٦٢ مع تعديل بسيط في التعرفة الجمركية فيها الى ٨٪ .

٨ ــ واذا كان لابد من الاشارة الى ايادي أخطبوط الراسمال الاجنبي في الاقتصاد العثماني ، بما فيه الاقتصاد السوري والدمشقي(٦) فاننا نستطيع ايجاز ماسيطرت عليه هذه الايادي ، فيمختلف القطاعات ، بما يلي :

---

(٦) راجع لزيادة الايضاح مؤلفنا « اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية » الفصل الاول .

آ ــ ففي الميدان المصرفي أسس البنك العثماني عام ١٨٥٦ برساميل انكليزية في البداءة ، وهو ذو فروع عديدة منتشرة في الامبراطورية العثمانية والتي خص سورية منها ١١ فرعا . وقد انضم الى الرأسمال الانكليزي عام ١٨٦٣ الرأسمال الفرنسي ليصبح اسم البنك، الجديد « البنك الامبراطوري العثماني » الذي منح حق احتكار اصدار الاوراق النقدية العثمانية . وبعد أن كان العميل المالي للحكومة العثمانية ، بموجب اتفاق عـام ١٨٦٣ ، أصبح في أيار ١٨٧٤ الأمين العام لصندوق الامبراطورية ، وخازن جميع مداخيل الدولة لقاء عمولة قدرها ½٪ على المبالغ الداخلة الى صندوقه والخارجة منه . كما أصبح المفاوض الوحيد لسندات الدين على الحكومة واصبح الوسيط الرسمي الوحيد للحكومة العثمانية من أجل عقد القروض الاجنبية واطفائها ...

كما كان بين البنوك الاجنبية القوية في الامبراطورية العثمانية بنك اسسته كتلة يهودية في سالانيك عام ١٨٨٨ برأسمال قدره ٣٠ مليون فرنك فرنسي .

وهناك بنك « الكريدي ليوني » المنافس الكبير للبنك الامبراطوري العثماني الذي افتتح أول فرع له في الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٥ وساهم مساهمة فعالة في نشر النفوذ الفرنسي في مناطق الشرق الادنى . وكان له فرعان فـي سورية منهما فرع في بيروت الذي لعب دورا هامـا في ربط صناعـة الحرير السورية بصناعة ليون الفرنسية .

وبالاضافة الى ذلك فقد امتد الى المملكة العثمانية نفوذ البنك الالماني الشهير « دوتش بانك » المنافس الخطير للرأسمال الانكليزي والفرنسي ، والذي يسهم في كتلته ٨٧ بنكا ، ويساهم في شركات توسعية كثيرة كان يشمل نشاطها مختلف أنحاء قارات العالم . وقد أهتم اهتماما خاصا بالامبراطورية العثمانيـة لتحويلها الى مشاريع استثمار للرأسمال الالماني ، وقد افتتح له فرعا فـي القسطنطينية عام ١٩٠٠ ... الخ .

ب ــ وقد استخدمت القروض الاجنبية كوسيلة هامة للتغلغل الاستعماري واحكام طوق الاستعمار في رقاب الامبراطورية العثمانية التي اضعف مواردها الجهل والبؤس ، وسوء الادارة وعـدم الايمان بالجماهـير والديمقراطية ، وانهكتها الحروب والثورات والاضطرابات فكانت كثيرا ماتضطر الى الاستدانة. ولكن عوضا عن أن تقوم الادارة بانفاق هذه القروض المعقودة بشروط قاسية على تطوير طاقة البلاد الانتاجية لتنمي مواردها وتحسن امور شعبها ، كانت تنفق معظمها على الحروب وقمع الثورات التحريرية وبذخ العائلة المالكة ، ودفع الفوائد ، وتسديد حصص القروض التي عجزت عن وفائها في حينها فتحولت القروض بذلك الى ورم سرطاني يتفاقم خطره في الجسم يوما بعد يوم .

لقد عقدت الدولة العثمانية بين عامي ١٨٥٤ ــ ١٨٧٤ أربعة عشر قرضا مع كبريات الاحتكارات الاجنبية ولا سيما مع الفرنسية والانكليزية منها بقيمة خمسة مليارات فرنك ، قبض منها عمليا مايزيد قليلا على ٣ مليارات . ولم تكن هذه الاحتكارات تمنح قروضها الا لقاء وضع اليد على أهم موارد الدولة المالية لضمان تسديد الفوائد والحصص السنوية من القروض . وهذا عنى ، عمليا، وضع الاقتصاد كله تقريبا تحت اشراف الرأسمال الاجنبي . ولم يلبث هذا الوضع ان انتهى الى نتيجته الحتمية ، فأعلنت الدولة افلاسها بين عامي ١٨٧٥ ــ ١٨٧٩ ، وتوقفت منذ نيسان عام ١٨٧٦ عن دفع فوائد وحصص وفاء قروضها . ولم يلبث هذا الافلاس ان احكم الطوق على رقبة الامبراطورية عن طريق تأسيس ــ ادارة الدين العثماني ــ ، عام ١٨٨١ التي كانت بمثابة الوصي على الامبراطورية، تتمتع بصلاحيات واسعة ، وتخضع لرقابتها قسما أساسيا هاما من موارد الدولة .

ثم توالي عقد القروض من جديد ، فعقدت الدولة العثمانية بين عامي ١٨٩٠ ــ ١٩٠٨ ، ١٢ قرضا معظمها مع الاحتكارات الالمانية والفرنسية والانكليزية قيمتها ٢٤٨ر٤٥ مليون ليرة تركية . وقد تعهدت الدولة العثمانية ، في سبيل ارضاء هذه الاحتكارات بعدم انفاق القروض الا بموافقة المقرض ، وحسب الطريقة التي يرتئيها ، مما زاد في سوء الاحوال ، وشدّد من قبضة الرأسمال على الدولة .

ج ــ أما في ميدان الصناعة والطرق والمرافىء والخطوط الحديدية فقد تمكن الرأسمال الاجنبي من ربط صناعة الحرير بمؤسساته .

كان قسم هام من منتوج الحرير الطبيعي يصدر ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، الى فرنسا . وفي السنوات الاربعينيات من القرن التاسع عشر بدأت صناعة الحرير تأخذ شكل المانيفاكتورات ، وحتى شكل الفبارك الكبيرة التي تستخدم الآلات البخارية وتقوم في القرى قرب مصادر المادة الاولية ، ويغذيها الرأسمال الاجنبي الممثل بالتجار الفرنسيين والانكليز وغيرهم . ومع زيادة تغلغل الرأسمال الاجنبي الفرنسي في سورية ، زاد ارتباط هذه الصناعة بالاقتصاد الفرنسي، وخاصةبمدينتي ليون ومارسيليا، حيث تستخدم الحرير مادةأولية لمعاملها في الغزل والنسيج . كان الحرير يصدر الى فرنسا أما شرانق أو خيطاناً بعد غزل الشرانق محليا . فكان يستثمر بذلك الفلاح المنتج للشرانق ، والعامل الذي يغزلها . وكثيرا [illegible] الرأسمال الفرنسي على هذه المادة الى خلق صعوبات جدية أمام [illegible] تعتبره مادة اولية لهـا .
فحين ترتفع [illegible] لراسمال الفرنسي احتكار

هذه المادة ، وتحرم السوق المحلية منها ، تضطر تلك المعامل أما الى التوقف ، او الى شراء الحرير من جهات اخرى بأثمان عالية ، مما يضعف مقاومتها للمزاحمة الاجنبيـــة .

وقبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى كان في سورية ٩٣ مؤسسة لفـــزل الحرير . وكانت قرابة جميع مصانع الحرير والنسيج الحريري في سورية تعود للفرنسيين .

كما تمكن الراسمال الفرنسي بعد افلاس الدولة العثمانية وانشاء «صندوق الدين العام» ووضع بعض موارد الدولة تحت سيطرة ممثلي الرسمال الاجنبي كضمان لوفاء الديون ، تمكن من احتكار التبغ في عام ١٨٨٣ في الولايات الخاضعة للسلطة العثمانية مباشرة . وهكذا سيطر هذا الرسمال على المنتج والمحـول والمستهلك له على السواء ، بغض النظر عن الملاحقات ، والتحريات ، واراقة الدماء وفرض الغرامات ، وانتهاك حرمات البيوت وحريات الانسان وكرامتـه.

كانت الشركة التي اقامت مركزها العام في القسطنطينية ، وفروعا لها في اهـم المدن السورية ، هي التي تحـدد اثمان تبغ الفلاح ، وهي التي تصنعه ، وهي التي تحـدد أثمـان مبيعه للمستهلك . وبذلك كانت تستثمر الفـلاح الزراع والعامل الصـانع في منطقتي دمشق وحلب ، وابن الشعب المستهلك اينما وجد . اما التنباك الذي بقي الفلاح متمتعا بحق بيعه داخل البلاد ، فكان مجبرا على دفع ضريبة للشركة تعادل ٤ قروش ذهبية لقاء بيعه كل كيلو غرام واحد منه ، كما كان مجبرا على تحمل ضريبة العشر ايضا .

وفي مجال البترول جرى صراع حـاد بين الرسمال الانكليزي والفرنسي والالماني والاميركي بشكل خاص ، من أجل التمتع بامتيازات التحري عن النفط في المملكة العثمانية . وكثيرا ماكانت المناورات بين هـذه الرساميل تعمل على تقارب هذا الرسمال من ذاك ضد ذلك ، أو تنفض يدها من حليف اليوم لتحالف عدو الامس ضده . ولكن اندلاع الحرب العالمية الاولى أوقف المساعي التي لم تكن قد انتهت بعد الى شيء نهائي حاسم .

وهذا كله فضلا عن التوظيفات الصناعية الاخرى في مجالات مختلفة هنـا وهناك . فيحدثنا مؤلف «ابشالك حلب» أن مانيفاكتورات انكليزية انشئت في مدينة حلب ، وان منشآت انكليزية تطورت تطورا عظيما فيها . وهذا فضلا عن انشاء معمل في بيروت ١٨٦٤ لغزل القطن [illegible] الذي نقل بعـد سنوات الى الشام ، وعن [illegible] في اقامها هذا الرسمال الاجنبي أو ذاك في

ــ وفي مجال شق الطرق وبنـاء المرافىء ومدّ الخطوط الحديدية بذل الرسمال الاجنـبي جهودا واسعة ، وخاض صراعـا ضاريا فيما بين اطرافـه للحصول على الامتيازات التي تؤمن له استثمار هذا النشاط وذاك ، ولا سيما في مجال مد الخطوط الحديدية الذي كان يهـدف ، أول مايهـدف ، الى تأمين المصالح الستراتيجية وغير الستراتيجية لدولة هذا الرسمال أو ذاك ، قبل تأمين مصالح الدولة العثمانية الاقتصادية .

وكانت الضمانـة الكيلو مترية احـدى الوسائل الاساسية في استثمار الرسمال الاجنبي لخيرات المملكة . وكان ٢٨ سنجقا من سناجق آسيا الصغرى يدفع اعشاره لتشديد الضمانة الكيلو مترية ، فقبض اصحاب الامتيازات بين عامي ١٨٨٩ ــ ١٩١٤ مبلغ ٣٢٠ مليو نفرنك ، وهو مبلغ كان يكفي وحده لمـد ١٥٠٠ كم من الخطوط الحديدية الخاصة بالسلطة العثمانيـة لو كانت حرة في تدبير أمورها(٧)

لقد بدأ مد الخطوط الحديدية في الامبراطورية العثمانية منذ مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وامتد حتى خلال الحرب العالمية الاولى .

وكان خط يافا ــ القدس أول خط حديدي مد في سورية ووضع موضع الاستثمار في عام ١٨٩٢ ، ثم تلاه خط دمشق ــ مزيريب الذي انشاته شركة بلجيكية عام ١٨٩٣ ، وتلا ذلك خط دمشق ــ بيروت الذي استثمر منذ عام ١٨٩٥

أما الخط العريض رياق ــ حلب ، فقد وضع موضع الاستثمار عام ١٩٠٢ بين رياق وحماه ، وعام ١٩٠٧ بين حماه وحلب . وفي عام ١٩١١ بدىء باستثمار خط حمص طرابلس ، وكانت معظم رساميل هذه الخطوط فرنسية .

أما الرسمال المالي الالماني فقد تمكن من الحصول على امتياز مد خط حديد الاناضول الذي وقع في ١٨٨٨/١١/٤ ، واسس شركة حديد الاناضول العثمانية في آذار ١٨٨٩ لمد الخط المذكور . كما حصل الرسمال ذاته على امتياز مد خط حديد بغداد الستراتيجي الهام ، الذي وقع عليه ، نهائيا ، في ١٩٠٢/١/٢١ . ولم يلبث اتفـاق برلين في ١٩٠٣/٢/٥ أن قرر اشراك رساميل من جنسيات متعددة ، اهمها الرسمال الفرنسي ، والرسمال الانكليزي ، مع الرسمال الالماني لمد هذا الخط .

هذا وقد سبق لاحدى الشركات الانكليزية الحصول على امتياز مد خط حديد ازمير ــ أضنة ، بطول ١٣٠ كم الذي انتهى العمل فيه في عام ١٨٦٧ ، ثم

---

(٧) بنداريفيسكي : « خط بغداد » ص ٥٦

مدد الى « دينار » وتقرر بعد ذلك مده الى « ادهاردير » . ثم إن الرسمال الفرنسي تمكن من الحصول على امتياز استثمار حركة النقل البري (ديلجانس) بين دمشق وبيروت في عام ١٨٥٧ ، وهو الخط الذي سلّم للاستخدام في عام ١٨٦٣ . كما قامت شركة فرنسية اخرى بشق طريق بيروت ـ صور . واعطي امتياز شق طريق طرابلس ـ حمص واستثمار نقل عرباته ، عام ١٨٦٣ ، الى الشركة الوطنية العثمانية ، والذي اشترته شركة خط حديد دمشق حماه وتمديداته عام ١٩١٠ مع خط حديد طرابلس ـ حمص .

وحصلت « الشركة العثمانية لمرفأ بيروت وأرصفته ومستودعاته » التي تشكلت عام ١٨٨٧ ، بادارة رساميل فرنسية على امتياز بناء واستثمار المرفأ والارصفة والمستودعات في حوض بيروت . وقد انتهت أعمال الانشاء عام ١٨٩٤ وأصبح بامكان المرفأ استقبال ١٠ ـ ١٢ مركبا كبيرا .

أما الرسمال الالماني فقد وجه اهتمامه ، في مجال الموانىء ، الى مرفأ حيدر باشا ، ومرفأ الاسكندرون . فتمكنت « شركة خط الاناضول » في ١٨٩٩/١/٢٩ من الحصول على امتياز انشاء مرفأ كبير في مدينة حيدر باشا ، التي تعتبر نقطة انطلاق خط الاناضول الحديدي الذي سيوصل فيما بعد بخط بغداد . لهذا كان إنشاء هذا المرفأ يتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة الى استراتيجية الرسمال المالي الالماني . كما سمح للشركة ذاتها بانشاء مرفأ عصري في الاسكندرون .

د : ـ واذا كان الرسمال الاجنبي ، على العموم ، والنفوذ الاستعماري قد لعبا ، في مرحلة الراسمالية الاحتكارية ، الدور الاول في فرض الاشراف الاجنبي على تجارة سورية والمملكة العثمانيـة ، الداخلية والخارجية ، فان الرسمال التجاري الاجنبي القديم العهد ، وذا الصلة الوثقى بموقع سورية الجغرافي كنقطة وصل بين آسيا وافريقيا واوروبا ، كان قد مهد الطريق للاشراف الاجنبي على أهم مراكز التجارة الداخلية والخارجية في سورية . فكانت الحروب الصليبية والاحتلال الاجنبي لجزء من الارض الاسلامية نقطة انطلاق هـامة بالنسبة الى هذا الرسمال . وكانت المملكة المسيحية الناشئة في الاراضي المحتلة مسرح أعمال تجارية هامة بين الشرق والغرب . ورغم انهيار الدولة الاجنبية وتحرر القـدس وبقية الاراضي المحتلة من الصليبيين فقد بقيت بعض المراكز التجارية الاجنبية حيث كانت ، وأخذت تستعيد قوتها مع الزمن . كما كان عددهـا وسلطانهـا الاقتصادي يزدادان شيئا فشيئا مع الظروف الملائمة . كمـا قامت قنصليـات اوروبية عديدة في سورية ، ولا سيما في دمشق وحلب . ونتيجة للتغلغل الاجنبي المتزايد ، ولنظام الامتيازات الذي جعل من المؤسسات الاجنبية دولا ضمن دولة ، فقد اصبحت تجارة سورية كلها تقريبا في يد الفرنك واليونانيين والارمن وغيرهم

وغيرهم . كان السوري العثماني لايرهب التجارة ولكنه كان يرهب الافلاس الاكيد في تنافسه مع التجار الاجانب الذين ينعمون بميزات كبيرة عليه . وهو أمر أدى الى تهافت التجار الاجانب والرسمال التجاري الاجنبي على البلاد . كما أدى ، في الوقت ذاته ، الى انعزال السوريين عن ميادين التجارة الهامة لاسيما الخارجية ، والاقتصار فيها على ميادين قليلة الاهمية أهملها جشع الرسمال الاجنبي التجاري الغازي . وقد ساعد هذا الرسمال على تطوير فئة الكومبرادور في سورية ، التي أخذت مصالحها ترتبط بمصالح الرسمال الاجنبي ، وتتحول تاريخيا الى ركيزة من ركائز الدول الاجنبية في سورية .

كانت وظيفة الرسمال التجاري الاجنبي ومؤسساته هي، بالدرجة الاولى، استيراد المواد الاولية والغذائية من سورية بأبخس الاثمان ، وتحويل مايراد تحويله ، ثم تصدير هذه المواد مصنّعة مع غيرها من المنتجات اليها ، بأثمان عالية، لتضارب الانتاج السوري ذاته ، أو لاغراق اسواق سورية بالاشياء الكمالية ، أو الاشياء المنتجة في حدود ضيقة . وبذلك تحرم سورية من تحويل موادها الاولية فوق أراضيها ، وبيد أبنائها ، وبأدواتها الخاصة . كما كانت السيطرة تستخدم سورية سوقا لتصريف المنتجات الصناعية الاجنبية ومزاحمة الصناعة الوطنية ، وتحقيق الارباح الطائلة في عملية الاستيراد والتصدير .

وكان من جرّاء توطيد الرسمال الاجنبي التجاري أيضا مساهمته الفعالة في تطوير الرسمال الربوي في البلاد . كان الفلاح السوري في نهاية القرن ١٨ وبدء التاسع عشر يحمل نفسه منتجاته الى السوق لتصريفها . أما في وسط القرن التاسع عشر وبعد ذلك فقد أخذ العميل الاجنبي يصبح وسيطا بين الفلاح والسوق ، ويحمل الفلاح اعباء هذه الوساطة الثقيلة ، عن طريق تقديم القروض له بفوائد باهظة ، وعن طريق شراء محصوله المنتظر ، بأبخس الاثمان .

ومع تحول راسمالية المزاحمة الى الراسمالية الاحتكارية ونشوء الامبريالية ، ضم الرسمال التجاري جهوده الى الرسمال المصرفي والانتاجي في تسهيل تغلغل النفوذ الاستعماري وتحويل امبراطورية الرجل المريض الى بلد نصف مستعمر .

* * *

هذا هو الإطار الذي جرى فيه تطور الاقتصاد السوري ، و « الصناعات » الشامية ، لاسيما خلال الفترة التي عاشها الاب وابنه وصهره ووضعوا قاموسهم فيها . وهو إطار يبيّن اثر العوامل الرئيسية المختلفة التي طبعت تطور « الصناعات الشامية » بطابعها ،وجعلتها على الشكل الذي وجدت فيه ،وتحدث المؤلفون عنها ، دون أن يلمح القاموس الى اي عامل من هذه العوامل بين طياته .

٢ ـ في الشكل والموضوع

أ ـ في الشكل

ربما كانت أول خطوة ، بعد التأطير في تحقيق الدراسة العلمية ، هي خطوة البحث في الشكل واجراء بعض التحقيقات التي من شأنها اعطاء ضبط أعمق ، ودقة أقرب الى الكمال ، يليقان بمؤلف كـ « قاموس الصناعات الشامية » وبمؤلفين كالذين ذكروا سابقا .

إن أول ما يستدعي الانتباه هو هذا التناقض في العدد الذي تتكون منه قائمة « الصناعات » الشامية التي يحتويها القاموس . وهو تناقض لابد من حله . فالسيد لويس ماسينيون يذكر في أعلى الصفحة السادسة من الجزء الاول أن قائمة القاسمي تضمنت ٤٣٧ حرفة . وهو رقم اعاد ذكره الاستاذ ظافر القاسمي في تحقيقه وتقديمه للكتاب(٨) . ولكن الرقم الاخير الذي يحمله الكتاب هو الرقم ٤٣٥ ، فيكون هنالك خلل ينبغي تقويمة . بيد أن هذا التباين الرقمي البسيط ليس كل شيء ، بل هنالك أمور اخرى لا بد من بحثها عند معالجة الرقم الفعلي الحقيقي للصناعات الشامية .

فهناك مثلا ، عدد من الارقام التي كررت دون ضرورة لذلك التكرار ، ولقطع التسلسل الرقمي بالتالي ، والوقوع في تباين الرقم الاخير في الكتاب مع الرقم الفعلي لقائمة « الصناعات » . فالارقام ١٥٥ (ص ٢٣٠) و ٢١٠ (ص ٢٨٨) ، و ٢٥٢ (ص ٣٣١) و ٢٧٥ (ص ٣٥٣) ، هي أرقام مكررة ، أي تزيد في عدد قائمة « الصناعات » وتجعلها ٤٤٠ بدلا من ٤٣٥ رقم آخر الكتاب، وبدلا من ٤٣٧ حسب قول السيد ماسينيون والاستاذ ظافر القاسمي .

ثم إذا نظرنا الى الرقم العام من خلال الشروح المقرونة باسم النشاط ورقمه وطرحنا الاسماء التي لم تقرن بشروح لهذا السبب أو ذاك ، تبين ايضا وجوب تعديل في العدد الذي تتضمنه قائمة « الصناعات » الشامية. فالرقم ، مثلا ، ٨٩ المخصص لنشاط الخشاب (ص ١٢٤) ، والرقم ٢٦٧ المخصص لنشاط الفواخيري (ص ٣٤٥) والرقم ٣٣٠ المخصص لنشاط «لفافة جيكارات التتن» (ص ٤٠٤) ، لم يكتب لها أي شرح ، مما يجعل الاستفادة منها غير واردة . فاذا أسقطنا هذه الارقام الثلاثة ، بقي عدد قائمة « الصناعات الشامية » المشروحة ٤٣٧ بدلا من ٤٤٠ .

---

(٨) راجع نهاية ص ٢٧ .

وهناك ما هو اهم من ذلك ايضا . فقد ذكر القاموس عددا من الحرف تتباين في اللفظ ولكن الجوهر واحد ، وغالبا ما يشير المؤلفون الى ذلك ، ويطلبون الرجوع الى الرقم السابق جملة ، أو يزيدون عليه بعض الاسطر الاستطرادية . وهو أمر يضخم عدد قائمة « الصناعات » دون أي اساس ، ويستدعي ، بالتالي، حذف هذه الارقام للوصول الى العدد الكلي الصحيح .

فالرقم ٢٩ الذي يتحدث عن التراس (ص ٦٩) والرقم ١٣١ الذي يتحدث عن السائق (ص ١٧٥) هما واحد كما يقول القاموس ذاته ، « والسائق والتراس الذي تقدم ذكره في حرف التاء بمعنى واحد »(٩) . رغم ظهور بعض الفوارق من خلال السطور ، الشارحة لعمل كل منهما . فعمل التراس نقل الحبوب من عند بائعيها ، وهم أصحاب الحوانيت والفلاحة ، الى البوايكي عند شراء هذا قمح اولئك ، ونقل الحبوب من البوايكي الى أصحاب الحوانيت والفلاحة ، عند القيام بعملية البذار . في حين يقوم السائق بنقل الحبوب من مكان بيعها الى الطاحون ومنها ، بعد الطحن ، الى الافران . ورغم هذا الاختلاف في الشكل فإن الجوهر يبقى واحدا هو وجود اناس ينقلون على حميرهم الحبوب ، من والى ، لقاء أجر معين . وليس هنالك أي مانع يمنع القيام بالعملين معا ، أو القيام بهذا العمل اليوم بعد أن قام بذلك العمل في الامس . وهكذا لاتوجد أية ضرورة لتضخيم عدد القائمة ، مع أن جوهر النشاط واحد .

وكذلك الرقم ٢٧٨ المتحدث عن القصاب (ص ٣٥٥) والرقم ٣٢٦ المتحدث عن اللحام (ص ٤٠٠) والرقم ٤٢ المتحدث عن الجزار (ص ٨٠) ، فهذه الارقام تتحدث عن عمل واحد كما يشير الى ذلك القاموس ذاته بقوله : « الجزار هو اللحام الآتي في حرف اللام(١٠) » ، و « القصاب » هو الجزار واللحام الآتي في حرف اللام(١١) ، و « اللحام هو الجزار والقصاب المتقدمان في بابيهما »(١٢) . لهذا لابد من اسقاط رقمين من هذه الارقام الثلاثة .

وما قيل هنا يقال ايضا في الرقمين : ٢٤٥ المتحدث عن الفالاتي (ص ٣٢٦) و ٢٨٦ المتحدث عن القفيلاتي (ص ٣٦١) . فالقفيلاتي ، حسب ما ذهب اليه القاموس « هو الفالاتي المتقدم في حرف الغين(١٣) » .

---

(٩) قاموس الصناعات الشامية ص ١٧٥ .

(١٠) قاموس الصناعات الشامية ص ٨٠ .

(١١) قاموس الصناعات الشامية ص ٣٥٥ .

(١٢) قاموس الصناعات الشامية ص ٤٠٠ .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٦١ .

وكذلك الرقم ٢٤٤ **المتحدث** عن « العواماتي » (ص ٣٢٣) **والرقم ٢٨٨ المتحدث** عن « قلا العوامة » (ص ٣٦٢) . **يقول القاموس في « قلا العوامة » :** « مر بيانه في حرف العواماتي بي حرف العين ، سوى أن القلا قد لايحترف دائما بتلك الحرفة ويكون له حرفة غيرها(١٤) » . **فهنا أوردنا رقمين لنشاط واحد .** فالعواماتي هو « بائع العوامة ويقال له قلا العوامة(١٥) » . **وكل عواماتي هو قلا** العوامة بالضرورة . لانه لا توجد عوامة ، عادة ، من غير قلي لها . **أما « قلا** العوامة » في الرقم ٢٨٨ فهو ، كما يقول القاموس « قد لايحترف دائما تلك الحرفة وتكون له حرفة غيرها » . ومن هنا نفهم أن قلا العوامة هو في الاساس بائع العوامة وان قلاها في مكان آخر ، حيث تجري التهليلة ، مثلا . واستعمال القاموس هنا كلمة « قد » يفيد القلة ، **أي يندر أن يكون قلا العوامة غير** العواماتي . ثم إن احتراف « قلا العوامة » حرفة **أخرى** ، **كما يذهب اليه** القاموس ، لا يعني أن هذا النشاط الاستثنائي بالنسبة الى الحرفة الاخرى يصبح حرفة مستقلة تستوجب ذكر رقم خاص بها . فقد يقوم انسان بعدد من الاعمال المتباينة ، فهل نطلق على شخص واحد اسماء هذه الاعمال التي يقوم بها ، ونقول انه يقوم بحرفة كذا وكذا وكذا ؟ أم أن الأمر المنطقي هو أن نطلق عليه اسم الحرفة الغالبة على نشاطه ، مسقطين بذلك العمل الاخر من حساب عدد الحرف المتوفرة في بلد معين وزمن معين ، علما بأن لكل حرفة ، في الغالب الأعم ، أدوات عملها ، وصناعها ، وحانوتها ... الخ .

كما أن الرقمين : ١٢٤ **المتحدث** عن الزّجاج الذي يعمل أواني الزجاج (ص ١٦٣) **والرقم ٣٠١ المتحدث** عن القزاز الذي هو « الزّجاج » كما يقول **القاموس ذاته :** « وقد مر ذكر هذه الحرفة في باب الزاي في حرفة الزجاج(١٦) » ، يتحدثان عن نشاط واحد مما يوجب اسقاط احدهما من قائمة « الصناعات الشامية » .

ثم إن الرقم ٢١٨ **المتحدث** عن الطيان (ص ٢١٨) ، **والرقم ٣٧٦ المتحدث** عن الكلاس (ص ٢٩٥) ، يتعلقان بنشاط واحد كما يقول القاموس ذاته عند الحديث عن الكلاس : « هذه الحرفة من متعلقات حرفة الطيان »(١٧) ، **أي انها** جزء من نشاطه الشامل لهذا النوع أو ذاك من العمل الذي تقضتيه حرفته . لهذا كان ايراد رقمين لنشاط واحد لامحل له .

---

(١٤) المرجع السابق ص ٣٦٢

(١٥) المرجع السابق ص ٣٢٣

(١٦) المرجع ذاته ص ٣٧٣

(١٧) **قاموس الصناعات الشامية ص ٣٩٢**

وما سبق قولـه يمكن ايراده في الرقمين : ٢٨٢ المتحدث عن القطيفاتي (ص ٣٥٧) والرقم ٣٢٠ المتحدث عن الكنيفاتي (ص ٣٩٤) باعتبار أن النشاط الواحد ، ينتج شكلين من السلع على تنور واحد ، وفي دكان واحدة ، وعند رب عمل واحد ، وقدتكون العجنة واحدة مع اختلاف أداة الصب فقط .

كما يمكن قولـه أيضا في الرقمين ٢٠٩ المتحدث عن الطباخ (ص ٢٨٦) و ٢٣١ المتحدث عن العشي (ص ٣١٠) ، وفي الرقمين ٢٩٣ المتحدث عن القنياطي (ص ٣٦٥) و ٣٧٨ المتحدث عن المعزّل ، (ص ٤٥٥) ، وفي الرقمين ٣٨١ المتحدث عن المعماري (ص ٤٥٨) و ١٩ المتحدث عن البناء (ص ٥١) ، وفي الرقمين ٤٠٧ المتحدث عن النائحة (ص ٤٧٨) و ٣٢٨ المتحدث عن اللطّامة (ص ٤٠٣) ، وفي الرقمين ٤٣٢ المتحدث عن وكيل الدعاوى (ص٤٩٨) ورقم ١ المتحدث عن الابوكات (ص ٣٣) ، وفي الرقمين ٣٩٤ المتحدث عن الملتزم (ص ٤٦٨) و ٢٣٠ المتحدث عن العشار (ص ٣١٠) ، وفي الارقام : ٩٩ المتحدث عن الداية (ص ١٣٤) و ٢٦٩ المتحدث عن القابلة (ص ٣٤٧) و ٣٣٣ المتحدث عن الماشطة (ص ٤٠٨). فالداية والقابلة هما انسان واحد ، والماشطة هي الداية ، القابلة ذاتها ، مع فارق ظرف واحد استثنائي هو قيامها بنشاط خاص ليلة زفاف المرأة التي أولدتها وهو ظرف لاينال من طبيعة العمل الاساسي الاصلي . وفي الرقمين ٢١ المتحدث عن البوابيجي (ص ٥٧) و ٣٦٥ المتحدث عن المسوتي (ص ٤٤٣) اذا كانا يعملان في مكان واحد وبنشاط رب عمل واحد وبأدوات واحدة تقريبا ، وفي الرقمين ٣٤٦ المتحدث عن المداح (ص ٤٢٥) و ٢٩٧ المتحدث عن القوّال (ص ٣٧٠) .

وحصيلة هذا كله هو وجوب اسقاط ١٧ رقما من الرقم الاخير الذي توصلنا اليه سابقا لقائمة « الصناعات الشامية » وهو ٤٣٧ ، مما يجعل الرقم المتبقى ٤٢٠ « صناعة » لا رقم ٤٣٥ الذي يحمله الكتاب ولا ٤٣٧ الذي اخذ به السيدان ماسينيون وظافر القاسمي .

بيد ان هذا ليس كل شيء في هذا الجانب من البحث . ففي القاموس ذكر أرقام « لصناعات » كانت في الماضي قائمة ثم تلاشت كليا قبل كتابة المؤلفين قاموسهم ، مما يجعل ذكر هذه « الصناعات » في قائمة « الصناعات الشامية » التي عاشها المؤلفون حين كتابة القاموس ، غير وارد ، وهو امر يوجب إسقاطها ايضا من القائمة ، والا اضطررنا لنبش وادراج أسماء جميع « الصناعات » التي عاشت في شامنا ردحا سابقا من الزمن واندثرت ، مع تطور المجتمع ، لهذا السبب أو ذاك . ويمكن أن يلحق بهذا ايضا تلك « الصناعات » التي انعدمت في حياة المؤلفين انفسهم .

فالصناعات التي انعدمت منذ زمن بعيد أو غير قليل « صناعة » الياسرجي ، دلال العبيد والاماء التي « بهذا الزمن نسخت بالمرة »(١٨) ، و « صناعة » النخاس ، تاجر الرقيق .. والتي قال عنها القاموس « وأما الآن فقد بطلت بحمده تعالى »(١٩) ، و « صناعة » المجركش ، الذي يزركش جهازات العرسان بعروق وقطع من خالص الفضة والتي « أصبحت في عصرنا هذا مفقودة بالمرة »(٢٠) ، و « صناعة » القاووقجي صانع « القواويق » « التي انقرضت من نحو نصف القرن الماضي وانقرض صناعها ، ولم يبق الا رسمها »(٢١) ، و « صناعة » الأبّار « التي أصبحت عديمة الوجود »(٢٢) بسبب مايرد من الابر والسنارات الجميلة الصنع ، والرخيصة الثمن من الخارج »(٢٣) .

أما « صناعة » السقاء فقد أصبحت ، في عام ١٣٢٧ ، بحكم الملغاة « وذلك بالنظر لجلب ماء عين الفيجة ، الشهير بطيبته وخفته ، الى دمشق »(٢٤) ، وبذلك نستطيع أيضا تخفيض عدد « الصناعات الشامية » بقدر ٦ صناعات ، ليصبح رقم القائمة ٤١٤ « صناعة » بدلا من ٤٣٥ كما هو مبين في القاموس .

هذا وينبغي الاشارة هنا أيضا الى أن رقم ٤١٤ الذي انتهينا اليه ليس رقما نهائيا ، بل ستطرأ عليه تعديلات كثيرة عندما نسلط الاضواء على مفهوم « الصناعة » الذي اعتمده المؤلفون . مما يوجب أيضا حذف الكثير من هذه القائمة ، وقد لايبقى الرقم الاخير المعتمد الا في حدود ٤٠٠ « صناعة » .

واذا تابعا البحث في الشكل نجد انفسنا أمام قضية شكلية اخرى لاندري كيف بت بها على الشكل الاخير . هذه القضية هي قضية عنوان الكتاب . فالمؤلف محمد سعيد القاسمي يشير في مقدمته للكتاب الى أنه سماه « بدائع الغرف في الصناعات والحرف »(٢٥) ، في حين ظهر الكتاب تحت عنوان « قاموس الصناعات الشامية » ، دون أن يذكر أحد ، سواء أكان السيد جمال الدين ، أو السيد خليل العظم ، أو المستشرق ماسينيون ، أو السيد ظافر القاسمي ،

---

(١٨) القاموس ص ٥٠١

(١٩) القاموس ص ٤٨٠

(٢٠) القاموس ص ٤١٩

(٢١) القاموس ص ٣٧٣

(٢٢) القاموس ص ٢١٥

(٢٣) راجع القاموس ص ٢١٥

(٢٤) راجع القاموس ص ١٨٥

(٢٥) القاموس ص ٤

كيف تم هذا التعديل وما هي مبررات حدوثه ، ومن اقترح الغاء العنوان الاول والاستعاضة عنه بالعنوان الثاني . وهي ثغرة كان لابد من سدها من قبل الذين شاركوا في وضع القاموس وفي اخراجه والتقديم له .

بقيت ثلاث ثغرات لابد من الاشارة اليها في معرض حديثنا هذا ، وسدها في طبعة قادمة للقاموس . أولاها التناقض الواقع في بعض التواريخ بين مقدمة السيد ماسينيون ومقدمة السيد ظافر القاسمي . فالسيد ماسينيون يشير في مقدمته(٢٦) الى أنه تفحص هذا المؤلف ، قبل احد عشر عاما من وجوده الحالي في دمشق ، في المكتبة البديعة التي يضمها بيت تلك الاسرة . في حين يقول السيد ظافر القاسمي في مقدمته(٢٧) أن هذا الكتاب بقي محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ حيث (حين) قدم دمشق الاستاذ لويس ماسينيون . وكان يعرف انه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم واطلع على مكتبتهم وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ومنها « قاموس الصناعات الشامية » فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب وكان له ما أراد » .

إن قول السيد ماسينيون يشير الى انه وجد في سورية قبل ١١ عاما من وجوده فيها عام ١٩٢٨ ، أي وجد فيها في عام ١٩١٧ . في حين يقول السيد القاسمي ان ماسينيون اطلع على القاموس خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ . والفرق الزمني بين القولين سنتان أو مايقرب من سنتين ، فأي القولين هو الصحيح ؟ وهل هنالك خطأ مطبعي أدى الى هذا التناقض ؟ وهو أمر يضعف اعتماده بسبب أن النص الفرنسي للمقدمتين المنشور في الجزء الاول يتضمن الارقام ذاتها .

اما الثغرة الثانية فتتبدى في اخراج الكتاب ذاته . فعندما تلافى السيدان جمال الدين وخليل في الجزء الثاني فوات بعض الحروف المتقدمة ، مضيفين الى حرف الالف ٣ « صناعات » ، والى حرف الباء ٥ « صناعات » والى حرف التاء « صناعتين » ، والى حرف الثاء « صناعة » واحدة ، والى حرف الجيم صنعتين ، والى حرف الحاء صنعة واحدة وكذلك الى حرف الخاء ، والى حرف الراء « صناعتين » ، والى حرف السين ١٢ « صناعة » ، لم يحاول الناشرون ارجاع هذه الزيادات الى حروفها الأصلية في الجزء الاول بل أبقوها على حالها ، مما جعل سير القاموس مضطربا في بعض صفحاته التي تحتوي هذه الاضافات . واذا كان

(٢٦) القاموس ص ٥ من المقدمة

(٢٧) القاموس ص ٢٩ من المقدمة

الناشرون قد رموا من ذلك الى اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فانه كان بالامكان التوفيق بين هذا ، من ناحية ، وبين التنسيق في الاخراج ، من جهة أخرى ، فتلحق الاضافات الى أحرفها السابقة ، ويشار في الوقت ذاته الى مؤلف هذه الزيادات في المقدمة أو في الهوامش .

وثالث الثغرات هي الغموض الذي يحيط بفكرة وضع القاموس . فالسيد ظافر القاسمي يشير في مقدمته (ص ٢٧) الى هدف الشيخ حامد التقي ، تلميذ جمال الدين الابن عن ظروف تأليف الكتاب . ويفهم من الحديث أن فكرة وضع القاموس صدرت عن الابن جمال الدين لا عن الاب ، وأن هذه الفكرة أطلقها الابن لحمل أبيه على التأليف والعمل فأوصى اليه بوضع القاموس . ويستطرد الحديث الى تبيان الارتباك الذي أصاب الوالد من غموض كيفية بدء العمل ، ... الخ . الا ان هذا الكلام يتعارض بعض الشيء مع ماورد في مقدمة المؤلف محمد سعيد القاسمي حول فكرة وضع القاموس . فقد ذكر أنه « كثيرا ما كان يجول بفكري جمع قاموس لموادها (الصناعات) يحشر في صعيده مقدارها لعادّها ، مما يحترف به الاقوام في بلدتنا الشام ... » ، وهذا الكلام ، مع عدم إشارته بأي شكل من الاشكال الى ماورواه الشيخ حامد من اقتراح ولده عليه فكرة القاموس ، يجعلنا لانعتمد كثيرا رواية الشيخ حامد التقي في نشوء فكرة جمع القاموس . ويؤيد ماذهبنا اليه أيضا أن الولد الشيخ جمال الدين لم ينوه في مقدمته للجزء الثاني ، بأية واقعة من الوقائع التي ذكرها الشيخ حامد التقي حول فكرة تأليف القاموس .

ب ـ في الموضوع

حول مفهوم الصناعة والحرفة في القاموس وكيف نفهمه

بين ضفتي كتاب « قاموس الصناعات الشامية » يعرض المؤلفون ٤٣٥ اسما لاصحاب « الصناعات » المتباينة في دمشق .. ونجد في هذه الصناعات : الأبار ، والأبوكات ، والاجير ، والمعلم ، والاكار ، والبستاني ، والبواب ، والتاجر ، والترجمان ،والثعباني ، والجعيدي ، والحرامي ، والحكواتي ، والراقي ، والشحاذ ، والطبال ، والعقاربي ، والقرّاد ، والقوّاد ، واللص ... الخ . وبالجملة كل نشاط يتيح لفاعله اجتذاب مال ما يسمى عند المؤلفين صناعة .. سواء اكان النشاط جاريا داخل اطار اقتصادي أو غير اقتصادي ، خلقيا أو غير خلقي ، مفيدا للمجتمع أو ضارا به ، يقوم به فرد واحد أو عائلة واحدة في المجتمع أو مجموعة واسعة من الافراد والعوائل ، يسد حاجة من حاجات المجتمع أو لا يسد .

هذا المفهوم المطاط جدا الذي أسبغه المؤلفون على كلمة الصناعة أضعف قيمة الكتاب العلمية ، وضيق دائرة الاستفادة منه ، ونال بعض الشيء من تَفَسِهِ الموضوعي ومنزلته الفكرية .

ترى ماهو المؤشر الاساسي الذي اعتمده المؤلفون لتوسيع مفهوم « الصناعة » الى هذا الحد الكبير ؟ ترى ماهو الجامع بين صناعة اللص وصناعة المهرج ، وصناعة التاجر ، وصناعة المغني ، وصناعة النويلاتي ، وصناعة الفلاح المستثمر لارضه ... الخ ؟ هل هو العمل ؟ فاذا كان الامر كذلك لزم أن يكون كل عامل صانعا ، وكل عمل صناعة ، وعلى هذا فانجاب الاطفال صناعة ، وتربيتهم صناعة ، وادارة البيت صناعة ، والتعليم صناعة ، والسباحة صناعة ، والوظيفة صناعة ، وخيانة الوطن صناعة ... الخ . وهو أمر كان يوجب على المؤلفين تدارك هذه « الصناعات » وذكرها في قاموسهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك مما يوحي بأن المؤشر الاساسي لم يكن لديهم العمل ذاته .

فهل هو الانتاج المادي او المعنوي ؟ فمن ينتج نشاطه شيئا اعتبر صانعا وكان نشاطه صناعة ؟ قد يستوي هذا في صناعة الآلاجا ، والبغجاتي ، ومؤدب الاطفال ... الخ ولكنه لا يستوي في نشاط اللص ، وفي نشاط المهرج ، وفي نشاط الجعيدي ، والثعباني ، والعقاربي ... الخ وهي نشاطات اعتبرها

المؤلفون « صناعات » يستوجب ذكرها في قاموسهم ، اذن فليس الانتاج أيضا هو المؤشر الاساسي الجامع بين « صناعات » المؤلفين .

ترى هل هو الرسمال ووجود العمال ، وقيام علاقات معينة بين العمال ورب عملهم ، وتوفر نظام معين للعمل ؟ قد يكون هذا صحيحا في صناعة الحداد ، والنجار ، والمعماري ... الخ ، ولكنه غير صحيح بالنسبة الى « صناعة » النائحة ، واللطامة ، و « صناعة » الحميماتي ، و « صناعة » التهليلجي و « صناعة » النصاب ، و « صناعة » اللالا ... الخ .

إن التساؤلات تطول ، والاجوبة المتعددة تبقى ناقصة ، والجواب الصحيح الوحيد في رأينا ، هو أن المؤلفين اعتمدوا مؤشرا أساسيا واحدا لاطلاق كلمة « الصناعة » على مختلف أوجه نشاط الناس ، التي ذكرت في القاموس ، هو مؤشر تأمين مورد مادي لقاء النشاط المذكور . هذا المؤشر يجمع بين مختلف أوجه نشاطات القاموس . فهو متوفر في « صناعة » اللبابيدي ، مثلا ، أو في « صناعة » اللص ، أو في « صناعة » النائحة ، أو في « صناعة » القوّاد ، أو في «صناعة» الطبال ، أو في «صناعة» عجائبك عجائب (صندوق الدنيا) ... الخ.

هذا المؤشر الاساسي الذي اعتمده المؤلفون يضع أمامنا قضيتين هامتين : أولاهما التعارض القائم بين هذا المؤشر وبين المبادىء التي اتخذها المؤلف محمد سعيد القاسمي ، في مقدمته ، لتكون أساس الكسب واقتنائه ، « فلا بد من سعي وعمل في ميادين متعددة من إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة » ، مبينا أن الامارة « ليست بمذهب طبيعي للمعاش »(٢٨) . وأورد الكثير من الآيات والاحاديث والآثار التي تناهض اعتماد السؤال والطلب في الكسب ، بله اخذ مال الغير بغير حق ، أو اخذه من غير جهد وسعي ، أو نواله من صبي أو مجنون أو عبد أو اعمى ، أو دون تحري التاجر جريان الايجاب والقبول عند عقد البيع ، أو اعتماد هذا فيه احتكارَ الاطعمة ، أو اذا لم ينصح التاجر في المعاملة ، أو اذا اعتمد الغبن الفاحش في المعاملة . واذا لم يحسن التاجر النية لم يكن ورعاً في دينه ومعاملته . وبكلمة ينبغي أن يكون الكسب حلالا ، نتيجة الجهد ، وعدم الخداع والغش ، وعدم استغلال النفوذ والسلطة ... الخ . فاذا كان الامر كذلك فكيف يعتبر القاموس عمل اللص « صناعة » ، وضارب الرمل « صناعة » ، واستجداء الناس « صناعة » ، والطفيلية « صناعة » ، ورعاية العقارب وملاعبتها استجداء لبعض البارات والقروش « صناعة » ؟ ... الخ .

---

(٢٨) راجع المقدمة ص ٩

وثانية القضيتين أن اعتماد المورد أساسا لاعتبار النشاط صناعة يستدعي بالضرورة أن نعتبر الاعمـال التي تؤدي الى توفير انفاق كان محتما لولاها أن نعتبرها بمثابة أعمال تعطي موردا ، وبالتالي صناعة . فربة البيت ، مثلا ، تقوم باعداد الطعام لأعضاء الاسرة ، ولولا عملها هذا لكـان من الواجب على رب البيت أن ينفق على اعضاء الاسرة مبلغا اضافيا لتناول الطعام في المطاعـم أو المقاهي . فهي بعملها البيتي وفرت هذا المبلغ الاضافي ، وأبقته في جيب رب البيت . وبالتالي ينبغي اعتبار عمـل ربة البيت هـذا « صناعـة » كبقيـة « الصناعات » التي تعطي موردا . وما قيل في هذا العمل يقال في عمل الخياطة البيتية وأعمال التطريز ، وتربية الاولاد ، كما يقال في ممارسة الرياضـة التي تقي الجسم كثيرا من الامراض المستدعية لانفاق مبالغ هامة ... الخ .

هكذا نتبيّن ان المؤشر الاساسي الذي اعتمده المؤلفون لمفهوم الصناعة لم يراع ، كل المراعاة ، من الوجهة العملية ، وان مراعاته تستدعي اسقاط عدد آخر من قائمة الصناعات التي احتواها القاموس .

وهناك شيء آخر لابد من ذكره في مجال اعتبار هذا النشاط أو ذاك صناعة. فقد وقع القاموس في ورطـة عندما اعتبر عمـل المعلم والاجير « صناعتين » متمايزتين وافرد لهما رقمين خاصين ٣٨٢ (ص٤٥٨) ، و ٣ (ص٣٥) . وفي رأينا أن المعلم والاجير لايمكن اعتبار عملهما « صناعة » ولو أدى العمـل الى جني مكسب . فالمعلم الذي عرفه القاموس هو معلم الآلاجه ، « وليس من حرفة بدمشق الا ولها معلم مخصوص يقوم بشؤنها واصلاح أرباب حرفته . وذلك المعلم هـو رئيس الصنعة أو الحرفة ومتقنها ، ويشتغل تحت يـده الصناع والاجراء » .. وعندما تحدث القاموس عن الاجير تحدث عن « الاجير المطلق الذي لم يتقيد بصنعة ، بل يؤجر نفسه لمن أراد ويدخل هنا الفاعل » ، كما تحدث عن الاجير المقيد « الذي قيد بصنعة من الصنائع » وهو الذي يشتغل عند معلم تحت يد صانع .

لقد ذهب القاموس الى اعتبار أمور تنظيمية خاصة بالحرفة ، مثلا ، بمثابة الصناعة التي ينبغي ادراجها بين الصناعات الاخرى . في حين انه ليس هنالك معلم مطلق ، أو اجير مطلق لاسيما في المعنى الذي قصده في الاجير المقيد . وكل معلم واجير يستمد ، ضمن هذا التنظيم ، صفة الصناعة من صناعته الخاصة . فهناك المعلم النجار ، والمعلم الحداد ، والمعلم المعماري ، كما أن هنـاك أجير النجار ، واجير الحداد ، واجير المعماري .. الخ . فالتنظيم المذكـور لايمكن لوحده ان يسبغ على المعلم أو الاجير صفة الصناعة ، بل لابد لهما من ممارسة

صناعة معينة تعتمد طبيعة العمل لا طبيعة التنظيم . ولهذا كان لجوء القاموس الى اعتبار عمل المعلم وعمل الاجير الناجمين عن ترتيب تنظيمي في الحرفة ، صناعة من صناعات دمشق ، غير وارد اطلاقا ، كما ينبغي ، بالتالي اسقاطهما من قائمة القاموس .

ثم أن هناك شيئا آخر يستدعي الانتباه في جمع القاموس لـ « صناعاته » على الشكل المعلوم . هذا الامر هو النظر الى ما تعطيه « الصناعة » لباذل الجهد فيها دون اي اعتبار لاهمية المال الذي تعطيه على الصعيد العام ، ولاهمية عدد الممارسيين للصناعة ، والرساميل الموظفة فيها ولارتباط هـذا المال بالدخل الوطني أو عدم ارتباطه . انه يساوي في الذكر ، بين مختلف « الصناعات » دون أن يعطينا المؤشرات الاساسية التي تبين أهمية الصناعة على النطـاق الوطني ، وعدد شغيلتها التقريبي ، ومبالغ الرساميل الموظفة فيها ، وما تقدمه من انتـاج بالنسبة الى الانتاج العام ، وما تساهم به في الدخل الوطني .. الخ . بل ولا يذكر شيئا مفصلا عن بعض الصناعات الشعبية الاساسية كصناعة النسيج مثلا ، في حين يذكر ما هب ودب من الصناعات التي لا اهمية لها تذكر على الصعيـد الاقتصـادي . وقـد يطنب في وصف التـافة منهـا ، حتى انـه ليذكر حتى « الصناعات » التي لايمارسها الا فرد أو عائلة او افراد قلائل جدا ، وفي الوقت الذي لا تعطي الا التافه من الموارد ، . ك « صناعات » الجعيدي ، والطبـال ، والضفادعي ، والثعباني ، والعقاربي ، والعلقي ، والتهليلجي ... الخ .

هكذا نتبين انه لا بد من اعتماد مؤشر أساسي لمفهوم الصناعة ، يتـلاءم والتطور الحادث في حياة المجتمعات ، وفي مجال الثورة الصناعية ، وتقدم العلم والتكنيك .

. . .

ان في لغتنـا الدارجـة كثيرا من التعـابير المستعملة دون تحديد دقيق للمفاهيم ، كالصناعة ، والمهنة ، والحرفة والصنعة . فما هو مفهوم الصنعة ؟ وبم يختلف عن مفهوم المهنة ، ان كان هنالك اختلاف ؟ واين تبدأ وتنتهي حدود الحرفة ؟ وما هو الفارق بين الحرفة والصنعة اذا وجد ؟ ان عدم الوضوح في مفهوم التعبير يدفعنا الى استعمال التعبير في مجالات متعددة قد لا يسمح الواقع العلمي باستعماله فيها ، مما يوقعنا في أخطاء كثيرة آنا ، وكبيرة أحيانا . إذن لا بد من ايجاد المؤشرات التي تحدد المفهوم ، وتمنع الغموض والضبابيات والتداخل في هذا المفهوم . وعدم الوضوح والتحديد هذا اوقع مؤلفي القاموس في متاهات فكرية ، وأبعدهم ، الى هذا الحد أو ذاك ، عن سلوك الطريق العلمي في تحديد المفاهيم والحدود ، رغم أن زمن التاليف الذي وقع في العشر الاخير من القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين ، هو زمن سبق أن توضحت فيه

في راينا ان الخطل انما نشأ عن عدم الاطلاع على الجديد في الشئون الاقتصادية ، وعن اعتماد مفاهيم قديمة عامة كانت بحاجة الى التفاعل مع الجديد ، والتلاؤم معه . ولكنها ابقيت على ما كانت عليه ، وفي الحدود التي عرفت بها منذ عشرات مئات السنين . كان أول ماخطه الشيخ محمد سعيد في التقديم لقاموسه هو حمد الله فاتح أبواب الرزق امام العباد ، ومانحهم أسبابه ، وملهمهم التدبر للمعاش بلا توان ولا فتور ، وآمرهم بالكسب من الحلال ، والسعي للعيال(٢٩) . فالانسان كائن حي بحاجة الى السعي ، كي يتدبر أمر معاشه ، ومعاش عياله . وهو سعي ينبغي ان يكون في اطار من الاخلاقية المتعارف عليها ، اي هو السعي الحلال البعيد عن أخذ مال الناس بغير حق ، وعن اتباع الاساليب الملتوية في سبيل تحصيل المعاش ، من سرقة ، وفسق وفحش ، وكذب ، وغش ، وحلف ، وغرور ... فالكسب الذي يحصل من هذا السعي هو كسب غير حلال ، وهو ، بالتالي ، غير مؤيد ، وغير مباح ، ويكافح من قبل المجتمع والقائمين عليه . إذن فاستمرارية حياة الانسان وعياله توجب عليه السعي الحلال ، اي توجب عليه القيام بالعمل الشريف في حدود المفاهيم الاجتماعية الاسلامية ، كما توجب عليه بالتالي ، الابتعاد عن الكسل والنهي عن البطالة في العمل . وقد رسم المؤلف مجالات السعي هذا : من عمل في النخيل ، والزرع ، وجني ثمرات التجارة ، وبركات الضرع(٣٠) ، اي مجالات الزراعة ، وتربية الماشية ، والتجارة .

وحين تابع المؤلف تسطير مقدمته اطلق كلمة الحرف على مختلف الوان نشاط الناس في سعيهم الى الرزق ، « وقد قام بالحرف جل الناس وجَلا من الفاقة والافلاس ، وذلك لتوقف نظام العالم عليها ، والتفات الناس لأجل معاشهم عليها » . ولم يلبث ان اطلق حكمي الحرفة والصناعة على طلب العلم وممارسة الأدب، مبيناً إعراض الناس عنهما لينكبوا على الدنيا لينالوا من زخرفها الأرب(٣١) . ثم يلجأ المؤلف الى ادراج تعبير « الصناعات » للدلالة على ماسبق قوله كله ، مبيناً ان « الصناعات ركن ركين ، وعماد للعمران متين ، لايخلو احد عن الجولات في حلبتها ، والانتفاع بعبير روضتها »(٣٢) ... » ومن هنا ننتهي الى أن

---

(٢٩) راجع مقدمة المؤلف ص٣
(٣٠) المرجع ذاته ص ٤
(٣١) المرجع ذاته ص ٥
(٣٢) المرجع ذاته ص ٦

كلمة الصناعة والحرفة والسعي انما هي واردة في معنى واحد ، هو النشاط للكسب الحلال ، لإعالة النفس والعيال .

وبعد هذه الخطوط العامة في معاني تعابير الرزق والمعاش والكسب والحرفة والصناعة ، يحاول الشيخ سعيد ، في مقدمته الثانية ، توضيح بعض الفوارق في التعاريف . فالانسان ، في سبيل تأمين مايقوته ، يسعى الى اقتناء المكاسب ، وهذا المقتنى النافع للعبد ، والمؤمن لحاجاته ومصادره هو الرزق الذي لابد لتحصيله من سعي وعمل ، فهو يبقى قيمة الأعمال الانسانية . اما طرق تحصيل الرزق وكسبه فقد حصرها المؤلف في :

١ ـ أخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه ، على قانون متعارف ، ويسمى مفرماً وجباية ، ليخرج النهب والاغتصاب والسرقة ومختلف مظاهر العدوان الذي لايقره القانون .

٢ ـ أخذه من الحيوان الوحشي باقتناصه واخذه ، برميه من البر او البحر ويسمى اصطياداً .

٣ ـ أخذه من الحيوان الداجن ، باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الانعام ، والحرير من دوده ، والعسل من نحله .

٤ ـ أخذه من النباتات ، في الزرع والشجر ، بالقيام عليه لاستخراج ثمرته ، ويسمى هذا فلحاً .

٥ ـ أخذه من الاعمال الانسانية اما في مواد معينة وتسمى « الصنائع » من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وامثال ذلك ، واما في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات .

٦ ـ أخذه من الصنائع وأصنافها للأعواض بالتقلب بها في البلاد ، ويسمى هذا تجارة .

في هذه المقدمة نلاحظ :

١ ـ توسيع مجالات السعي السابقة لتشمل ، بالاضافة الى الزراعة ، وتربية الماشية والتجارة ، الجباية والفرامات ، وصيد البر والبحر ، والصنائع في المواد المعينة ، وغير المعينة .

٢ ـ حصر كلمة الصنائع في أعمال انسانية معينة من كتابة ، وتجارة وخياطة وحياكة وما شابه ذلك .

٣ ـ عدم تطرق المؤلف الى التفريق بين الحرفة والصناعة بشكل واضح مما يوحي باستمرار المفهوم السابق الذي يجعلهما مترادفين لمعنى واحد ، لولا

ان المؤلف حصر معنى الصناعة في مجالات معينـــة ، وهو أمر يوحي بأن مفهوم الحرفة يبقى الأعم الاشمل ، وان مفهوم الصنائع يبقى جزءاً من كل .

ثم إن المؤلف ، حين عقد فصلاً « في الاشارة الى امهات الصناعات » ، جعل الصناعات كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في الأمصار . وحين قسمها الى ضرورية في العمران ، كالفلاحة والبناء والخياطة والحياكة ، والى شريفة بالموضوع ، كالتوليد ، والكتابة والوراقة والغناء والطب ، جعل الفلاحة ، اي الزراعة داخلة في نطاق الصناعات ، شأنها شأن الغناء ، والطب ، والتوليد ، وجعل « ما سوى ذلك من الصنائع والحرف » تابعة وممتهنة في الغالب ، أي جعل الصنائع والحرف قسماً آخر من الصناعات ، تابعاً وممتهناً في الغالب(٣٣) .

ويبقى المؤلف في هذا الغموض في التحديد بين الصناعة والحرفة حتى في فصل « فائدة » الذي عقده للتفريق بين الصناعة والحرفة . فهو اعتبر كل ما اشتغل به الانسان صنعة وحرفة دون اعطاء أي تميز بينهما . وحين عجز هو عن وضع الحدود بينهما لجأ الى قول بعضهم في التفريق ، متبنّياً إياه . فاذا كان تحصيل الانسان مايعيش به ، عن طريق يده ، اي عمله اليدوي ، اعتبر هـذا العمل « صناعة » وإلا ، اي اذا كان العمل يعتمد العمل الفكري ، كان حرفة(٣٤) . هكذا تبنى المؤلف اخيراً الرأي القائل بالتفريق بين الصناعة والحرفـة على اساس التفريق بين العمل الجسماني والعمل الفكري ، وهو رأي ، في اعتقادنا ، غـير صحيـح .

هذا ما ذهب اليه المؤلفون . اما نحن فلنا رأي آخر نحاول بسطه فيما يلي؛ مع شيء من التوسع

◆

◆ ◆

نحن نعلم ان الانسان ، في سبيل استمرار حياته ، مضطر الى تبادل الاشياء بينه وبين الطبيعة . والطبيعة لاتقدم أشياءها ، في الغالب الأعم ، بشكل جاهز للاستعمال ، بل لابد من اجراء تحويل وتبديل في الشكل ، وحتى في الخصائص ، ليتلاءم المنتوج مع حاجات الانسان المتباينة . وهذا التحويل يعني القيام بعمل ، واستخدام أدوات عمل ، ومادة عمل ، استخداماً واعياً هادفاً ، واعياً بمعنى يبعد العمل الذي يقوم به الحيوان بشكل غريزي في سبيل البقاء ، ويوجب ربطه بأعمال الفكر ليكون الجهد منتجاً بشكل اقتصادي يتجنب التبذير في الجهد ، والمال ، والمادة . وهو استخدام هادف بمعنى انه يتطلب اتباع طرق تمكن من صنع المنتوج ، وتكييفه ، حسب ماتتطلبه الحاجة البشرية . اي لابد ، في عملية

(٣٣) انظر القاموس ص ٢٨

(٣٤) انظر القاموس ص ٣٠

العمل ، من اتباع نظام واضح ، مبني على ضرورة الحساب الاقتصادي ، تحت هذا الشكل او ذاك ، وعلى ضرورة التلاؤم مع الحاجة .

واذا كان اطار العمل في المجتمعات البدائية ضيقاً نتيجة بساطة ادوات العمل ، وقلة المعرفة الانسانية ، وجهل الانسان لقوانين الطبيعة ، وضعف سيطرته على هذه الطبيعة ، فان هذا الاطار ، غدا ، في المجتمعات الحديثة مثلاً ، واسعاً جداً ، ومتشعباً جداً ، وقائماً على اساس تقسيم واسع للعمل داخل مؤسسات العمل وخارجها ، وعلى اساس تخصص كبير في العمل. وغدا الانسان العامل يعتمد وسائل انتاج رفيعة جداً ، ومتخصصة جداً ، ووافرة الانتاجية جداً ؛ ويملك معارف واسعة متخصصة ، متنوعة ، معمقة . مما جعل الانسان يسيطر ، الى حد كبير ، على الطبيعة ، ويستخدم قوانينها وخيراتها في سبيل مصالحه وحاجاته .

واذا كانت القطاعات الاقتصادية الاساسية قد تنوعت حديثاً وتعددت وسمي منها القطاع الزراعي والقطاع الصناعي ، وقطاع البناء والتشييد، وقطاع التجارة ، وقطاع المالية ، واذا كان القطاع الاساسي الواحد قد تضمن ، في ذاته ، عدداً من الفروع والاقسام ، فان هذا التنوع والتعدد لم ينشأ دفعة واحدة ، بل خضع نشوؤهما وتطورهما ، في كل مكان الى مراحل تاريخية ، طويلة المدى ، متباينة الأعمار ، مختلفة السمات والخصائص ، رغم مابينها من خطوط عريضة عامة جامعة الى هذا الحد أو ذاك .

كان النشاط الانساني الواعي الهادف ، في المراحل الأولى من نشوء الانسان وبدء تطوره ، منحصراً في جمع الثمار ، والصيد ، وصنع أدوات العمل البسيطة الفجة . ثم بدأ تدجين الحيوانات فتربيتها ورعايتها للاستفادة من مختلف منتجاتها . ولم تلبث الزراعة أن تعرف اليها الانسان ، واصبحت ذات اهمية كبرى في تطوير قوى المجتمع الانتاجية ، وغدت الزراعة وتربية الماشية عبارة عن خطوتين عظيمتين الى الامام في حياة المجتمع .

ومع اكتشاف النار ، ثم المعادن ، اخذ العصر الحجري يتراجع امام العصر البرونزي والحديدي . واصبح الانتقال الى صنع أدوات العمل الحديدية يشكل بدء مرحلة جديدة هي مرحلة تفسخ المجتمع البدائي، ونشوء اسلوبانتاج الرق.

اما تقسيم العمل فلم تعرفه العهود الأولى من مجتمع المشاعة البدائية ، عهود جمع الثمار وما يحتاجه الانسان من اشياء الطبيعة التي يأخذها كما هي تقريبا ، وكان العمل الجماعي يقوم على التعاون البسيط . فالجماعة تتعاون فيما بينها للقيام بعمل واحد . ومع تطور ادوات العمل وظهور ادواتذاتاهداف

معينة ، وجدت الظروف لنشوء الاشكال الاولى من تقسيم العمل داخل الجماعة، لتقسيم العمل حسب العمر ، وحسب الجنس ، مما اتاح ايضاً تطوير القوى المنتجة . وأدى تطور تقسيم العمل في المجتمع الى حدوث اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل تبدى في انفصال قبائل الرعاة وعشائرها عن الكتلة العامة لمشاعات المجتمع البدائي التي تبذل جل نشاطها في العمل الزراعي .

إن تقسيم العمل هذا قام على التخصص الذي أدى ، بدوره ، الى زيادة الانتاجية ، والى تطوير الانتاج ، وتحسين وتوسيع أدوات العمل في الفرعين القائمين في اقتصاد الجماعة ، والى نشوء التبادل ، وتطوره واتساعه .

ومع تطور الزراعة وتربية الماشية ، وتحسن وتوسيع أدوات العمل ، نشأ الانتاج الحرفي كنشاط فرعي في خدمة الزراعة وتربية الماشية كصنع الفخار ، والنسيج ، وصناعة ادوات العمل ومصنوعات برونزية ، ومنتجات حديدية ونحاسية ... ومع تطور هذا الانتاج ، وتعمق التبادل حدث ثاني تقسيم اجتماعي كبير للعمل ، حين انفصلت الحرفة عن النشاط الزراعي ونشاط تربية الماشية . فاتسع عدد اولئك الذين يحصرون نشاطهم كله تقريباً في الانتاج الحرفي دون ممارسة أساسية ، او كلية للاعمال الزراعية أو تربية الماشية .

هكذا نتبين ان الحرفة ، باعتبارها نشاطاً مستقلاً عن النشاط الزراعي والنشاط المبذول في تربية الماشية ، انما نشأت متأخرة عن استقلال تربية الماشية، وتعمق كيان النشاط الزراعي الآخذ بتوطيد استقلاله عن النشاطات الاخرى ، وبتوسيع مجالات التخصص فيه ، كفرع زراعة الحبوب ، وفرع الخضراوات ، وفرع الكرمة ، وفرع الصيد وفروع الاشجار المثمرة ... الخ .

ومع تطور ادوات الانتاج والانتاجية ، وتطور التبادل ، وظهور النقد المعدني وتطوره ، بدات تتشكل فئة واسعة في المجتمع ، واخذت تستقل ، شيئاً فشيئاً ، عن الفروع الاخرى ، مكونة فئة جديدة في المجتمع ، لها خصائصها ومميزاتها ، وهو امر ادى الى تقسيم العمل الاجتماعي الكبير الثالث ، وظهور فرع التجارة كفرع مستقل من فروع الاقتصاد الوطني .

. . .

وإذا اردنا بحث الحرفة كنشاط مستقل عن الزراعة وتربية الماشية ، والتجارة ، وتطرقنا الى التعريف المحدد لها ، نجد ان الحرفة ، كما ذهبت اليه الموسوعة السوفييتية(٣٥) ، هي انتاج المنتجات من المواد الأولية ، انتاجاً يدوياً

(٣٥) راجع عنوان الحرفة ص ٣٥٣ من الجزء ٣٦

صغيراً ، بمساعدة أدوات عمل بسيطة . فهو إذن انتاج تحويلي للمواد الأولية ، يجري بكميات صغيرة ، وبطريقة يدوية ، وباستخدام أدوات عمل بسيطة . كان هذا النشاط ، قبل ظهور الانتاج الراسمالي الضخم ، هو النشاط الانتاجي المسيطر في الصناعة التحويلية . ولذلك فهو يعتبر أساس الصناعة الراسمالية التالية ، وإن بقي هذا الانتاج قائماً الى جانبها حتى في البلاد الصناعية المتطورة.

واذا كانت الحرفة المستقلة قد نشأت تاريخياً في احضان الفروع الانتاجية الاخرى من زراعة ، وتربية ماشية ، فان هذا النشاط الحرفي قد تطور في نطاق التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المختلفة ، واخذ اشكالاً متنوعة ، حسب مختلف مراحل تقسيم العمل الاجتماعي . فهناك الحرفة المنزلية ، وهناك الحرفة المنتجة حسب الطلب ، وهناك الحرفة المنتجة للسوق .

واذا كانت الحرفة المنزلية قد سيطرت في عهد المشاعة الابتدائية ، فان تطور الفروع الانتاجية ، لاسيما عند نشوء صناعة المعادن وتطورها ، جعل الحرفة ، في مرحلة تفسّخ نظام المشاعة الابتدائية ، تتحول الى نوع خاص من النشاط الانتاجي ، برز اكثر من اي وقت مضى ، في اسلوب انتاج عهد الرق ، حين كانت اعداد كبيرة من الحرفيين تعمل في هذا النشاط لسد حاجة اسيادهم ، سواء في بيوتهم أو في ورشات الأسياد . كما ظهر الى جانب الارقاء الحرفيين ، حرفيون أحرار يسكنون التجمعات السكانية الكبيرة نسبياً ويعملون بناء على الطلب في استثماراتهم الخاصة ، وقد ذكرت قوانين حمورابي الحدادين ، والبنائين ، والحجارين ، وبناة السدود ، وصناع الجلد ، وبناة المراكب ... الخ . كما عرفت اليونان القديمة، والبلدان الهيلينية والامبراطورية الرومانية اوضاعا مماثلة.

واذا كان نظام الرقيق قد ساعد ، في البداءة ، على تطور الانتاج الحرفي ، فانه لم يلبث أن اصبح عائقاً كبيراً أمام هذا التطور . فالرقيق الحرفي لايملك شيئاً من أدوات عمله ومكان عمله ونتاج عمله وهو ، فوق هذا ، ملك سيده ، وحياته ونشاطه مرتبطان بمصالح سيده وارادته . لذلك لم يكن ذا مصلحة في تطوير عمله . وحتى الحرفيون الاحرار كانوا يتحملون وطأة هذا النظام القاسية عن طريق منافسة الانتاج الرقي لانتاجهم ، باعتبار عمل الرقيق مجانيا يتمتع به السيد ، ولا يكلفه غير لقيمات يقدمها للرقيق حتى لايموت جوعاً ، بالاضافة الى احتقار طبقة الاسياد للعمل الجسماني ذاته .

أما في عهد الاقطاع فقد حظيت الحرفة بامكانيات واسعة للتطوير . فالقوى المنتجة تمتعت بمستوى اعلى من قبل ، والقن المنتج كان غير الرقيق المنتج من حيث الحقوق والواجبات ؛ والتبادل اصبح اكثر شمولاً وتعمقاً ، والمدن تتسع

وتتعدد والحرفيون الاخرار كانوا أكثر استقراراً ، وأكثر تمرساً بعملهم الذي يتزايد ارتباطاً بالسوق . وقد وجدت امكانيات التطور تعبيرها في تخصص الحرفيين المتزايد عمقاً باستمرار ، وبظهور فروع جديدة للحرفة ، وتعدد انواع الاكتشافات والاختراعات .

ونظراً لطابع الاقتصاد الطبيعي الذي مازال قوياً ، فان الحرفة المنزلية ظلت متفوقة من حيث العدد ، ومرتبطةبالاقتصاد الزراعي ، وتلعبدور عملمساعد . فكان الفلاح الحرفي ينتج المنتجات الصناعية المختلفة عاملاً على سد حاجات الاقتصاد الزراعي الاساسية . كما كان للاقطاعيين استثماراتهم الحرفيةالخاصة التي يعمل فيها حرفيون اقنان واحرار .

ومع تطور تقسيم العمل واتساع دائرته اخذت الحرفة القائمة على الطلب والحرفة العاملة للسوق ، وهما الشكلان المتمركزان في المدن بشكل خاص ، تلعبان الدور الاول بالنسبة الى الانتاج الحرفي بمجمله .

ان تملك الحرفي الحر لوسائل انتاجه ولاستثمارته ، ولمنتجاته ، وارتباطه بالسوق ارتباطا اقتصاديا ، جعل منه عاملا هاما في تطوير أدوات عمله، وطرقه ، وتنويعها ، وزيادة التخصيص فيها . وهو أمر لم يحظ به القن الحرفي ، والقن الزراعي ، المرتبطان بالارض التي يملكها الاقطاعي ، والخاضعان لاستثمار الاقطاعي استثمارا اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا . ولهذا كان الحرفي الحر، ولاسيما حرفيو المدن ، يتمتعون بظروف مواتية كثيراً لتحررهم من كل تبعية يريد أسياد الارض الاقطاعيون ربطهم بها . وكثيرا ما كانوا يخوضون النضال الطبقي الجبار ، بمختلف أشكاله ، لنيل استقلالهم ولتحررهم من أشكال التبعية الاقطاعية ، وللمحافظة على هذا الاستقلال . كان الحرفيون يرون في استثماراتهم وانتاجهم وتبادلهم ، أي في استقلالهم الاقتصادي ، القوة الرئيسية التي تمكنهم من نيل استقلالهم السياسي وتوطيده . ولهذا كان كل تطوير وتنويع لوسائل انتاجهم ، وكل تعميق لتقسيم العمل ، وكل تجميع للخبرة والمهارة ، وكل نجاح في زيادة الانتاجية ، وفي تعميق التبادل وتوسيعه ، بمثابة دعم لقوتهم الاقتصادية ، وبالتالي لتحررهم السياسي . هكذا ازدهرت حرفة القرون الوسطى ، الاوروبية خاصة، وكثرت جمعيات الحرفيين الدفاعية، وتوطدت تنظيماتهم ، وكثرت حركاتهم النضالية التقدمية آنذاك .

كان عمل الحرفيين في تطوير القوى المنتجة هاما الى حد هيأ وضع اساس الراسمالية التكنيكي . فاستعيض ، بين القرنين ١٢ ،

والرابع عشر عن المغزل اليدوي بدولاب الغزل ، واخترع ، في القرن الخامس عشر ، المغزل الآلي ، واستخدام الدولاب المائي استخداماً واسعاً في التعدين ، ومعالجة المعادن ، وفي انتاج الورق. كما احدثت تغيرات جذرية في صناعةالتعدين باختراع واستخدام الافران العالية ... الخ . ونتيجة لهذا التطور الجدي في القوى المنتجة ، اتسع تقسيم العمل ، وانتشر التخصص ، وزادت الانتاجية . وقد عرفت مدن القرون الوسطى ، الاوروبية ، مئات الاختصاصات الحرفية ، وادى اتساع التخصص الى انتشار تقسيم العمل داخل الورشة الحرفية ذاتها ، ومن ثم في المانيفاكتورة التيتعتبر الشكل الاولللانتاج الراسماليالصناعيالكبير.

ومع تطور الانتاج الراسمالي واتساعه ، اخذ الانتاج الحرفي يفقد مركز الصدارة في الانتاج ، واخذت الحرفة المنزلية بالتقلص الواسع بالنسبة الى الحرفة العاملة للسوق . ولم يلبث الانتاج الراسمالي الضخم ، المتمثل بانتاج المانيفاكتورات ، أن فرض التمايز على الحرفيين فلم يعودوا قادرين على منافسة هذا الانتاج الجديد . وكان من نتيجة ذلك أن انحدرت جماهير الحرفيين الى مستوى البروليتاريين ، في الوقت الذي صعد بعضهمالذي تلاءم معروح العصر، الى صفوف الطبقة الاجتماعية الجديدة ، طبقة الراسماليين . وهكذا نشأت الصناعة الراسمالية المنزلية في أعقاب تهدم الحرفيين ، وسيطرة الراسمالية على موادهم الاولية وادوات عملهم ، وحيازة عملهم الفائض .

لقد خسرت الحرفة معركة الانتاج الصناعي لصالح المانيفاكتورة الراسمالية، في أوروبا ، منذ القرن السادس عشر . ولم يلبث تراجعها ان أصبح انهياراً في أعقاب الثورة الصناعية ، ونشوء الانتاج الراسمالي الآليالضخم . ومع هذا فقد حافظت الحرفة على وجودها في الريف وفي مناطق أخرى كمنتج ثانويلسد بعض حاجات السوق ، وكمنتج لبعض السلع التي لاتدخل في نطاق ذلك الانتاج الراسمالي . وتحولت الى شكل متخلف من أشكال الاقتصاد ، سمته الجمود ، والمحافظة على التقاليد ، وضيق الافق . كما بقيت الحرفة قويةفي البلدانالمتخلفة والمستعمرات والبلدان التابعة ، رغم وطأة المنافسةالقاتلة التي اخذتتستشعرها نتيجة ربط اقتصاد البلدان المتخلفة باقتصاد الاوطان المتطورة ، وتحويل الثانية للاولى الى اسواق لتصريف سلعها ، ونهبخيراتها ، والسيطرة على عملعمالها ، الفائض . وهكذا اتسعت دورة الرسمال في الوطن الام لتخرج خارج حدوده ،

ولتشمل المستعمرات والبلدان التابعة والمتخلفة ، عاملة على اجتذاب قسم كبير جداً من العمل الفائض فيها ، وفضل القيمة المعتصر من عمالها. وهو أمر لمس أصحاب القاموس آثاره في كساد كثير من الحرف ، وفي اندثار بعضها وتلاشيه بفعل المزاحمة القاتلة .

هكذا كان شأن نشوء الحرفة تاريخياً ، وتطورها عبر الازمان ، وازدهارها قبل سيطرة الانتاج الراسمالي الضخم ، وتراجعها عن مركزها القيادي الى درجات ثانوية عند سيطرته .

◆
◆ ◆

بقي أن نبحث مفهوم الصناعة الحديث الذي ليس هو مفهوم الحرفة ، ولا مفهوم الزراعة ولا مفهوم التجارة ، ولا مفهوم الخدمات والبناء والتشييد . وانما هو مفهوم مستقل ، له معانيه المحددة ، وله نشوؤه وتطوره التاريخيان ، وهو مفهوم يختلف كل الاختلاف عن المفهوم الذي ذهب اليه واضعو قاموس الصناعات الشامية .

الصناعة هي هذا القطاع الاقتصادي القيادي للانتاج المادي الاجتماعي . انها تتناول ، بفعاليتها ، استخراج مواد الطبيعة وتعدنها وتعالجها لتنتج الخيرات المادية من المواد التي تحولها في قطاعها مباشرة ، أو المواد التي ينتجها القطاع الزراعي . وهي التي توجد لجميع فروع الاقتصاد الوطني أدوات الانتاج . وهي كثيراً ماتزيد في سلطان المجتمع على الطبيعة ، محددة تقدمه التكنيكي ، ومؤمنة نموّ انتاجية العمل والانتاج . وهذا القطاع يلعب الدور القيادي في الاقتصاد المتطور ، سواء أكان الاقتصاد راسمالياً ، أم اشتراكياً . والصناعة الاشتراكية، هي ، في الاساس ، وليدة الصناعة الراسمالية ، وهذه ، وليدة الصناعة الحرفية تاريخياً . وقد مر هذا التحول بمراحل متعددة بدات بالتعاونية الراسمالية البسيطة وانتهت بالانتاج الآلي الضخم .

لقد قام الانتاج الراسمالي على أساس العمل المأجور وعلى أساس استثمار الراسمال الكبير ، وتشغيل العدد الواسع من العمال . واذا كانت التعاونية الراسمالية أساس نشوء وتطور الراسمالية ، فانها ، مع هذا ، بقيت مقتصرة على الاعمال التي يقوم بها عدد كبير ، نسبياً ، من العمال لسياق عمل واحد ، دون أن تعرف ، في البداءة ، تقسيم العمل في الداخل ، ومقتصرة على استخدام ادوات العمل البسيطة ، وقوة العمل الجسمانية ، ويصبح فيها نتاج العمل ملكاً للراسمالي . وقد دفع التطور هذا الشكل من الانتاج الى شكل أرقى هو شكل المانيفاكتورة .

إن المانيفاكتورة هي تعاونية العمل القائمة على تقسيم العمل في سياق العمل. وهي حلقة وسيطة بين الانتاج الحرفي الصغير وبين الانتاج الآلي الضخم. فيها يبقى التكنيك حرفياً، وتبقى أدوات العمل يدوية بسيطة. ولكنها مؤسسة واسعة الأبعاد، عظيمة رأس المال، وفيرة عدد العمال المأجورين، ويتبع فيها تقسيم عمل متطور نسبياً، وينشأ التخصص العمالي في العمل، حيث تقسم عملية الانتاج الى أجزاء تفصيلية، يقوم كل عامل، دائماً، بجزء منها، أو يقوم بعملية جزئية خاصة من تحضير المنتوج.

وإذا كان الحرفي كثيراً مايستخدم ادوات عمل قليلة، ويستخدم الاداة لاكثر من عملية، فان الراسمالي، في المانيفاكتورة، يستخدم أدوات عمل أوسع تنوعاً، وتميل العملية الانتاجية الجزئية الى التخصص في اداة العمل او في عدد قليل منها. واذا كان الحرفي يقوم بعمليات العمل التي يتطلبها منتوجه، بنفسه، أو بمساعدة صانعه وأجيره، فان العامل المأجور في المانيفاكتورة يقوم، باستمرار، بجزء من العملية الانتاجية العامة، مما يخلق عنده مهارة في الانتاج، وزيادة في الانتاجية، من ناحية، ولكنه، في الوقت ذاته، يشوه العامل جسمانياً، ويفقره نفسانياً، ويجعله يتطور من ناحية واحدة.

أما المرحلة الثالثة في تطور الصناعة الراسمالية فهي مرحلة الانتاج الآلي الضخم، أي الانتاج القائم على استخدام الآلات بدلاً من أدوات العمل البسيطة، وعلى تقسيم العمل المتطور في المنشأة وعلى نطاق المجتمع، وعلى التخصص الافقي أو العمودي، وعلى استخدام القوة المحركة الهوائية أو المائية أو البخارية أو الانفجارية أو الكهربائية فيما بعد.

لقد اصبحت الآلة العنصر الاساسي في الانتاج. وهي ليست اكثر من تجميع لعدد وافر من ادوات العمل الواحدة، أو ادوات العمل المتباينة، مع مايلزم لتحريك هذه الآلة من دواليب ومسننات وحدبات ومحاور وقشط... لنقل القوة المحركة الرئيسية لهنا.

واذا كانت الآلة قد ولدت قبل القوة المحركة الحديثة، وكانت تستخدم قوة الانسان أو الحيوان أو الريح او الماء لتحريكها، فان تطور ابعاد هذه الآلة وتعقد حركاتها، قد أوجد الضرورة للبحث عن قوة محركة جبارة جديدة، فكان البخار الذي أحدث ثورة في ميكانيكية الحركة، وسرعان ماغدا استعماله شائعاً في الصناعة الضخمة لقوته الكبيرة، وسهولة احداثه في كل مكان دون التقيد بحركات الريح، أو مساقط المياه، كما كان الامر من قبل. وهو قادر، في

الوقت ذاته ، على تحريك عدد وافر من الآلات العاملة المتجمعة في مكان واحد ، والتي تقوم بجميع الحركات الضرورية لمعالجة المادة الاولية دون تدخل الانسان.

ومع اكتشاف الطاقة البخارية ، واكتشاف الكهرباء، واختراع المولد والمحرك الكهربائيين ، واختراع الطاقة الانفجارية ، ثم اكتشاف الطاقة الذرية واستخدامها في الانتاج ، ولو في حدود ماتزال ضيقة ، حُلّ التناقض القائم بين الصناعة الضخمة والتكنيك الحرفي والمانيفاكتوري، واصبحت الآلة تنتج للآلة، واستعيض عن انتاج الآلات المانيفاكتوري ، بانتاج الآلات المصنعي والمعملي .

هذا وتقسم الصناعة ، حسب طبيعة المنتجات ، وحسب دورها في عملية تجديد الانتاج ، إلى قطاع (A) المنتج لوسائل الانتاج ، والى قطاع (B) المنتج لسلع الاستهلاك . ولكي يتطور المجتمع ويتقدم ، لابد من اتباع تجديد الانتاج الموسع الذي يتطلب افضلية وسبق انتاج وسائل الانتاج لانتاج السلع الاستهلاكية.
أما اذا نظرنا الى المراحل الاساسية في الحصول على السلع الانتاجية ، نستطيع تصنيف الصناعة الى :

صناعة استخراجية تستخرج مافي باطن الارض والمياه والمواد الاولية الحرجية : كصناعة الفحم ، والنفط ، والغازات ، والاحراج ، والاسماك ...الخ
والى صناعة تحويلية تحول المواد الاولية الصناعية والمحروقات ، والمواد الاولية ، الزراعية ، كفروع التعدين ، وصنع الآلات ، والكيمياء ، ومواد البناء ، وتحويل الأخشاب ، وفروع الصناعة الخفيفة ، والغذائية ... الخ

واذا نظرنا الى الجديد الفتيّ والقديم الهرم ، أمكن تقسيم الصناعة أيضاً الى صناعة « هرمة » كتعدين المعادن السوداء ، وبناء السفن ، والنسيج ، والفحم الحجري... والى صناعة جديدة فتيّة كتعدين المعادن الملونة، وصناعة النفط ، وصناعة السيارات ، وانتاج الحرير الاصطناعي ، والطاقة الكهربائية ، وصناعة الطائرات ، والأقمار الصناعية والصواريخ ، والاليكترون ... الخ .

• • •

من كل ماتقدم نستطيع إذن القول بأن الحرفة والصناعة مفهومان متمايزان، وأن كل خلط بينهما ، أو التفريق بينهما على أساس أن العمل اليدوي هو الصناعة ، وغير اليدوي هو الحرفة ، هو خطأ كبير .

فالحرفة هي العمل الصناعي السابق، تاريخياً، لنشوء الصناعة الرأسمالية، وهي النشاط الاقتصادي الذي ولد تاريخيا ، ممتزجا بالعمل الزراعي وعمل تربية الماشية ثم استقل عنهما ليحدث ثاني تقسيم اجتماعي كبير للعمل ، هو العمل الحرفي .

ومع نشوء الصناعة الراسمالية ، وتميزها الجوهري عن الصناعة الحرفية، استقلت الصناعة الراسمالية عن الحرفة التي ولدت عنها ، وشقت لها طريقها الخاص بها ، كانتاج آلي ضخم يعتمد الآلات الهائلة ، والقوة المحركة الجبارة ، وتقسيم العمل المتطور ، والتخصص الواسـع ، ويقسم المجتمع ، الى طبقتين اساسيتين متناقضتي المصالح ، متحاربتين هما طبقـة الراسماليين ، وطبقـة البروليتاريين . وهكذا تتلاشى اهمية التعاريف الكثيرة التي أعطيت للصناعة : « الصناعة حرفة الصانع ، وعمله الصنعة » « والصناعة في عرف العـامة هي العلم الحاصل بمزاولة العمل كالخياطة والحياكة ونحوهما ، مما يتوقف على المزاولة والممارسة ، وعند الخاصة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . ويكون المقصود منه ذلك العمل سواء حصل بمزاولة العمل كالخياطة ونحوها ، أولا ، كعلم الفقه والمنطق والنحو ، والحكمة العملية مما لايحتاج في تحصيله الى مزاولة الاعمال »، والصناعة هي « كل علم مارسه الانسان حتى صار كالحرفة له » و « الصناعة هي كل مااشتغل به الانسان ومارسه حتى صار مَلَكَةً فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل ، والملكه هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائهـا الحرفة لان الانسان ينحرف اليها، أي يميل ، ولقد فرق بعضهم بينهما . فقال : الصناعة ماحصلت بالممارسة والتمرن ، فهي اخص من الحرفة التي لاتحتـاج اليهما . وقيل ان الصناعة ماكانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليدين، بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك ، اما المهنة فهي الخدمة(٣٦) . . .

هذا مايتعلق بالحرفة والصناعة أما مايتعلق بالمهنة والصنعة فنعتقد ان المهنة هي كلمة مرادفة للصنعة ، وهما كلّ نشاط اقتصادي يمارسه الانسان في سبيل الكسب . فالمهنة والصنعة هي النشاط الحرفي والنشاط الصناعي ، والنشاط التجاري ، والنشاط الزراعي ، . . . ومهنة الانسان وصنعته هي الزراعة أو المحاماة ،أو الحلاقة ،أو التجارة ،أو النسيج الحرفي أو النسيج الآلي . . إنهما كلمتان عامتان تحددان نشاط الانسان الاقتصادي .

هكذا تتحدد مفاهيم الحرفة ، والصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، والمهنة والصنعة ولا يقوم أي التباس في الحدود . وعلى هذا فاذا أعدنا النظر في تصنيف « الصناعات الشامية » حسب المفاهيم الجديدة، أمكن التوصل الى النتائج التالية:

---

(٣٦) راجع في هذه التعاريف : القاموس : ص ١٢ من مقدمة الاستاذ ظافر القاسمي .

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
١	البناء والتشييد	بناء	٥١	١٩	من يبني الجدران
٢		حوّار	١١٨	٨٢	من يبيض الجدران
٣		دكّاك	١٤٤	١٠٤	صانع حيطان الدّك
٤		طوّاب	٢٩٤	٢١٧	ضارب اللبن
٥		طيّان	٢٩٥	٢١٨	من يعمل في الطين
٦		فاعل	٣٣٣	٢٥٣	من يعمل عند المعلم أو الصانع
٧		كلاّس	٣٩٢	٣١٦	من متعلقات الطيان
٨		مجارفي	٤١٥	٣٣٦	مع الطيان
٩		معماري	٤٥٨	٣٨١	هو البناء
١٠		نحّات	٢٧٩	٤٠٩	من ينحت الحجارة والرخام
١١		حجّار	٩١	٥٦	قاطع الحجارة وبائعها
١	الصناعة الحرفية	اتوني	٣٤	٢	من يعمل الجير
٢		اراكيلي	٣٦	٥	صانع الاراكيل
٣		إسكافي	٣٨	٧	صانع الخفاف ومرقعها
٤		اباراتي	٢١٥	١٤٢	صانع الابر والمسلات والسنارات
٥		اشناني	٢١٦	١٤٣	بائع الاشنان بعد صنعه
٦		برابيشي	٤٢	١٠	صانع البرابيش
٧		بقاجالي	٤٥	١٢	صانع الحلويات
٨		بني	٥١	١٨	بائع البن المدقوق والمحمص
٩		بوابيجي	٥٧	٢١	صانع البوابيج
١٠		برازقي	٢١٨	١٤٥	صانع البرازق وبائعها
١١		بـراك	٢١٨	١٤٦	من أعمال الطاحون
١٢		تنوري	٧١	٣٢	من يخبز خبز التنور
١٣		جرادقي	٢٢٧	١٥٣	صانع الجرادق وبائعها
١٤		جـزار	٨٠	٤٢	اللحـام
١٥		جزماتي	٨١	٤٣	صانع الجزمات
١٦		جليلاتي	٨٣	٤٥	صانع جلايل الدواب
١٧		جلبجي	٨٤	٤٨	بائع ومحضر الجلاب
١٨		حائك	٨٦	٥١	من ينسج خيط الغزل والكتان والحرير
١٩		حبّار	٨٩	٥٣	صانع وبائع الحبر
٢٠		حبّال	٩٠	٥٤	صانع الحبال

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٢٢		حداد	٩٣	٥٨	من يعالج الحديد
٢٣		حصيري	٩٨	٦٥	صانع الحصر
٢٤		حكاك			
		الخواتم	١٠١	٦٨	من يحفر الختم المصبوب من النحاس الرملي ويحفر فصوص الخواتم
٢٥		حلاج	١٠٢	٦٩	من يحلج القطن
٢٦		حلواني	١٠٦	٧٥	صانع الحلاوة وبائعها
٢٧		حمصاني	١١٤	٧٧	من يبيع الحمص
٢٨		حشتا	١١٧	٨٠	من يحشو الوسائد بالقش
٢٩		خباز	١٢١	٨٥	الفران
٣٠		خراط	١٢٢	٨٦	محترف الخراطة
٣١		خشاب	١٢٤	٨٩	ـ
٣٢		خشيفاتي	١٢٥	٩٠	بائع الخشاف وصانعه .
٣٣		خضاض السمن	١٢٦	٩٢	من يخض السمن
٣٤		خيمي	١٢٩	٩٦	صانع الخيام
٣٥		خياش	١٣٠	٩٧	ماينسج من شعر المعز
٣٦		خياط	١٣٠	٩٨	صانع الثياب
٣٧		دباغ	١٤٠	١٠١	من يتعاطى الدباغة
٣٨		دهان	١٤٨	١٠٨	من يزين ويزخرف وجوه الجدران
٣٩		رسام	١٥٤	١١٤	من يرسم القماش المنسوج او يطبعه
٤٠		رواس	١٦٠	١٢١	بائع الرؤوس المطبوخة
٤١		زجاج	١٦٣	١٢٤	صانع الزجاج
٤٢		زدابيلي	١٦٥	١٢٥	صانع الزرابيل
٤٣		زمار	١٦٨	١٢٨	صانع المزامير
٤٤		سروجي	١٨٠	١٣٥	صانع السروج
٤٥		سرايري	١٨١	١٣٦	صانع سراير الاطفال
٤٦		سرايجي	١٨٢	١٣٧	من يصنع السرايج
٤٧		سنبوسكاتي	١٨٦	١٤١	حلواني
٤٨		سكاب	٢٣٧	١٥٩	من يسكب النحاس
٤٩		سلال	٢٣٨	١٦٠	من يصنع السلال
٥٠		سمكري	٢٣٩	١٦٢	من يصنع أواني التنك
٥١		سيودي	٢٤٢	١٦٦	من يصنع السيورة

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٥٢		شرباتي	٢٥٢	١٧٤	صانع الشربات وبائعها (آنية فخارية)
٥٣		شربتجي	٢٥٢	١٧٥	صانع الشرابات وبائعها
٥٤		شـعار	٢٥٦	١٧٧	صانع اخصاص الشريط على النوافذ
٥٥		شقيفاتي	٢٥٧	١٧٧	صانع شقوف الزريعة
٥٦		شـلاح	٢٥٧	١٨	من حرفة الدباغة
٥٧		شـماع	٢٥٨	١٨١	صانع الشمع وبائعه
٥٨		شوا اللحم	٢٦٠	١٨٤	من يشوي اللحم في الاسواق
٥٩		شوا الذرة	٢٦١	١٨٥	من يشوي الذرة ويبيعها
٦٠		صائـغ	٢٦٤	١٨٨	من يعمل في الذهب والفضة وغيرها .
٦١		صافرجي	٢٦٥	١٨٩	من يصنع جلد الدربكة والدف والطبل .
٦٢		صبّاغ	٢٦٧	١٩١	من يصبغ القماش
٦٣		صبّان	٢٦٨	١٩٢	صانع الصابون
٦٤		صرماياتي	٢٧٠	١٩٥	صانع الصرامي
٦٥		صناديقي	٢٧١	١٩٧	صانع صناديق الخشب
٦٦		صوال	٢٧٢	١٩٨	تزبيب العنب .
٦٧		صيدلاني	٢٧٩	٢٠٣	مركب الادوية لا الجاهز منهـا
٦٨		ضرضرمجي	٢٨٢	٢٠٥	صانع الضرضرمة وبائعها
٦٩		طابع الكتب	٢٨٦	٢٠٨	من يطبع الكتب
٧٠		طبّاع	٢٨٧	٢١٠	طابع أصناف الالوان على القماش
٧١		طحـان	٢٩٠	٢١٢	مستثمر الطاحون
٧٢		طراز	٢٩٢	٢٢٤	طابع الحرير بالقوالب ثم مطرزهـا .
٧٣		عجان	٣٠٧	٢٢٤	في صناعة الفران
٧٤		عرقسوسي	٣٠٨	٢٢٨	صانع شراب السوس وبائعه
٧٥		عشـا	٣١٠	٢٣١	هو الطباخ
٧٦		عطري	٣١٣	٢٣٣	صانع العطور
٧٧		عقاد	٣١٣	٢٣٤	صانع منتجات خيطان الحرير والصوف والقطن ..
٧٨		عكلجي	٣١٥	٢٣٦	صانع العكل
٧٩		علبي	٣١٨	٢٣٨	صانع العلب الخشبية .
٨٠		عواماتي	٣٢٣	٢٤٤	صانع العوامة وبائعها

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٨١		قالاتي	٣٢٦	٢٤٥	صانع المفاتيح وانواع من الادوات الحديدية .
٨٢		غرابيلي	٣٢٦	٢٤٦	صانع الغرابيل
٨٣		فريواتي	٣٢٧	٢٤٧	صانع الفراء
٨٤		غزالة	٣٢٨	٢٤٨	غازلة الصوف
٨٥		غسال	٣٢٩	٢٥٠	متعلق بحرفة الدباغة
٨٦		غلاييني	٣٣٠	٢٥٢	صانع الغليون
٨٧		فتال	٣٣٤	٢٥٥	من يفتل الحرير
٨٨		فحام	٣٣٦	٢٥٧	صانع الفحم وبائعه
٨٩		فرام التتن	٣٣٧	٢٥٨	من يفرم التتن بآلة
٩٠		فراء	٣٣٨	٢٥٩	من يلصق الفراء ببعضه ويخيطه ويبيعه .
٩١		فناراتي	٣٤٣	٢٦٥	صانع الفنارات
٩٢		فوال	٣٤٤	٢٦٦	محضر الفول وبائعه
٩٣		فواخيري	٣٤٥	٢٦٧	ـ
٩٤		قباقيبي	٣٤٨	٢٧١	صانع القباقيب
٩٥		قربي	٣٥٠	٢٧٣	صانع القرب
٩٦		قساطلي	٣٥١	٢٧٦	صانع القساطل
٩٧		قصار	٣٥٣	٢٧٦	من يقصر القماش
٩٨		قصاب	٣٥٣	٢٧٦	هو الجزار واللحام
٩٩		قصيباتي	٣٥٦	٢٨٠	صانع الاقصاب للغليون
١٠٠		قضماتي	٣٥٦	٢٨١	صانع القضامة
١٠١		قطيفاتي	٣٥٧	٢٨٢	صانع القطايف والكنافة
١٠٢		قطعجي	٣٥٩	٢٨٣	صانع قطع الزينة
١٠٣		قفلاتي	٣٦١	٢٨٦	هو الغالاتي
١٠٤		ققفي	٣٦١	٢٨٧	صانع القفف والسراج
١٠٥		قلا العوامة	٣٦٢	٢٨٨	سبق شرحه .
١٠٦		قمرجي	٣٦٣	٢٨٩	صانع القمرات
١٠٧		قزاز	٣٧٣	٣٠١	هو الزجاج السابق
١٠٨		قاووقجي	٣٧٣	٣٠٣	صانع القواويق (لباس رأس قديم)
١٠٩		قلبقجي	٣٧٩	٣٠٤	صانع القلابق
١١٠		كبابة الحرير	٣٨٢	٣٠٦	تفريق الحرير الى انواع ولف كل نوع على حدة
١١١		كبابجي	٣٨٢	٣٠٨	شوا الكباب
١١٢		كعيكاتي	٣٨٩	٣٠٤	صانع الكعك

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
١١٣		كمرجي	٣٩٣	٣١٨	من يصنع الاكمار
١١٤		كنيفاتي	٣٩٤	٣٢٠	صانع الكنافة
١١٥		كوانيني	٣٩٦	٣٢٢	صانع الكوانين
١١٦		لبابيدي	٣٩٩	٣٢٥	صانع اللباد
١١٧		لحـام	٤٠٠	٣٢٦	هو الجزار والقصاب
١١٨		لفافة جيكارات	٤٠٤	٣٣٠	ـ
١١٩		مجلد	٤١٦	٣٣٨	من يجلد الكتب والدفاتر
١٢٠		مجركش	٤١٩	٣٤٠	من يزركش المنسوجات
١٢١		محايري	٤٢٠	٣٤١	من يصنع المحاير للحجاج
١٢٢		مخللاتي	٤٢٣	٣٤٤	صانع المخلل
١٢٣		مرادني	٤٢٦	٣٤٨	صانع المرادن
١٢٤		مزايكي	٤٣٣	٣٥٤	من متعلقات حرفة الالاجة
١٢٥		مسدّي	٤٤١	٣٦٣	من متعلقات حرفة الالاجة
١٢٦		مسوتي	٤٤٣	٣٦٥	صانع السنت
١٢٧		مشيطاني	٤٤٤	٣٦٧	صانع الامشاط الخشبية
١٢٨		مصور	٤٤٥	٣٦٩	لاقط الصور
١٢٩		معاليقي	٤٥٣	٣٧٥	من يشوي المعاليق
١٣٠		معمّاك	٤٥٤	٣٧٧	من يصنع القمر الدين
١٣١		معصراني	٤٥٦	٣٨٠	مستثمر المعصرة
١٣٢		معلم	٤٥٨	٣٨٢	معلم الالاجا
١٣٣		مقشاتي	٤٦٤	٣٨٨	صانع المقشات
١٣٤		مكاويكي	٤٦٦	٣٩٦	صانع المكوك
١٣٥		مكباتي	٤٦٧	٣٩٢	صانع المكبات
١٣٦		ملبنجي	٤٦٨	٣٩٣	صانع الملبن
١٣٧		ملقي	٤٦٨	٣٩٥	من متعلقات حرفة الالاجا
١٣٨		منافيخي	٤٧٢	٤٠٠	صانع المنافيخ
١٣٩		منجّد	٤٧٣	٤٠٢	من يخيط اصناف وجوه المفروشات
١٤٠		مهلبيةجي	٤٧٤	٤٠٤	طابخ انواع الحليب
١٤١		نجـار	٤٧٨	٤٠٨	من يعمل في أصناف الخشب
١٤٢		نحاس	٤٧٩	٤١٠	من يطرق صفائح النحاس
١٤٣		نشار	٤٨١	٤١٢	من ينشر انواع الخشب
١٤٤		نشواتي	٤٨٢	٤١٣	صانع النشا
١٤٥		نصّاب	٤٨٤	٤١٤	من ينصب آلة نول الحياكة
١٤٦		نطّاع	٤٨٤	٤١٥	من يصنع أطباق القش
١٤٧		نطفجي	٤٨٥	٤١٦	من يصنع لوازم الدواب
١٤٨		نقار الطواحين	٤٨٦	٤١٨	من يصلح ما فسد من الطواحين

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
١٤٩		نقاش	٤٨٦	٤١٩	من ينقش أصناف الاواني
١٥٠		نقانقي	٤٨٨	٤٢١	صانع النقانق
١٥١		نواعيري	٤٨٩	٤٢٣	صانع النواعير
١٥٢		نويلاتي	٤٩١	٤٢٤	من يصنع آلة النول
١٥٣		هواويني	٤٩٢	٤٢٦	بائع الهواوين وصانعها
١٥٤		وتــار	٤٩٤	٤٢٧	صانع الأوتــار
١٥٥		فرواتي	٢٦٢	٣٤١	من يصنع جلود الغنم فراء
١٥٦		فطائري	٢٦٣	٣٤٢	صانع الفطائر وبائعها
١	الزراعــة	بستاني	٢١٩	١٤٧	مستثمر البستان
٢		حرّاث	٩٥	٦١	حارث الارض
٣		حشاش	٩٧	٦٣	بائع الحشيش كعلف للدواب
٤		حصاد	٩٨	٦٤	حاصد الحبوب ...
٥		حمرجي	١١٦	٧٨	من يطبخ الحمر ويبيعه لتمقيم الكروم
٦		الخولي	١٢٨	٩٥	من له خبرة بسائر متعلقات الفلاحة
٧		دراس	١٤٣	١٠٢	من يدرس الحبوب
٨		راعي	١٥٢	١١١	راعي المواشي
٩		رشام	١٥٥	١١٥	موظف عند ملتزم الاعشار
١٠		رجّاد	١٥٥	١١٦	ناقل المحصول الى البيدر
١١		زبّار	١٦٢	١٢٢	من يقلّم اغصان الكرم
١٢		زراع	١٦٨	١٢٦	هو المزارع عند صاحب الارض
١٣		زهوراتي	١٦٩	١٢٧	بائع شقوف الزريعة
١٤		سلي	٢٣٨	١٦١	من يقطع السل ويبيعه
١٥		سواس	٢٤١	١٦٥	الباحث وراء عرق السوس
١٦		سواري	٢٤٢	١٦٧	الباحث عن الزبالة
١٧		سواط	٢٤٣	١٦٨	ملتزم تطهير الاقنية
١٨		شاوي	٢٤٩	١٧٢	من يتفقد عدان مياه القرية
١٩		شداد	٢٥٥	١٧٦	مالك ارض يشغلها على حسابه
٢٠		شوار	٢٦٠	١٨٣	جامع الاثمار الساقطة
٢١		شياح	٢٦٢	١٨٦	من يبحث عن الشيح في البرية
٢٢		صماغ	٢٧١	١٩٦	من يلتقط صمغ الاشجار
٢٣		صياد	٢٧٦	٢٠٢	صائد السمك والطيور والحيوانات
٢٤		ضمان	٢٨٤	٢٠٧	ضامن الثمار الفواكه
٢٥		عزاق	٣٠٩	٢٢٩	عازق الارض
٢٦		عشار	٣١٠	٢٣٠	ضامن الاعشار

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٢٧		فراط	٣٣٨	٢٥٩	قاطف الزيتون
٢٨		فلاح	٣٤٢	٢٦٤	من يعمل في الفلاحة
٢٩		قشاش	٣٥٣ مكرر	٢٥٧	جامع ما سقط من السنابل اثناء الرجاد
٣٠		قولجي	٣٧٢	٣٠٠	المحافظ على البيادر من جانب العشار
٣١		لفاف	٤٠٤	٣٢٩	من يلف النصب
٣٢		محمر	٤٢١	٣٤٢	محمر الكرمة
٣٣		مدرّي	٤٢٤	٣٤٥	من يخرج الحب من التبن
٣٤		مدرك	٤٢٥	٣٤٧	من يدرك الشجر
٣٥		مرابع	٤٢٧	٣٤٩	مزارع عند أصحاب الحوانيت
٣٦		مزارع	٤٣٠	٣٥٣	مستاجر الارض ومستثمرها لقاء شروط
٣٧		مسّاح	٤٣٦	٣٥٨	من يمسح الارض بواسطة المقاسات
٣٨		مسحّي	٤٣٨	٣٦١	فاتح المساكب للزراعة
٣٩		مصيف	٤٤٧	٣٧١	من يزرع انواع البطيخ والقثاء
٤٠		مطعم	٤٥٢	٣٧٤	من يطعم الاشجار
٤١		معاز	٤٥٤	٣٧٦	مالك قطيع المعزه
٤٢		معشبة	٤٥٥	٣٧٩	منظفة الارض من العشب
٤٣		ملتزم	٤٦٨	٣٩٤	هو العشّار
٤٤		ناطور	٤٧٧	٤٠٦	حافظ الكرم وغيره
٤٥		نكاش	٤٨٩	٤٢٢	من جملة حرف الفلاحة
٤٦		وقاف	٤٩٦	٤٣٠	موظف عند أصحاب الحوانيت
	تجارة				
١		اجزاجي	٣٦	٤	بائع العقاقير الجاهزة
٢		الاجاتي	٣٩	٨	رئيس الحرفة ومديرها والمتجر بها دون أن يكون حائكها .
٣		انتكجي	٤٠	٩	بائع الانتيكة
٤		بزّاز	٤٣	١١	بائع الثياب والامتعة غير المخيطة
٥		بقّال	٤٧	١٣	بائع البقال
٦		بقّال	٤٨	١٤	بائع الاطعمة والماكولات
٧		بقّار	٤٩	١٥	بائع البقر
٨		البوايكي	٥٥	٢٠	بائع الحبوب في محل كبير
٩		بسطاطي	٢٢٠	١٤٨	من يبسط اشياءه في الطرق
١٠		تاجر	٦٣	٢٥	من يبيع ويشتري لجني الربح
١١		تبّان	٦٥	٢٦	من يبيع التبن

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
١٢		تتنجي	٦٦	٢٧	من يبيع التتن المفروم
١٣		تراب	٦٧	٢٨	من يبيع التراب الاحمر
١٤		تنبكجي	٧٠	٣١	بائع التنباك
١٥		ثلاج	٧٢	٣٣	مدخر وبائع الثلج
١٦		توام	٧٧	٣٤	بائع الثوم
١٧		جبان	٧٦	٣٦	بائع الجبن
١٨		جباسيني	٧٧	٣٧	بائع الجبس
١٩		جدا	٧٨	٣٨	بائع الجدايا
٢٠		جراد	٧٩	٤١	من يتجر بحاجيات الاعراب
٢١		جلاد	٨٢	٤٤	مشتري جلود الغنم والمعز
٢٢		جمال	٨٣	٤٦	من يبيع الجمال ويسوسها
٢٣		جنباظ	٨٤	٤٧	مشتري الخيل ومحسنهاوبائعها
٢٤		جوخي	٨٥	٤٩	بائع الجوخ
٢٥		جوهرجي	٨٥	٥٠	تاجر الجواهر
٢٦		حميماتي	٢٢٩	١٥٥	من اتخذ بيع الحمام وشراءه صنعة له
٢٧		حبوباتي	٩١	٥٥	بائع الحبوب واشياء اخرى
٢٨		حدار	٩٤	٥٩	تاجر قماش يذهب الى العربان
٢٩		حطاب	٩٩	٦٦	من يقطع الاشجار اليابسة وبيعها
٣٠		حلاب	١٠٥	٧١	من يبيع اللبن الحليب
٣١		حواصلي	١١٦	٧٩	من يبيع ادوات التجارة
٣٢		حناوي	١١٧	٨١	من يبيع الحناء
٣٣		خرضجي	١٢٣	٨٧	من يتجر باصناف كثيرة
٣٤		خزان	١٢٤	٨٨	من يخزن الاقوات من الحبوب والسمن واللحم
٣٥		خضري	١٢٦	٩١	بائع الخضراوات والبقول
٣٦		خمار	١٢٧	٩٣	بائع الخمرة
٣٧		خوام	١٢٧	٩٤	بائع الخام
٣٨		دباس	١٣٨	١٠٠	بائع الدبس
٣٩		دلال	١٤٦	١٠٦	من يبيع حوائج الناس
٤٠		ديمجي	١٤٧	١٠٧	بائع صايات الديما
٤١		ذهبي	١٥١	١١٠	من يبيع ويتجر بالذهب البسيط بسائر انواعه (الدهان والنقش)
٤٢		رزاز	١٥٤	١١٣	تاجر الارز

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٤٣		رماح	١٥٨	١٢٠	بائع الرماح
٤٤		زيات	١٧٣	١٢٩	بائع زيت الزيتون
٤٥		سكري	١٨٤	١٣٩	بائع السكر المصنوع
٤٦		سمسار	٢٤٠	١٦٣	للخيل والعقارات
٤٧		سمان	٢٤١	١٦٤	بائع السمن والزيت والجبن
٤٨		شالاتي	٢٤٨	١٧١	بائع الشال
٤٩		صباراتي	٢٦٦	١٩٠	بائع الصبارة
٥٠		صحاف	٢٦٩	١٩٣	بائع الكتب
٥١		صدفجي	٢٧٠	١٩٤	تاجر الصدف
٥٢		صوفاناتي	٢٧٤	٢٠٠	بائع الصوفان (نوع من الكبريت)
٥٣		صواف	٢٧٥	٢٠١	تاجر الصوف
٥٤		صيرفي	٢٠٤	٢٨٠	تاجر العملة
٥٥		ضفادعي	٢٠٦	٢٨٤	بائع الضفادع
٥٦		طرابيشي	٢١٣	٢٩٢	بائع الطرابيش
٥٧		طيوراتي	٢١٩	٢٩٨	بائع الطيور
٥٨		ظراف	٢٢٠	٣٠٠	بائع الظروف والاوراق
٥٩		عبجي	٢٢١	٣٠١	بائع العباءات
٦٠		عطار	٢٣٢	٣١١	كان بائع العطر واصبح بائع السكر ومنتجاته
٦١		علقي	٢٣٧	٣١٦	بائع العلق
٦٢		علاف	٢٤٠	٣١٩	بائع أصناف الحبوب
٦٣		عميل	٢٤١	٣١٩	وكيل « بائع أو مشتر »
٦٤		غزولي	٢٤٩	٣٢٨	بائع الغزل
٦٥		غنام	٢٥٢ مكرر	٣٣١	تاجر الغنم
٦٦		فاكهاني	٢٥٤	٣٣٣	بائع الفواكه
٦٧		فجال	٢٥٦	٣٣٥	بائع الفجل
٦٨		قشاط	٢٧٥	٣٥٢	بائع القشطة
٦٩		قصاع	٢٧٩	٣٥٥	بائع القصع الفخارية
٧٠		قطان	٢٨٤	٣٦٠	تاجر القطن
٧١		قفصجي	٢٨٥	٣٦١	محترف بيع الاقفاص
٧٢		قنباب	٢٩١	٣٦٤	بائع القنب
٧٣		كومسيونجي	٢٩٨	٣٧١	خادم التجار لقاء نسبة مئوية
٧٤		قونطوراتجي	٢٩٩	٣٧١	متعهد ارزاق العساكر
٧٥		قواف	٣٠٢	٣٧٣	بائع اصناف النعال
٧٦		كباريتي	٣٠٧	٣٨٢	بائع الكبريت
٧٧		كتبي	٣٠٩	٣٨٣	بائع الكتب

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٧٨		لبـان	٣٢٤	٣٩٨	بائع اللبن
٧٩		متعيش	٣٣٥	٤١٤	بائع جوّال
٨٠		مرابي	٣٥١	٤٢٩	مقرض الناس لقاء فائدة
٨١		مسابحجي	٣٥٧	٤٣٦	بائع المسابح
٨٢		مسكي	٣٦٤	٤٤٣	بائع المسك
٨٣		مطربازي	٣٧٣	٤٥٠	بائع السلع المنوعة من جديـد وعتيق
٨٤		مناديلي	٣٩٨	٤٧١	بائع المناديل
٨٥		نعّال	٤١٧	٤٨٥	بائع النعال
٨٦		هباب	٤٢٥	٤٩٢	جامع الهباب وبائعه
٨٧		وراق	٤٢٨	٤٩٥	قديما يطلق على المجلد والان على الظراف .
١	الخدمـات	اسطة	٦	٣٧	غسالةراس النساء فيالحمام
٢		أكـار	١٤٤	٢١٦	حافر الانهر وكاريها
٣		بندقجي	١٦	٤٩	مصلح البنادق
٤		بلان وبلانة	١٧	٥٠	دلاك ومصوبن في الحمام
٥		بواب	٢٢	٥٨	حارس البـاب
٦		بيطـار	٢٣	٥٨	معالج الدواب
٧		بيـار	٢٤	٦١	معزل الآبار
٨		بويجي	١٤٨	٢٢٠	ماسح الاحذية
٩		تراس	٢٩	٦٩	ناقل الحبـوب من القرى الى البايكة ومنهاالىالقرى
١٠		ترجمان	٣٠	٦٩	المترجم
١١		تبع	١٥٠	٢٢١	خادم في الحمام
١٢		تهليلجي	١٥١	٢٢٢	رئيس الذكريين في التهليلة
١٣		جابي	٣٥	٥٧	محصل مال الاوقاف
١٤		جزّاز	٣٩	٧٨	جاز صوف الغنم بالاجرة
١٥		جراح	٤٠	٧٨	متعاطي مهنة الجراحة
١٦		حارس	٥٢	٨٨	حارس الاسواق والخانات
١٧		حجـام	٥٧	٩٢	الحلاق والمزين
١٨		حذاء	٦٠	٩٤	من يضع الحدوة في النعل
١٩		حزّام	٦٢	٩٦	حازم البضائع
٢٠		حفـار	٦٧	١٠٠	حفار القبور
٢١		حلاّق	٧٠	١٠٣	من يحلق الشعر
٢٢		حمّار	٧٢	١٠٦	صاحب الحميرالمعدة للايجار

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٢٣		حمامي	٧٤	١٠٧	معلم الحمام
٢٤		حكواتي	٧٥	١١٢	من يلقي الحكايات في الاماكن العـامة
٢٥		حمال	٧٦	١١٤	حامل البضائع على دابته
٢٦		خاناتي	٨٣	١١٩	قيم الخان
٢٧		خدّام	٨٤	١١٨	من يقضي حوائج النـاس لقاء جعل
٢٨		دايه	٩٩	١٣٤	قابلة
٢٩		دقاق	١٠٣	١٤٤	من يدق أثواب الآلاجا
٣٠		دلاك	١٠٥	١٤٥	من يدلك ويزيل الاوساخ
٣١		ذباح	١٠٩	١٥٠	ذابح الغنم والمعز في المسلخ
٣٢		رتا	١١٢	١٥٣	من يخيط الثياب المهترئة او المعطوبـة
٣٣		رشاش	١١٧	١٥٦	راش الماء في الاسواق
٣٤		ركاب	١١٨	١٥٦	مؤجر الحمير وأجيره
٣٥		رهونجي	١٥٧	٢٣٦	مروّض الفرس
٣٦		زبّال	١٢٣	١٦٣	مشترى الزبل للقمّيم
٣٧		ساعاتي	١٣٠	١٧٤	مصلح الساعات
٣٨		سائق	١٣٢	١٧٥	نـاقـل الطحـين الى الفرن ومن البوايكة الى الطاحونة
٣٩		ساعي	١٣٣	١٧٦	حامل الرسائل
٤٠		سقاء	١٤٠	١٨٥	ناقل الماء للسقايه
٤١		سفرجي	١٥٨	٢٣٧	مرتب طاولات السفره
٤٢		سيوفي	١٦٩	٢٤٣	مصلح السيوف
٤٣		شمال	١٧٨	٢٥٦	مشعّل الفوانيس
٤٤		شميساتي	١٨٢	٢٥٩	مصلح الشماسي
٤٥		شيال	١٨٧	٢٦٣	جمّال يؤجر جماله للحجاج
٤٦		صوجي	١٩٩	٢٧٣	بائع الماء
٤٧		طبيب	٢١١	٢٨٩	معالج الامراض
٤٨		طنبرجي	٢١٦	٢٩٤	سائق الطنبر
٤٩		عتال	٢٢٢	٣٠٢	حامل السلع على ظهره
٥٠		عجائبك عجائب	٢٢٣	٣٠٢	حامل صندوق الدنيا
٥١		عربجي	٢٢٦	٣٠٥	سائق العربه
٥٢		عرضحالجي	٢٢٧	٣٠٧	كاتب العرائض
٥٣		عكـام	٢٣٩	٣١٨	أجير عند المقوّم لخدمة الحجاج
٥٤		عناب	٢٤٢	٣٢٠	ناقل العنب

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	تفسيرات
٥٥		عواد	٢٤٣	٣٢٢	الضارب على العود
٥٦		غسالة	٢٥١	٣٢٩	غاسلة الغسيل في بيوت الناس
٥٧		فرضي	٢٦١	٣٤٠	عالم بالفرائض
٥٨		قانونجي	٢٦٨	٣٤٦	الضارب على القانون
٥٩		قابلة	٢٦٩	٣٤٧	الدايـة
٦٠		قباني	٢٧٠	٣٤٧	ملتزم القبـان
٦١		قصاص	٢٧٧	٣٥٥	قاص شعر الدواب
٦٢		قميمي	٢٩٠	٣٦٣	قيمٌ قميم الحمام
٦٣		قنواتي	٢٩٢	٣٦٤	المحافظ على طوالع الماء
٦٤		قنياطي	٢٩٣	٣٦٥	معزل الشـشامي
٦٥		قهوجي	٢٩٤	٣٦٧	مستثمر المقهى
٦٦		قواص	٢٩٥	٣٦٨	خادم القناصل
٦٧		كاتب	٣٠٥	٣٨١	خادم الاغنياء والتجار لمادة الحسابات
٦٨		كراكوزاتي	٣١٠	٣٨٤	ملاعب الصور على الشاشة
٦٩		كحال	٣١١	٣٨٥	مكحل العيون المريضة
٧٠		كسار	٣١٢	٣٨٦	كسار الحطب
٧١		كميونجي	٣١٧	٣٩٢	سائق الكميون على الدواب
٧٢		كناس	٣٢١	٣٩٥	كانس الطرقات
٧٣		كواء	٣٢٣	٣٩٦	كوّى الطرابيش والثياب
٧٤		لوكندهجي	٣٣١	٤٠٥	مستثمر اللوكنده (فندق)
٧٥		مؤدية الاطفال	٣٣٢	٤٠٧	شيخة الكتاب
٧٦		ماشطه	٣٣٣	٤٠٨	الدايـة والقابلـة وممشطة العروس
٧٧		مبيض	٣٣٤	٤١٣	منظف الاواني النحاسية
٧٨		مجلّخ	٣٣٧	٤١٦	مصلح آلام السكاكين
٧٩		مخرس	٣٤٣	٤٢٢	مصلح صحون القيشاني
٨٠		مراياتي	٣٥٠	٤٢٨	مصلح المرايا
٨١		مرضعة	٣٥٢	٤٢٩	مرضعة الاطفال باجر
٨٢		مزين	٣٥٦	٤٣٥	الحلاق وخاتن الاولاد
٨٣		مسالخي	٣٥٩	٤٣٧	الذابح في المسلخ
٨٤		مسحر	٣٦٢	٤٣٩	موقظ الناس ايام رمضان
٨٥		مشبب	٣٦٦	٤٤٣	نافخ الناي
٨٦		مصارع	٣٦٨	٤٤٤	ممارس المصارعة
٨٧		مصوبن	٣٧٠	٤٤٦	في الحمام

الرقم العام للقطاع	القطاع الاقتصادي	النشاط الاقتصادي	الرقم	الصفحة	التفسيرات
٨٨		معزل	٣٧٨	٤٥٥	القنياطي
٨٩		مغربل	٣٨٣	٤٥٨	من صناع الطواحين
٩٠		مغسل	٣٨٤	٤٥٩	منظف الموتى
٩١		مغني	٣٨٥	٤٥٩	احتراف الغناء
٩٢		مقبعة	٣٨٦	٤٦١	معالجة القرع
٩٣		مقرىء	٣٨٧	٤٦٢	معلم تجويد القرآن
٩٤		مقوم	٣٨٩	٤٦٥	متعهد مشال ركب الحجاج
٩٥		مكاري	٣٩١	٤٦٦	مؤجر الدواب
٩٦		ممسده	٣٩٦	٤٦٩	من اعمال الداية
٩٧		ممثل	٣٩٧	٤٧٠	الروايات
٩٨		منادي	٣٩٩	٤٧١	رافع الصوت بالنداء بحثا عن مفقود
٩٩		مهتار	٤٠٣	٤٧٤	من متعلقات عمل المقوم
١٠٠		مهندس	٤٠٥	٤٧٥	متقن فن الهندسة
١٠١		نخاس	٤١١	٤٨٠	تاجر الرقيق
١٠٢		نقاشة	٤٢٠	٤٨٧	ناقشة أيدي وأرجل العرائس بالحناء
١٠٣		وقاد	٤٢٩	٤٩٦	وقاد القميم
١٠٤		وكيل	٤٣١	٤٩٧	من يقوم باعمال الموكل
١٠٥		وكيل الدعاوي	٤٣٢	٤٩٨	الابوكات
١٠٦		لالا	٤٣٣	٤٩٩	مربي أولاد الاكابر
١٠٧		لاقوط	٤٣٤	٥٠٠	لاقط سنابل الحبوب اثناء الرجاد
١٠٨		ياسرجي	٤٣٥	٥٠١	دلال العبيد والاماء

هذا وقد اشتمل القاموس على عدد من « الصناعات » لايدخل ، في رأينا ، في إطار الفعالية الاقتصادية ، وفي مفهوم العمل الانتاجي المحول لموضوعه ، بالاستعانة بأدوات عمل معينة ، ووفق خطة انتاجية محددة ، ولا في مفهوم العمل اللاانتاجي الذي يهدف الى تقديم خدمة نافعة للمجتمع وضرورية له ، ولهذا لابد من اسقاطها من قائمة « الصناعات » ، وهي « صناعات » عديدة ، نورد أهمها في الجدول التالي :

رقم القطاع العام	النشاط	الرقم	الصفحة	تفسيرات
١	اجير	٣	٣٥	من اشتغل عند معلم أو صانع
٢	ثعباني	١٥٢	٢٢٤	جامع الثعابين وملعبها لقاء دريهمات تبرع
٣	جعيدي	١٥٤	٢٢٨	مرقص القرود والدبب
٤	رمـال	١١٩	١٥٧	ضارب الرمل
٥	راقي	١٥٦	٥٣١	من يحترف الرقية
٦	زمـار	١٢٨	١٦٨	مغني القصب لقاء تبـرع بدريهمات
٧	سائل	١٣٤	١٧٧	شحـاذ
٨	سراق	١٣٨	١٨٣	سارق مال الغير
٩	شاعر	١٧٠	٢٤٧	المادح باشعاره لقاء تبرع
١٠	شحاذ	١٧٣	٢٥٠	سائل
١١	طبـال	٢١٠مكرر	٢٨٨	ضارب الطبل لقاء تبرع
١٢	طفيلي	٢١٥	٢٩٣	فضولي الولائم
١٣	عراف	٢٢٥	٣٠٤	من يظهر معرفة الشيء المسروق
١٤	عقـاربي	٢٣٥	٣١٥	جامع العقارب
١٥	قراد	٢٧٢	٣٤٩	ملاعب القرود
١٦	قواد	٢٩٦	٣٦٩	الديوث
١٧	قوال	٢٩٧	٣٧٠	مداح بالكلام لقاء تبرعات
١٨	كـلاب	٣١٥	٣٩١	قاصد دور الموتى للشحاذة
١٩	لص	٣٢٧	٤١٠	سارق
٢٠	لطامة	٣٢٨	٤٠٣	النادبات على الميت
٢١	مجري	٣٢٩	٤١٧	عمل يقوم به رجل معين عند الختان والاعراس ، وختـم القرآن وسفر الحج واستقباله
٢٢	مـداح	٣٤٦	٤٥٥	قوال
٢٣	مزعـبر	٣٥٥	٤٣٤	مشعوذ
٢٤	مستاجر	٣٦٠	٤٣٨	الحوانيت والطواحين والحمامات
٢٥	مسحر	٣٦٢	٤٣٩	موقظ الناس في رمضان
٢٦	مضحك	٣٧٢	٤٤٩	من يضحك الناس بتهريجه
٢٧	منجـم	٤٠١	٤٧٢	من يدعي معرفـة السعد والنحس
٢٨	نائحـة	٤٠٧	٤٧٨	نادبـة
٢٩	نصـاب	٤١٤	٤٨٤	مخادع لاستجرار المال

الفصل الثاني

النشاط الاقتصادي والمنزلة الاجتماعية

العمل هو الطريق الى تأمين حاجات الانسان اليومية . ولكن هذا العمل المنتج على أهمية ، لم تقف منه مختلف الطبقات الاجتماعية ، في مراحل تطورها ، موقفاً واحداً ، فكان بعضها يحتقر العمل اليدوي ، ويرى ان العمل خلق للطبقات الدنيا من الناس ، في حين خلقت الطبقات العليا للقيادة والادارة ، ومعالجة انواع الفنون . وكان بعضها الآخر يرى أن العمل ضرورة طبيعية ، وهو متصل اتصالاً وثيقاً بحياة الانسان ونضاله ضد قوى الطبيعة العمياء ، ومن هنا يكتسب العمل منزلته الاجتماعية الممجَّدة . وكثيراً ما يقال بأن العرب تأنف من العمل المنتج ، فتكره الزراعة ، وتتعفف عن العمل الحرفي الذي لم يخلق لهم ، بل خلق لأدنياء الناس .

على ان من الانصاف ان نقول إن الموقف من العمل مرتبط بمراحل تطور المجتمع أكثر من ارتباطه بهذا العرق البشري او ذاك ، وهذه الجماعة الانسانية او تلك .

إن احتقار العمل اليدوي المنتج ، وتمجيد العمل الفكري ، مرحلة مر بها العديد من الشعوب . وهي مرحلة مرتبطة بنشوء استثمار الانسان للانسان ، وظهور الملكية الخاصة ، والدولة . فالارستقراطية السائدة ، وهي التي تتمتع بالسلطة والقوة وملكية وسائل الانتاج ، لاتريد ممارسة العمل اليدوي لأن في المجتمع طبقات اخرى تقوم بهذا العمل ، وتقدم فائضه لها تحت اشكال مختلفة . ولهذا فهي تتجه بنشاطها الى قرض الشعر ، وممارسة الفن ، والى الادارة ، وقيادة المجتمع ، والامساك بقيادة الجيوش . هكذا احتقرت الارستقراطية اليونانية والرومانية ، والفارسية ، والعربية . . . العمل الجسماني ومجّدت العمل الفكري والقيادي . وتبدى هذا الاحتقار في مختلف التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية القائمة على الاستثمار ، تبدى في احتقار اصحاب الرقيق له ، وفي احتقاره من قبل أسياد الأرض الاقطاعيين ، كما تبدى ، تحت هذا الشكل أو ذاك ، عند الارستقراطية الراسمالية . ولا يعود الى العمل احترامه ، والإيمان بضرورته ، واعتبار ممارسته شرفاً الا في المجتمعات الاشتراكية التي تلغي استثمار الانسان للانسان ، والملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وتجعل منزلة الانسان مرتبطة بما يقدمه للمجتمع من انتاج .

فاذا قررنا أن الموقف من العمل الجسماني والعمل الفكري مرتبط بدرجة تطور المجتمع ، والانتماء الطبقي ، فان من الطبيعي أن نرى تحولاً في مواقف الافراد من العمل بتحول انتمائهم الطبقي . فأفراد الطبقة العليا ، في المجتمعات الاستثمارية ، الذين ينحدرون لهـذا السبب أو ذاك ، الى صفوف الطبقـات الدنيا ، يبدأون باستشعار الحاجة الى العمل الجسماني لتأمين عيشهم . ومهما كان كرههم ، في البداية ، له كبيراً ، فان الزمن كفيل بخلق عادة ممارستهم له ، والاعتياد عليه والتآلف معه . كما أن الافراد الذين يرتفعون من صفوف الطبقات الدنيا ، وتتاح لهم الظروف لاحتـلال مراكز جديدة لهم في صفوف الطبقـات السائدة ، يبدأون أيضاً باستشعار عبء العمل الجسماني عليهم ، ويقوى الميل عندهم الى التخلص منه ، والابتعاد عنه .

ترى ماهو موقف قاموس الصناعات الشامية من هذه القضية ؟ هل اخذ بمبدأ تمجيد العمل الفكري واحتقار العمل الجسماني ؟ أم اخذ بمبدأ احـترام العمل سواء أكان فكرياً أم جسمانياً ؟ أم ميز بين اعمـال واعمـال ، وجعلهـا درجات بعضها فوق بعض، بغض النظر عن انتماء العمل الى الفكر أم الى الجسم؟

الواقع أن القاموس ذهب الى الاقرار بضرورة العمل للانسان « فلا بد في الرزق من سعي وعمل(٣٧) » ، وقد فضل العمل ، في مواقع ، على العبادة . فهو أول وهي الثاني . كما ندد بالقعود ، وبسؤال الناس .

بيد أن القاموس نحا منحىً آخر في التفريق بين الاعمال ، فجعل الأعمال درجات ومراتب ، وربطها بمفاهيم ممزوجة بالاخلاق آناً ، والدنس والطهارة احياناً ، والقذارة والنظافة ، أحياناً أخرى . وهكذا قسم الاعمال الى شريفة ، والى مافيها نوع من الشرف ، والى ماليست بشريفة ، والى ماهي دنيئة ، والى ما هي أحقر من ذلك . وكل انسان ممارس لعمل من الاعمال يكتسب الصفة التي يتمتع بها هذا العمل بغض النظر عن ممارسات الانسان ذاته . وهي نقطة ضعف كبيرة ، فكم من المهن الشريفة تحولت ، بفعل أصحابها اللااخلاقيين ، الى وسيلة امتصاص وابتزاز . وكم من مهنة غير شريفة سلك فيها ممارسها سلوكا كريما شريفا ، فهل يستوي الامران ؟.

كما لم ينظر القاموس الى الموضوع نظرة طبقية . فمهنة النسيج ، مثلاً ، مهنة يستوي فيها ، من حيث العمل ، صاحب الانوال العديدة التي يستثمر بها جهود مئات العمال وعائلاتهم ، وصاحب النول الواحد الذي يكدح به ليقتات من

---

(٣٧) راجع القاموس ص ٧

عمله وعرق جبينه . فهل نسوي بين عمل الاثنين لمجرد أن كلا منهما يمتهن مهنة واحدة ، وقد وسمها القاموس بمنزلة اجتماعية معينة ؟

ثم ماهي المؤشرات التي تسمح لنا بحشر هذا العمل ضمن الاعمال الشريفة أو الدنيئة أو الحقيرة أو بين الشرف والدناءة ؟ فهل يكفي أن نأخذ حكم القاموس كمسلمة لاتقبل النقاش ، أم لابد من مؤشرات معينة ينبغي توفرها ليكون هذا العمل شريفاً وذاك دنيئاً ؟ الواقع أن أحكام القاموس في هذا المجال كانت ذاتية ، ولا تستند إلا الى مفاهيم ذات صلة بأسباب دينية غامضة تقوم على الطهارة والنجاسة ، وعلى القذارة والنظافة ، وعلى اعتبارات اخلاقية كما أبنّا من قبل .

لقد أضفى القاموس على عدد من الاعمال صفة الشرف أو مايقرب منه ، وجعلها في المنزلة الاجتماعية العليا ، مما يتيح لاصحابها ، بالتالي بأن يوسموا بوسم الشرف ، أحياناً كثيرة . والجدول التالي يبين لنا جانباً من هذه الاعمال :

النشاط الاقتصادي	المنزلة الاجتماعية	الصفحة	الرقم
آلاجاتي	حرفة شريفة(٣٨)	٨	٣٩
بزاز	حرفة شريفة في ذاتها	١١	٤٣
جوخي	حرفة شريفة	٤٩	٨٥
خياط	صنعة قديمة شريفة	٩٨	١٣٠
ديمجي	حرفة شريفة لابأس بها	١٠٧	١٤٧
رتا	حرفة شريفة	١١٢	١٥٣
ساعاتي	معدودة من الحرف الشريفة بالشرط الذي قدمناه (ان يكون من أهل الخبرة والمهارة)	١٣٠	١٧٤
سروجي	صنعة شريفة والمحترفون بها من كمّل الناس	١٣٥	١٨٠
شالاتي	حرفة شريفة	١٧١	٢٤٨
طرابيشي	حرفة شريفة	٢١٣	٢٩٢
عبجي	من الحرف الشريفة	٢٢١	٣٠١
صواف	حرفة شريفة	٢٠١	٢٧٥
مستاجر	حرفة شريفة	٣٦٠	٤٣٨
	... الخ		

(٣٨) التعابير ماخوذة من القاموس .

اما صفة الدناءة والوضاعة وما شابه ذلك فقد أضفاها القاموس على عدد من النشاطات المتنوعة . والجدول التالي يبين لنا جانباً منها :

النشاط	التعريف	المنزلة الاجتماعية	الرقم	الصفحة
اسكافي	صانع الخفاف(٣٩) (والآن) من يخصفها	ممتهنــة(٣٩)	٧	٣٨
بلان	الدلاك والمصوبن	دنيئة غير شريفة لغير اهلها	١٧	٥٠
بواب	من يحفظ الباب ويحرسه ويلازمه	حرفــة دنيئة	٢٢	٥٨
جدّا	من يبيع الجدايا أوائل الربيع غالبا	دنيئــة	٣٨	٧٨
جـلاد	من يشتري جلود الغنم والمعز من اللحامة ومن المسلخ	غير مستحسنة لقذاراتها في الدماء والنجاسة .	٤٤	٨٢
جمال	من يبيع الجمال ويسوسها	دنيئة وأربابها من أداني الناس	٤٦	٨٣
حائك	ناسج الخيوط	دنيئة غير شريفة	٥١	٨٦
حفار	من يحفر القبور	تشمئز منها النفوس	٦٧	١٠٠
خدام	الخادم الذي يتعاطى حوائج الناس	حرفة غير شريفة	٨٤	١١٩
تبع	من صنّاع الحمام	دنيئة لغير أهلها	١٥٠	٢٢١
حميماتي	بائع ومشتري الحمام واللاهي بها	دنيئة .	١٥٥	٢٢٩
شحاذ		لاتضاهيها في الدناءة حرفة أبداً	١٧٣	٢٥٠
سمكري	تنكجي	ليست بشريفة	١٦٢	٢٣٩
دباغ	من يتعاطى حرفة الدباغة	حرفة مكروهة لمخامرة صانعيها للنجاسة ولاستقذارها	١٠١	١٤٠
دلّال	من يبيع حوائج الناس	مكروهــة	١٠٦	١٤٦

وهناك مرتبة وسطى تتراوح بين الخسة والشرف يجعلها القاموس من نصيب عدد وافر من النشاطات الاقتصادية . والجدول التالي يبين جانباً منها :

النشاط	التعريف	المنزلة الاجتماعية	الرقم	الصفحة
برابيشي	صانع البرابيش	متوسطة بين الخسة والشرف	١٠	٤٢
جليلاتي	من يشتغل جلال الدواب	لاباس بها لانها غير دنيئة	٤٥	٨٣
بقجاتي	بائع الحلويات	حرفة لاباس بها وليست بدنيئة	١٢	٤٥
اتوني	صانع الكلس	ليست بدنيئة	٢	٣٤
بقّال	بياع الاطعمة والمأكولات	هي كالسمانة في توسطها وعدم دناءتهـا	١٤	٤٨

(٣٩) التعاريف والتعابير من القاموس في الغالب .

النشاط	التعريف	المنزلة الاجتماعية	الرقم	الصفحة
سمّان	بائع السمن والزيت والجبن وأصناف متعددة	متوسطة غير دنيئة	١٦٤	٢٤١
صرماياتي	صانع الصرامي (نعال حمراء)	هي صنعة غير دنيئة	١٩٥	٢٧٠
طيان	من يعمل في الطين	ليست بدنيئة	٢١٨	٢٩٧
عربجي	هو سائق «العجل» المسمى الان بالعربة	ليست بدنيئة	٢٢٦	٣٠٥
صبان	صانع الصابون وبائعه	ليست بدنيئة	١٩٢	٢٦٨
ضمان	من يضمن الثمار	هي حرفة ليست بدنيئة	٢٠٧	٢٨٤
مسدى	من متعلقات حرفة الالاجه	متوسطة غير دنيئة	٣٦٣	٤٤١

◆

◆ ◆

الواقع أنه ليس بين كل من نشاطات أي جدول من الجداول الثلاثة قاسم مشترك يقوم على أساس مؤشرات محددة تكسب صفة النشاط الشريف أو الدنيء أو الوسط . ترى هل يكون التفاوت في المنزلة الاجتماعية عائداً لطبيعة القطاع الاقتصادي ، فيميز ، مثلا بين القطاع التجاري ، وقطاع الخدمات ، وقطاع الصناعة الحرفية ، والقطاع الزراعي ... الخ . ولكن لو فرضنا وجود هذا التفاوت فلماذا تتفاوت الجداول الثلاثة في المنزلة الاجتماعية وكل منها يضم بعض القطاعات المذكورة ، من صناعة حرفية ، وخدمات ، وتجارة ، وزراعة ؟ إذن فالأمر غير هذا . ترى هل يستقر القاسم المشترك إذن في طبيعة النشاط ذاته ؟ ولكن لنأخذ مثلاً المسدى من الجدول الثالث ، والحائك من الجدول الثاني ، والآلاجاتي من الجدول الأول ، فهذه النشاطات الثلاثة متكاملة فلا بد للصاية من تسدية ، ومن حياكة على الأقل . فلماذا يصبح المسدي ذا منزلة اجتماعية وسطى ، والحائك ذا منزلة دنيا ، والآلاجاتي ذا منزلة عليا ، وهي نشاطات تؤلف حلقات في انتاج واحد ؟ يبدو انه لاسبيل الى ايجاد قاسم مشترك بين مختلف نشاطات الجدول الواحد . ومع ذلك فلا بد من احترام القاموس في ما ذهب إليه . فله رأيه ولنا رأينا ولو كانا متباينين .

النشاط الاقتصادي والكنية

كنية الإنسان هي الكلمة الثالثة التي تضاف الى اسم الانسان واسم أبيه لتعطيه مؤشراً مميزاً عن بقية الناس الآخرين في مجتمعه وفي غيره من المجتمعات. وقد يضاف اسم الأم كمؤشر رديف أيضاً لينفي كل التباس في كيان الشخص المقصود . وكثيراً مانرى اسم الأب أو الجد يحل محل الكنية المميزة ، فيقال محمد علي باضافة اسم الأب الى اسم الابن ، أو محمد احمد الحسن ليضاف اسم الجد القريب أو البعيد الى اسم الأب واسم الابن .

بيد انه كثيراً ماتحتل الكنية مكانها البارز في تعريف الاشخاص دون ذكر الأب او الجد . فيقال مثلاً ابراهيم الساعاتي وسعاد المبارك ... الخ . وهذه الكنية المرادة لاسم الانسان ، والمميزة له عمن تتشابه اسماؤهم ، تأتي من مصادر مختلفة . فقد يشتهر الانسان بالبلد الذي أتى منه أو ولد فيه . فيقال فلان الحمصي ، وفلانه الحموي ، وزيد الحلبي ، وعمرو الدمشقي ... الخ . وقد يكون المصدر لا بلداً واحداً بل قطراً بذاته كأن يقال احمد المصري ، وزهير التونسي ، ومحمد المغربي . وقد يكون المصدر اشتهار الانسان بانتمائه الى المذاهب أو الطوائف الدينية كفلان الحنفي وزيد الشافعي ، وعمرو المالكي ، وعيسى الزيدي . او يكون المصدر ذا صفة تمت الى عرق معين فيقال فلان الكردي ، وفلان العربي ،وفلان الجركس ، وفلان الترك .. أو قد يتأتى المصدر عن تشويه جسماني أو لون يتميز به جدّ العائلة كفلان الاقرع ، وزيد الاكتع ، وعمرو الاحدب ، وفلان الأخرس ، ومحمود الأطرش ، ومحمد الاصفر ، ونهاد الاحمر . أو قد يكون المصدر ذا صلة بالحيوانات كفلان العصفور ، وزيد الوحش ، وعمرو الديك ، ومروان الحمار ، واحمد السبع ونهاد زرزور ...الخ او يكون المصدر عائداً الى سلاح معين أو رتبة عسكرية كزيد الحسامي ، وياسر المدفعي ، وخالد الانكشاري ، وسعيد القائد ، واحمد الملازم ، وجورج البطل.

وقد تتكون الكلمة من اسم مركب من كلمة عبد مضافة الى صفة من صفات الله كفلان عبد الدايم ، وفلان عبد الباقي ، وزيد عبد الصمد ، وعمرو عبد الله ، واسطفان عبد المسيح ... الخ . وقد يكون المصدر احياناً صفة من الصفات التي اشتهر بها الانسان في مرحلة معينة كفلان الامين ، وزيد الناعم ، وعمرو الصديق ... الخ .

وإذا كانت هذه المصادر وغيرها تحتل منزلة معينـــة في اضفاء الكني على الاشخاص ، فإن الكنى الناجمة عن النشاط الاقتصادي قد تكون أوسع وأشمل وقد يحتل هذا العامل المركز الرئيسي في صنع هذه الكنى . ولنا في « قاموس الصناعات الشامية » مصدر هام للاشارة الى هذه الكنى الناشئة عن النشـــاط الاقتصادي . وقد يجهل مرددو بعض هذه الكنى ، أو حتى حاملوها ، المعنى الأساسي لها ، وهم يرددونها بمجرد فعل العادة والتكرار . وقد يفخر هـــذا المكنى أو ذاك بكنيته الحالية ، ويعزو لها منزلة اجتماعية خاصـــة ، دون أن يعرف أن الاساس لها انما كان مثلاً في حفر القبور ، أو تحميص القضامة ، أو تعزيل الاقنية ، أو بيع الحناء، أو الضرب على العود، أو التفني بالمزمار . . الخ. وهي نشاطات قد لايرتاح الى أمثالها الآن من يفاخر أو يتباهى بالكنية الـــتي يحملها . وثمة شيء آخر نستفيده من قاموس الصناعات الشامية هو أن بعض الكنى تأتي عن نشاطات لم تعد ممارسة الآن ، وقد يكون الزمن طوى أصحابها ، أو ما يزال مبقياً عليهم . فذهب مصدر الكنى وبقى المكنّون إن لم يكونوا زالوا من الوجود أيضاً .

وإذا نحن رجعنا الى بعض النشاطات التي كانت ، في القاموس المذكور ، وراء كثير من الكنى وربطناها بها ، نحصل على الجدول التالي الذي يضم قرابة ثمانين كنية ونشاطاً مماثلاً :

الكنيـــة	النشاط الاقتصادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
الأسطـــة	ـ امراة تغسل راس النساء في الحمام بأجرة مخصوصة على حسب الزبون وغناه	٦	٣٧
الآجـــاتي	ـ معلم حرفة الآلاجـــا ورأسها ومديرها والمتجر بهـــا	٨	٣٩
بغجـــاتي	ـ بائع الحلويات	١٢	٤٥
بـــلان	ـ صانع من صناع الحمام وهو يخدم المستحمّ بما يحتاجه من نحو دلك بالكيس المزيل للأوساخ أو الصابون ويهيء النّورة	١٧	٥٠
بيطـــار	ـ هو معالج الدواب وصاحب هـــذه الصنعـــة للحيوان ذي الحافر كالطبيب للانسان	٢٣	٥٨

الكنيـــة	النشـاط الاقتصـادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
	مخدومه لخدمة خاصة أو خدمته وخدمة عياله وأولاده ومـا يحتاجونه	٨٤	١١٩
خدام الجامع	ـ خادم مختص بخدمة الجامع	ـ	
الرئيـــس	ـ اسم لمن يخبز الخبز بالنار	٨٥	١٢١
خراط	ـ اسم لمن يحترف ب «الخراطة»	٨٦	١٢٢
جليلاتي	ـ اسم لمن يشتغل جلال الدواب وهي ما تلبسها الدابة لتصان بها	٤٥	٨٣
خـــوام	ـ بائع الخـام المشهور ، وهو البطانة التي لم تقصر	٩٤	١٢٧
الخولـــي	ـ من يكون عند شداد الفلاحة أو مستأجرها وله خبرة تامة ومعرفة بسائر متعلقات الفلاحة	٩٥	١٢٨
خيمـــي	ـ اسم لصانع الخيام	٩٦	١٢٩
دبـاســ	ـ اسم لمن يبيع الدبس	١٠٠	١٣٨
دباغ	ـ اسم لمن يتعاطى حرفة الدباغة	١٠١	١٤٠
دقاق	ـ اسم لمـن يدق أثواب الحرير المسماة ب « صايات الآلاجا »	١٠٣	١٤٤
دهـــان	ـ يطلق على من يزين ويزخرف وجوه الجـدران والحيطـان بالصبغ والنقوش بالألوان	١٠٨	١٤٨
ذباح	ـ اسم لمن يذبح الغـنم والمعز بالمذبح المختص بذلك المسمى الآن ب « المسلخ »	١٠٩	١٥٠
رزاز	ـ اسم لمن يتجر بالأرز	١١٣	١٥٤
زمـــار	ـ من يسترزق بالتزمير بالقصب ويطوف في الاســواق عـلى الـدكاكين ، أو من يصنـع الزمامير من القصب	١٢٨	١٦٨
زيات	ـ اسم لمن يبيع الزيت المستخرج من الزيتون على دابة مخصوصة	١٢٩	١٧٣

الكنيـــة	النشـاط الاقتصـادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
ساعــاتي	ـ اسم لمن عنده معرفة بتصليح وترميم الساعة	١٣٠	١٧٤
سكري	ـ اسم لمن يعقد السكر ويعمل به انواعاً من الحلويات ، من المعاقيد والمعاجين والمربيات وما يتنقل به من الحلو كالملبس ومن الفستق والبندق ...	١٣٩	١٨٤
ســلال	ـ اسم لمن يصنع السلال	١٦٠	٢٣٨
سقــاء	ـ اسم لمن يتعاطى نقل المــاء ، فيأتي للناس بما يحتاجونه من الماء في كل يوم	١٤٠	١٨٥
سيوفي	ـ هو من يصلح السيوف وما شابههــا	١٦٩	٢٤٣
شالاتي	ـ هو من يبيع الشال	١٧١	٢٤٨
شاوي	ـ اسم لمن تستأجره القرية مثلاً للمحافظة على مائها في أيامه المخصصة لها ، ويسوقه لها ويمنع كل من أراد أخذ شيء منه	١٧٢	٢٤٩
شلاح	ـ اسم لمن يأخذ الجلود في المدبغة بعد غسلها ليطلي باطنها بالكلس ويطبعها ثم يكشطها بسكين	١٨٠	٢٥٧
شماع	ـ هو صانع الشمع	١٨١	٢٥٨
علــبي	ـ صانع الأواني الخشبية	٢٣٨	٣١٨
صبــاغ	ـ من يصنع القماش على اشكال متعــددة	١٩١	٢٦٧
صواف	ـ هو الذي يتجر بالصوف	٢٠١	٢٧٥
طبــال	ـ من يضرب على الطبل بكيفية معروفــة	٢١٠مكرر	٢٨٨

الكنيــة	النشاط الاقتصادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
طبــاع	ـ من يطبع أصناف الالوان على الاقمشة بواسطة قوالب	٢١٠	٢٨٧
طرزي	ـ هو من ينقش الاقمشــة من أصناف الحرير	٢١٤	٢٩٢
عبجــي	ـ بائع العباءة وتاجرهــا	٢٢١	٣٠١
عجــان	ـ عاجن العجين في الفرن	٢٢٤	٣٠٣
عشــا	ـ هو الطبــاخ	٢٣١	٣١٠
عطــار	ـ اسم لمن يبيع العطر في الاصل اما الآن فيطلق على من يبيع أصنافاً شتى من سكر وأرز وملح	٢٣٢	٣١١
عطري	ـ هو مستخرج العطر بواسطة آلة نحاسية تعرف بالكركة	٢٣٣	٣١٣
عكــام	ـ من يستخدم عند « المقوّم » في سفر الحاج ليخدم الحجاج	٢٣٩	٣١٨
عــلاف	ـ من يبيــع أصنــاف الحبوب والتبن والقفف والســلل والسرايج	٢٤٠	٣١٩
عــواد	ـ من يضرب على العود بأصوله المعروفة مع اتقان الانغام	٢٤٣	٣٢٢
غلاييــني	ـ هو صانع الغليون	٢٥٢	٣٣٠
قبــاني	ـ هو من يزن بالقبــان الاشياء الثقيلة التي لايرفعها الميزان البــلدي	٢٧٠	٣٤٧
قربــي	ـ هو صانع القرب وغيرها	٢٧٣	٣٥٠
قباقيبو	ـ من قباقيبي صانع القبقاب	٢٧١	٣٤٨
قصــاص	ـ من يقص شعر الــدواب في زمن الربيــع	٢٧٧	٣٥٥

الكنيـة	النشاط الاقتصادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
قشاش	ـ مـن يحترف « القشاشة » وهي حرفة من حرف الفلاحة لجمع السنبل الساقط أثناء الرجـاد	٢٧٥مكرر	٣٥٣
قصيباتي	ـ هو صـانع الأقصـاب وهي أعواد من شجر اللوز	٢٨٠	٣٥٦
قصـاب	ـ هو الجزار واللحام	٢٧٨	٣٥٥
قضماني	ـ هو صانع القضامة	٢٨١	٣٥٦
قطـان	ـ هو بائع القطن وتاجره	٢٨٤	٣٦٠
قنواتي	ـ هو المحافظ على طوالع الماء وسير الدمنة	٢٩٢	٣٦٤
قواص	ـ هو من يخدم القنـاصل من الاجـانب الموجودين خدمـة خاصة لذاتهم وحرمهم	٢٩٥	٣٦٨
قاووقجي	ـ هو صانع القواويق ، وهـي لباس للرأس	٣٠٣	٣٧٣
محـايري	ـ هو من يصنع «المحاير» وهي من الخشب على صفة سرير تعمل محامل للحجـاج عند سفرهم	٣٤١	٤٢٠
مرادني	ـ من يصنع المردن	٣٤٨	٤٢٦
مسالخي	ـ حرفـة من متعلقات حرفـة القصابين	٣٥٩	٤٣٧
مسـدي	ـ من متعلقات حرفة الالاجة	٣٦٣	٤٤١
نجـار	ـ من يعمل في أصناف الخشب	٤٠٨	٤٧٨
نشواتي	ـ هو صانع النشـا	٤١٣	٤٨٢

الكنيـة	النشاط الاقتصادي الخالق لها	الرقم	الصفحة
ماشطـة	ـ هي الداية والقابلة يطلق عليها هذا اللقب ليلة زفاف الزوجة الى بعلهـا	٣٣٣	٤٠٨
منجـد	ـ هو من يخيط اصناف وجوه المفروشات البيتية	٤٠٢	٤٧٣
معصراني	ـ مستثمر المعصرة	٣٨٠	٤٥٦
نويلاتي	ـ من يصنع آلة النول	٤٢٤	٤٩١
هواويني	ـ بائع الهواون	٤٢٦	٤٩٢
وتار	ـ هو من يصنع الاوتار	٤٢٧	٤٩٤
وقاف	ـ من يستخدم فيمزارع الاغنياء ويكون له معرفة تامة في أمر حرث الأرض وتهيئتها للزرع	٤٣٠	٤٩٦
وراق	ـ المجلد قديما وقد يطلق الآن على بائع الظروف	٤٢٨	٤٩٥

هذه الكنى التي تحافظ عليها ونكنى بها ، ونقرنها الى اسمائنا عند كل توقيع ، وتحفظها الأوراق الشبوتية ، لم تأتنا بفعل مرسوم أو دستور أو قانون . بل أتت ، في غالبها الأعم ، نتيجة الصدف ، ونتيجة ارادة الآخرين لا إرادتنا ، ونشأت مع الزمن ، وتطور استعمالها مقرونة الى الشخص المعين، حتى أصبحت كنية له يشتهر بها في حياته وتنتقل الى أولاده من بعده عن طريق الوراثة . وليس كل التصاق للكنية بالمكنى مؤد لامحالة الى غلبةالكنية عليه واشتهاره بها. فقد يكني شخص شخصاً آخر بكنية ويكررها ، ولكنها لاتغلب عليه بالنسبة الى الآخرين ، فيبقى استعمالها منوطاً بشخص مكنٍ أو عائلة مكنّية ، ثم ماتلبث أن يضعف أمرها ويتلاشى . لهذا لابد في اكتساب الكنية من اشتهارها بين الناس ، وقبولهم بها ، وتكرارهم إياها تكراراً نظامياً ، وفي كل مرة يدعى الشخص المعني بها . وقد يحمل الانسان كنيتين في وقت واحد ، كنية قديمة واخرى جديدة ، ويبقى الأمر كذلك الى حين يغلب اشتهاره بأحداهما على اشتهاره بالأخرى . كما قد يكون اكتساب الكنية بفعل ارادي احياناً ، عندما يلجأ المرء الى المحكمة ويطالبها بتغيير كنيته الى كنية جديدة لسبب من الاسباب . وهنا تكتسب الكنية الصفة القانونية الناجمة عن قرار المحكمة .

لقد القى قاموس الصناعات الشامية الضوء على قضية الكنى وعلى قضية ارتباطها في حالات كثيرة بالنشاط الاقتصادي الذي مارسه رب الأسرة المكناة . وهو في هذا قدم لنا خدمة هامة بين خدماته الكثيرة .

النشاط الاقتصادي
والديانة والعرق والجنس

في القاموس التفاتة هامة الى ربط النشاط الاقتصادي بالديانة والعرق والجنس . وإذا كان من المفروض في كل بلد أن يكون النشاط غير خاضع لأي لون من الألوان المذكورة ، فان واقع البلد الذي نتحدث عنه ، فرض نفسه ، وأوجد هذا التمايز في النشاط حسب الدين او العرق او الجنس . ووجود هذا التمايز يعني ، فيما يعنيه ، ان النشاط يخضع الى هذا الحد أو ذاك ، لعامل الوراثة ، وعامل المحافظة على أسرار النشاط في حلقة معينة حتى لايتسرب الى حلقات أخرى . أو أن مجتمع الاكثرية رضي بالتنازل عن ممارسة نشاطات معينة لفئات أخرى يعتبرها في منزلة ثانية بالنسبة الى منزلة الاكثرية . إن التفاتة القاموس الى هذه الأمور وضع امامنا لوحة عن شامنا بين عامي ١٨٩٠ ــ ١٩٠٧ لنقارنها بشامنا الحديثة فيما يتعلق بارتباط النشاط بتلك العوامل ، ولنرى التطور الذي أصابنا فيها لمعرفة المسيرة في العمل فيما اذا كانت تتجه نحو تكريس الفوارق فيه ؟ أم نحو التبدل ولكن بتغيير اتجاهات دينية وجنسية وعرقية باتجاهات أخرى ؟ أم نحو الممارسات الحرة والمساواة التامة في العمل بغض النظر عن الدين أم الجنس أم العرق . وهو الأمر الذي نبتغيه ونعتقد انه الأمر الصحيح .

لقد أورد القاموس ، في مجال ربط النشاط الاقتصادي بالديانة ، عدداً من النشاطات التي انحصرت ممارستها أو كادت بفئة دينية معينة . كما أورد عدداً من النشاطات التي مارستها فئتان دينيتان ، أو أكثر من فئتين .

وفيما يلي جدول يبين أهم النشاطات التي كانت وقفاً او شبيهة بالوقف على النصارى :

النشاط	درجة الممارسة	الرقم	الصفحة
البنـاء	غالب صناعها في الشام نصارى بل كلهم إلا النادر(٤٠)	١٩	٥٥
ترجمـان	المستعدون لهذه الحرفة النصارى عندنا في الشام	٣٠	٦٩
جوخي	الجوخ المنقوش الملون غالب من يبيعه النصارى الخياطون	٤٩	٨٥

(٤٠) اغلب الايرادات هنا من القاموس .

النشاط	الممارسون	الرقم	الصفحة
حلاق	غالبهم نصارى	٧٠	١٠٣
خياطة على المكنة	فالآن جميع النصارى الخياطين ، سيما الذين يخيطون ثياب الحكومة ، من العسكرية والمالية وغير ذلك من البناطي وغيرها ، لايخيطون إلا بها غالباً	٩٨	١٣١
صائغ	لايتعاطاها في شامنا سوى النصارى في محل مختص بهم يطلق عليه اسم « الصاغة »	١٨٨	٢٦٤
قنواتي	(رعاية اقنية الماء) لايتعاطاها إلا المسيحيون ولهم بها مهارة تامة	٢٩٢	٣٦٥
نحات	من ينحت الأحجار . وأصحاب هذه الصنعة بدمشق أغلبهم مسيحيون	٤٠٩	٤٧٩

أما النشاطات التي كانت وقفاً أو شبيهة بالوقف على اليهود فيوضحها الجدول التالي :

النشاط	تعريفه	الممارسون	الرقم	الصفحة
جوخي	بائع الجوخ	ما كان بالوان بسيطة كالاسود والازرق والاحمر وغيرذلك فغالبا من يبيعه اليهود في سوق الخياطين عندنا في الشام	٤٩	٨٥
حلاق	من يحلق الشعر من الراس والوجه بالالة المعلومة وهي الموسى	اهل هذه الصنعة من غالب الملل المسلمين والنصارى واليهود وغالبهم نصارى	٧٠	١٠٣
حوار	من يبيض الجدران بالحواري	هذه الصنعة يشتغل بها بعض المسلمين وفقراء اليهود		
بويهجي	من يمسح ويطلي اصناف النعال بانواع البوية والزيوت	غالب اصحاب هذه الحرفة من فقراء اليهود الشبان	١٤٩	٢٢٠
خرقي	من يحترف لقط الخرق من المزابل واقنية البيوت والحارات	المتهن بهذه الحرفة القذرة هم اليهود خاصة عندنا	١٥٥ مكرر	٢٣٠
سمكري	تنكجي	غالب اصحابها من اليهود	١٦٢	٢٣٩
صيرفي	من يبدل اصناف العملة حسب رغبة الطالب	هذه الحرفة لايتعاطاها في بلدنا إلا اليهود	٢٠٤	٢٨٠

النشاط	تعريفه	الممارسون	الرقم	الصفحة
قنياطي	معزل الخوارج	لا يحترف بها بدمشق الا اليهود ولهم بها خبرة تامة	٢٩٣	٣٦٦
كباريتي	بائع الكبريت	من اليهود فرقة يصنعونه بدمشق ولكنه غير متقن	٣٠٧	٣٨٢
مرابي	من يقرض الناس بالزايد	كانت هذه الحرفة بدمشق قبلا قليل محترفوها الموسويون وغيرهم والآن مما عمت بها البلوى ، نسأل الله السلامة ، فقد أصبح كثير من الناس على اختلاف مللهم ، يحترفون بهذه الحرفة الخبيثة	٣٥١	٤٢٩
نقاش	من ينقش اصناف الاواني وذلك علب دقها عندالنحاس واتمامها	لايتقنها بدمشق سوى طائفة من اليهود	٤١٩	٤٨٦

هذا ولم يبين القاموس فيما اذا كان المسلمون قد اختصوا بممارسة بعض النشاطات الأخرى ، وقد تركنا نستوحي بأن الميادين المتبقاة من النشاط انما تمارس من قبل مختلف الطوائف الدينية .

اما النشاط حسب العرق فقد أورد القاموس لنا صورة بسيطة موجزة عنها ، تعطينا فكرة دون أن تشفي غليلاً . والجدول التالي يبين بعض هذه النشاطات :

النشاط	التعريف	الممارسون	الرقم	الصفحة
غرابيلي	صانع الغربال والمنخل ايضا	هذه الصنعة مختصة بصنف (النّور) المعروفين بالقبط	٢٤٦	٣٢٧
راعي	راعي المواشي	والراعي للغنم غالبا لايكون الا من الاكراد غير المتمدنين الذين اذا رأيتهم حسبتهم وحوشا وتعيش منها قبائل من الاكراد	١١١	١٥٢
سائس	من يخدم الدابة	غالبهم مصريون	١٣٢	١٧٦
كبابجي	شوا الكباب	يوجد بعض العجم في دمشق يتعاطون عمل شواء اللحم المعروف بالكباب العجمي	٣٠٨	٣٨٢
مجلخ	من يصلح ماتثلم من السكاكين والامواس والمقاريض	الذين يتعاطون هذه الحرفة بدمشق هم فقراء الافغان المتوطنون	٣٣٧	٤١٦
مكبّاتي	صانع المكبات (مايشبه النملية)	المحترف بهذه الحرفة في الغالب هم فقراء الاكراد والفلاحين	٣٩٢	٤٦٧

النشاط	تعريفه	المارســون	الرقم	الصفحة
نطّــاع	من يصنع النطع (طبق القش)	يتقنها جداً فلاحو الجراكسة مــن أعمال قضاء القنيطرة	٤١٥	٤٨٥
جميدي	من يرقص القرود او الدب	هؤلاء من القبط المعروفين بالنّور	١٥٤	٢٢٨
زمار	من يغني بالقصب	الزامر يقال له جعيدي	١٢٨	١٦٨
طبال	ضارب الطبل	الذين تفردوا باتقانه هم القبط المعروفين بالنّور	٢١٠مكرر	٢٨٨

وأما توزيع النشـاطات حسب الجنس فقد أورد القاموس بعضاً منها نورد اهمها فيما يلي :

النشاط	تعريفه	المارســون	الرقم	الصفحة
اسطة	اسطة الحمّام	وهي امراة تغسل راس النساء بالحمام باجرة مخصوصة	٦	٣٧
بلانــة	من تخرج الاوساخ من ابدان النساء	امراة في حمام النساء	٦	٣٧
كبابة	التي تكبّ الخيطان	عمل نسائي بالدرجة الاولى	٨	٣٩
حبال	من يصنع الحبال من القنب	نساء ورجــال	٥٤	٩٠
دايــة	امراة عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد	خاصة بالنساء في غالب الامر	٩٩	١٣٤
التطريز	ما يشغل على الرسم	غالب هذه الاشغال الآن هي من حرف النساء المخرجــات مــن المدارس الرسمية يشتــرك في الحرفة الرجال والنساء	١١٤	١٥٤
شوار	جامع ثمر المشمش والزيتون	الرجــال والنساء	١٨٣	٢٦٠
شوا الذرة	—	رجال ونساء	١٨٥	٢٦١
عشا	الطبــاخ	أكثر آهالي دمشق يستخدمون العشيات من النساء	٢٣١	٣١١
غزالة	هي من تغزل الصوف	حرفة تتعيش منها الكثيرات مــن النساء الفقيرات	٢٤٨	٣٢٨
غسالة	غسل وتنظيف الثياب	مختصة بالنساء الفقيرات	٢٥١	٣٢٩
فــراء	مــن يتجر بالفرو ويتقن خياطته ولصقه ببعضه	يوجد في دمشق بعض نساء يتقن صنعة خياطة الفرو ولصقه على الوجه يتعيّشن من كسبه	٢٦٠	٣٤٠
قاووقجي	صانع القواويق	وكان للف الربطــة واتقانهـــا نساء معروفات يربطن بها المناديل بعد طيها طيــا خاصاً وشكلها بدبابيس وصرف وقت كبيــر في هندستها	٣٠٣	٣٧٨

	تعريفه	المارســون	الرقم	الصفحة
كبابة الحرير	كبّ خيطان الحرير	هذه الحرفة مختصة بالنساء	٣٠٦	٣٨٢
محمرة	تحمير غصون الكروم	من حرف الفلاحة وتختص بالنساء	٣٤٢	٤٢١
مرضعة	هي التي ترضع الاطفال	يتعيش بها بعض النساء	٣٥٢	٤٣٠
معشبة	تعشيب المزروعات	من حرف الفلاحة تختص بالنساء	٣٧٩	٤٥٥
مقبّتة	مداوية القرع	لم يزل اناس يحترفونها وغالبهم من النساء	٣٨٦	٤٦٢
ممسدة	تدليك بطن الطفل	بعض النساء بدمشق اتخذن هـذه الحرفة لهن مهنة ومعاشا	٣٩٦	٤٦٩
نقاشة	التي تنقش ايدي وارجل النساء	من حرف النساء	٤٢٠	٤٨٧

هذا الجدول البسيط يعطينا فكرة عن مشاركة المراة الرجل في العمل حتى في تلك العهود التي كانت فيها نظرية عزل المراة عن الرجل في العمل ، وقصرها على الحياة في بيتها ، هي السائدة ، وكان الجهل والجمود ، وتسلط الرجل تبلغ فيها شأواً بعيداً . صحيح ان الجدول المذكور لايعطينا صورة كـاملة عن ميادين عمل المراة ، ولا يبين لنا مدى اعداد النساء والفتيات العاملات . ولكنه مع هذا يبين لنا أن المراة كانت تعمل في المنزل وغير المنزل ، في الميادين المنتجة وميادين الخدمات . كانت تعمل كبابة ، وطرازة ، وغزالة ، وفرايـة ، كما كانت تعمل في الحمام ، معلمة وبلاّنة واسطة ، وفي بيوت الأغنياء خادمـة ، وطباخة ، وغسالة . وتعمل في مجال الزراعة شوارة ، ومحمرة ، ومعشبة ، ... الـخ .

وهذا عدا عن اعمال كثيرة اخرى كالقابلة والمعلمة ، والنساجة والحاصدة ، والدارسة ، وفي صناعة الحرير الطبيعي ... الخ مما لم يرد ذكرها في الجدول . وإذا تذكرنا أن صناعة النسيج كانت احدى الصناعات الأساسية في البلاد ، وأنها كانت تشغل عشرات الوف العمال والصناع على النطـاق السوري وأن المراة كانت عنصراً هاماً جداً في هذه الصناعة ، أدركنا مدى انتشار العمل النسوي في مجـال انتاجي واحد ، بله الاعمال الانتاجية الاخرى سواء في مجال التخريم أو التطريز أو شغل السنارة أو الاعمال الزراعية أو في ميدان التعليم أو في ميدان الصحة ... الخ .

كانت حاجة المراة الاقتصادية تدفعها الى العمل ، والى تجاوز كثير من العوائق ، وخرق كثير من العادات البالية . وكان الرجل سواء أكان رب عمل أو

زوجاً أو أخاً أو ابناً ، يريد ، في الكثير ، من الاحيان ، عمل المرأة لتستطيع المشاركة في إعالة العائلة ، ولتسد بعملها حاجة من الحاجات التي تفرضها ضرورات العيش ، في اقتصاد متخلف ، ضعيف الانتاجية ، بدائي وسائل الانتاج، واسع الاستثمار .

◆

◆ ◆

إن التفاتة القاموس الى ربط العمل بالاتجاه الديني والعرقي والجنسي هي التفاتة هامة تهم الباحث الاجتماعي والاقتصادي معاً . ولم يسبق لاحد ، عند علمنا ، بين كتاب التراث ، من اهتم بهذا التفريق على صعيد العمل . وهي ميزة انفرد بها القاموس . وهي تبقى ميزة ، مهما كان أثر الالتفاتة ضيقاً محدوداً .

ادوات العمل
ومراتب العاملين وتقسيم العمل وتشابكه

عندما تحدث القاموس عن « الصناعات الشامية » تحدث بلغة الفاعل المباشر للعمل ، كالحجام ، والحداد ، والحلاق ، والاسكافي والآلاجاتي .. لا باسم « الصناعة » ذاتها وعملها : كالحجامة، والحدادة، والحلاقة، والحياكة.. كما لم يحاول القاموس أن يدرس العمل ذاته ، ومراتبه ، وتنظيمه ، وانتاجيته. وكل مافعله هنا ، وفي احيان نادرة ، انه تحدث عن بعض مراتب العاملين في هذا النشاط أو ذاك .

ثم ان القاموس لم يختط في عمله ، من حيث المبدأ ، اظهار أدوات العمل التي يعتمدها كل نشاط مع أهمية هذا البحث . بل كان يصف الفاعل المباشر ، ويتطرق بعد ذلك الى النشاط . وقلّ كثيراً أن يظهر كل اداة متخذة في النشاط المبحوث . وإذا ذكر شيئاً فانما يذكر بعض الأدوات ، وفي أحيانٍ نادرة ايضاً . وهو يذكرها دون الاهتمام بمنزلة النشاط ذاته . انه لايبحث ، تقريباً ، شيئاً عن أدوات العمل في نشاط يشكل اساساً من أسس الحياة الاقتصادية ، كالحياكة مثلاً ، التي تحدث عن آلتها الأساسية بقوله فقط « وآلتها يقال لها « النول » أو « المنوال » . في حين قد تحدث عن أدوات البيطار بتفصيل ، وعدد انواعها وذكر صفاتها ، وابان العدد اللازم منها ، مع أن منزلة البيطرة الاقتصادية لاتقاس بمنزلة الحياكة ، لامن حيث الاتساع ، ولا من حيث عدد العمال ، ولا من حيث عدد الانوال ، ولا من حيث مساهمتها بالدخل الوطني ...

هذه الطريقة في المعالجة تدل على ان القاموس لم يدرك ، كل الادراك ، اهمية أدوات العمل في الانتاج والانتاجية ، والحياة الاقتصادية ، ومن ثم في الحياة الاجتماعية وما شابه ذلك . لم يدرك اهميتها في تطوير المجتمعات أو في تخلفها ، ولو أدرك هذا لكان اهتمامه باظهارها وتعدادها ومقارنتها مع الجديد فيها ، أعظم وأكبر .

وسنحاول فيما يلي استعراض أدوات العمل التي تطرق الى ذكرها القاموس في النشاط المبحوث ، وتقسيم العمل في النشاط إذا وجد ، مع اظهار تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى اذا توفر .

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفـــه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
أتوني	٢	٣٤	نسبة الى الاتون	الاتون	–	للبنـاء ، للحمامات النورة
أشناني	١٤٣	٢١٦	هو بائع الاشنان	طاحونة الاشنان	–	–
آلاجاتي	٨	٣٩	معـلم الحرفـه وراسـها ومديرها وبائعها والمتجر بهـــا .	–	معلم، صانع، أجير	كبّابـة ، فتـال ، مسدّي ، صباغ ، ملقـي ، مزايكـي ، حائك ، دقاق .
بقاجاتي	١٢	٤٥	من يصنع الرقاق من العجين الابيض صانع الحلوى.	نشابة ، صواني ، مقشة ، سكين فرن	–	–
بـني	١٨	٥١	من يبيع البن المدقوق .	محمص ، جرن ، مدقة ، مناخل	–	–
تنوري	٣٢	٧١	من يخبز الخبز في التنور.	تنـور		
جرادقي	١٥٣	٢٢٧	بائع الجرادق .	صاج ، مقلي ، اقفاص قصب	–	–
جلبلجي	٤٨	٨٤	بائع الجـلاب .	مدقة ، أوعية ، حقاق ، كاسات	–	–
حائك	٥١	٨٦	صانع الحياكة .	النـــول	معلم، صانع، اجير	–
حبـال	٥٤	٩٠	صانع الحبال .	مستنقعات ، مشط حديد، دواليب مخصوصـــة .	–	–
					معلم ـ آجير	افران الخبز، الكلاس قنابة .
حـداد	٥٨	٩٣	من يعالج الحديد .	كور ، كـير	ـ منهـم من يختص بصنع آلات العربة. ـ منهم مـن يختص بصنع آلات الحراثة منهـم مـن يختص بصنـع الجنازيـر للخيل .	– – –

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	ادوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
					ـ منهم مـن يختص بصنع آلات النجارة	ـ
					ـ منهم مـن يختص الكوانين والصوبات والطبابيخ	ـ
					ـ منهم مـن يختص بصنع الغالات .	ـ
حصري	٦٥	٩٨	صانع الحصر .	نول خاص		
حلاج	٦٩	١٠٢	من يحلج القطن .	محلجة بدائية محلية الصنع (دولاب)	ـ	ـ
حمصاني	٧٧	١١٤	من يبيع الحمص المطبوخ والهيا للاكل .	مدقة حمص ، وعاء ، قلاية	ـ	ـ
خباز	٨٥	١٢١	من يخبز الخبز بالنار(فران)	فرن	رئيس (المعلم) مقرص ـ عجان مبشكر ـ آجير	طحانة ، وقود
خشيفاتي	٩٠	١٢٥	بائع الخشاف في الصيف	مدقة ، قدر ، اداة تحريك ، حلل ، بواطي ، سطول صغيرة .	ـ	ـ
خضاض السمن	٩٢	١٢٦	من يخض السمن بالاجرة	ظرف جلد	ـ	حلاب وسمانة
خياط	٩٨	١٣٠	يفصل المنسوج ويصنع الثياب	مقراض ، آلة خياطة ، هنداسة ، ابرة ، كشتبان ، دف املس للتفصيل ، مكواة حديد .	ـ	ـ

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيم العمل	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
دباغ	١٠١	١٤٠	من يتعاطى حرفة الدباغة	أحواض نقع ، الواح خشبية على شكل نصف دائرة ، سيبة ، سكينـة دباغين ، أو آلات مخصوصة مستوردة .	الغسال ، الشلاح	جامع براز الكلاب ، بوايكي
دهان	١٠٨	١٤٨	من يزين ويزخرف وجوه الجدران والحيطان بالصبغ والنقوش بالالوان	أوعية ، فراشي وريش	ـ	ـ
رواس	١٢١	١٦٠	بائع الرؤوس المطبوخة .	حلل	ـ	الذباح
زجاج	١٢٤	١٦٣	صانع الزجاج .	فرن وانابيب نفخ ومقصات	ـ	ـ
سكاب	١٥٩	٢٣٧	من يسكب النحاس بقوالب مخصوصة	قوالب ، فرن ، بوتقة	ـ	ـ
سمكري	١٦٢	٢٣٩	من يلحم التنك	كانون ، مكاوي ، مقص	ـ	ـ
شربتجي	١٧٥	٢٥٢	بائع المشروبات	ـ صاحب حانوت: كاسات، كراسي، طاولة . ـ دائر في الاسواق : حق ، كاسات.	ـ	ـ
شقيفاتي	١٧٩	٢٥٧	صانع شقوف الزريعة	قوالب ، فرن	ـ	ـ
شوّاء اللحم	١٨٤	٢٦٠	من يشوي اللحم في الاسواق.	طاولة أواني للماء ، كاسات ، كراسي ، آسياخ ، سكاكين ، وجاق .	ـ	ـ
شواء الذره	١٨٥	٢٦١	من يشوي الذرة النيئة .	كانون ، ملقط ، مروحة .	ـ	بائع الذرة النيئة ، والفحم والكوانين ، والمراوح

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيم العمل	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
صائغ	١٨٨	٢٦٤	من يعمل في الذهب والفضة وأصناف المعادن ويغيره من صفةالى صفة حسب رغبة الطالب .	مكاوي، بوتقة، منفاخ، فرشايات وما يلزم للحام الفضة والذهب.	–	–
صبان	١٩٢	٢٦٨	صانع الصابون وبائعه	أوعية ، اداة تحريك ، منبع ناري، حصير ، سكين .	–	–
صناديقي	١٩٧	٢٧١	من يعمل صناديق الخشب ، والسكملات وامثالها ، ومن يعمل في الصدف .	الريشة ، مبارد ، مفراية .	–	–
ضرضرمجي	٢٠٥	٢٨٢	بائع الضرضرمة	الطلنبه الكبيرة ، علبة خشبية كبيرة ، طلنبات صغيرة .	–	–
طباع	٢١٠	٢٨٧	طابع أصناف الالوان على الاقمشة بواسطة قوالب	قوالب .	–	بائع أوصانع الاقمشة غير المطبوعة .
طابع كتب	٢٠٨	٢٨٦	من يطبع الكتب .	مطبعة حجرية .	–	–
طحان	٢١٢	٢٩٠	من يطحن الحبوب .	اوعية تصويل ، طاحون ، عدول. مكنات تطريز .	–	–
طراز	٢١٤	٢٩٢	طابع الحرير بالقوالب ثم مطرزها.	كراسي ، طاولة ، كاسات ، قرب،	–	–
عرقسوسي	٢٢٨	٣٠٨	صانع وبائع شراب السوس	سطول .	–	–
عطري	٢٣٣	٣١٣	صانع العطور	الكركة .	–	–
عقاد	٢٣٤	٣١٣	صانع منتجات خيطان الحرير والصوف والقطن والشرايط .	– على النول – على دولاب السجق – وعلى دولاب الشغالات	معلم وصانع	–

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيم العمل	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
عكلجي	٢٣٦	٣١٥	بائع العكل .	سداية ، قوالب ، مدقة .	ـ	ـ
عواماتي	٢٤٤	٣٢٣	صانع العوامة وبائعها	مقلاية ، ملعقة خشنة ، منبعناري، آوعية ، طاولة ، صحون ، كراسي ، سراحيات ، كاسات.	ـ	ـ
قالاتي	٢٤٥	٣٢٦	من يصنع المفاتيح المسماة بالسواقط والقالات والمفاتيح والاقفال	شواكيش ، مبارد ، كماشات ، مفاتيح رزز ، دقورة .	ـ	ـ
غزالة	٢٤٨	٣٢٨	غزل الصوف	مغزل ، دولاب غزل .	ـ	ـ
غلاييني	٢٥٢	٣٣٠	صانع الغليون	قالب ، فرن للشوي ، فراشي دهان .	ـ	ـ
فتال	٢٥٥	٣٣٤	من يفتل الحرير	كوفية ، مواسير ، دولاب ، شك الدولاب ، جلخ ، الدست ، دولاب كبير .	ـ	ـ
فرام التتن	٢٥٨	٣٣٧	من يفرم التتن بواسطة آلة	آلة فرم تسمى الهاون .	ـ	ـ
فوال	٢٦٦	٣٤٤	بائع الفول المدمس ومحضره	جرة ، تنور الحمام ، اواني ، صحون، طاولة، سراحيات ماء، كراسي .	ـ	ـ
قساطلي	٢٧٣	٣٥١	صانع قساطل الفخار	قوالب ، فرن شوي .	ـ	ـ
قصار	٢٧٦	٣٥٣	من يقصر القماش	كيله بعصاة طويلة .	ـ	ـ
قضماني	٢٨١	٣٥٦	صانع القضامة والبلورات	محمص ، منبعناري ، اداةتحريك.	ـ	ـ
قطيفاني	٢٨٢	٣٥٧	صانع القطايف والكنافة	صينية ، منبع ناري ، مسكب ، ـ طبق قش ، مجروود .	ـ	ـ
					ـ	ـ
قمرجي	٢٨٩	٣٦٣	صانع القمرات (نوافذ) قديما والآن بائع البللور	ماسة	ـ	ـ

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفـــه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
كبابة الحرير	٣٠٦	٣٨٢	تحل الحرير وتفرقه الى انواع وتصنع كل نوع على حدة ، وتلفه	كوفيه	–	–
كبابجي	٣٠٨	٣٨٢	شواء اللحم	كما في حرفة الشواء .	–	–
كنيفـاتي	٣٢٠	٣٩٤	صانع الكنافـة	جوزة ، صدر نحاس ، منبع نار.	–	–
مجـلد	٣٣٨	٤١٦	مـن يجلد أصناف الكتب والدفاتـر	مكبس ، مقراض ، مبرد .	–	–
مخللاتي	٣٤٤	٤٢٣	صانع المخللات	خوابي ، دواب ، علب ، فرش خشـبي .	–	–
مسدي	٣٦٣	٤٤١	من متعلقات الالاجـا	آلة التسدية (العست) دوارة خشب .	معلم ، صانع، اجير	–
مصور	٣٦٩	٤٤٥	ما ياخذ كل صورة متحركة أو ثابتـة بواسـطة الفوتوغراف	آلـة تصوير .	–	–
معـالك	٣٧٧	٤٥٤	من يصنع القمر الدين	تيغار ، مصفاة ، دفوف .	–	–
معصراني	٣٨٠	٤٥٦	مستثمر المعصرة	معصرة	–	–
ملبنجي	٣٩٣	٤٦٨	صانع الملبن	خيطان ، منبع ناري ، طنجرة ، طبق خشب .	–	–
ملقي	٣٩٥	٤٦٨	من متعلقات حرفة الالاجا	النير ، مشط ، سكين خاصة .	–	–
منجـد	٤٠٢	٤٧٣	من يخيط أصناف وجـوه المفروشات البيتية	قوس المنجد ، مدقة .	–	–
نشار	٤١٢	٤٨١	من ينشر أنواع الخشب	سقالة ، خيط ، منشار كبير .	–	–
نشواتي	٤١٣	٤٨٢	صانع النشا	مدرس ، دابة ، طاسات ،	–	–

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
نقار الطواحين	٤١٨	٤٨٦	من يصلح ما فسد من حجارة الطاحون	شاقوفه	—	—
نقاش	٤١٩	٤٨٦	من ينقش أصناف الاواني	ازميل .	—	—
وتار	٤٢٧	٤٩٤	صانع الاوتار	قصعة ، مائدة ، سكينة ، كشتبان نحاسي على شكل القمع .	—	—
بنـاء	١٩	٥١	من يبني الجدران والامكنة والدور والمنازل والبيوت	بناء لبن : قالب خشب مربع . بنـاء الدك : لوحان من خشب، حبال ، مدقة خشبية ، كلاس . — تراب أو رمل مع الكلس : لوحان من خشب ، اذرع من خشب ، حبال ، مدقة خشبية .	— —	— —
حواد	٨٢	١١٨	من يبيض الجدران بالحوارى	وعاء لاذابة الكلس ، محراك ، عصا طويلة وفرشاة من شعر .	—	كلاس
طواب	٢١٧	٢٩٤	من يعمل في الطين (السطح ، عدسة — زريقة طـلي الكلس)		—	—
				—	معلم صناع ، مجارفة فعلـة	—

أما في قطاع الزراعة فيعطينا القاموس لمحات عن أدوات العمل نلخصها فيما يلي :

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
حراث	٦١	٩٥	من يحرث الارض بالمحراث	الفدان والسكة .		حداد ، نجار ، تربية الماشية .
حشاش	٦٣	٩٧	بائع الحشيش كعلف للدواب	حمار وخيشة ، منجل .		
دراس	١٠٢	١٤٣	من يدرس الحنطة وغيرها	لوح مخصوص ، دواب جر .		
رشام	١١٥	١١٥	رجل يستاجره ملتزم الاعشار ويسلم الرشم لرشم صبة الغلة حتى لاتسرق	قطعة دف محفورة ، ومنقوش عليها اسم الملتزم .		

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات أخرى
رجاد	١١٦	١٥٥	نقال السنبل الى البيدر أو البطيخ والقنب	دواب وأوعية	–	–
زبار	١٢٢	١٦٢	من يقطع أغصان الكروم	قطعة من حديد .	–	–
سوادي	١٦٧	٢٤٢	الباحث عن الزبالة للبساتين	دابة ، سريجة ، مجرفة .	–	–
شياح	١٨٦	٢٦٢	من يبحث عن الشيح في التربة ويقتلعه ويحمله ويبيعه للفرانين ومعاصر الدبس	دابة ، حبل ، قطعة حديد .	–	–
صياد	٢٠٢	٢٧٦	السمك، الطيور والحيوانات الاخرى	شبكة ، سنارة . بندقية صيد .	–	–
عزاق	٢٢٩	٣٠٩	عزق الارض	المـر	–	–
فراط	٢٥٩	٣٣٨	لقطف الزيتون	عصاة (مفراط) ، سلالم .	–	–
قشاش	٢٥٧مكرر	٣٥٣	لجمع ماسقط من السنبل اثناء الرجاد	قاشوشة	–	–
محمرة	٣٤٢	٤٢١	من يحمر الكرمة	وعاء فخار ، أو نحاسي ، قطع صوف .	–	–
مدري	٣٤٥	٤٢٤	من يخرج الحب من التبن	مدراية ، غربال .	–	–
مسحي	٣٦١	٤٣٨	فاتح المساكب للزراعة بعد الحرث (تهيئة الصيفي)	مسحاة .	–	–
مطعم	٣٧٤	٤٥٢	من يطعم الاشجار	سكين ، خيطان .	–	–
تكاش	٤٢٢	٤٨٩	من جملة حرف الفلاحة لقلع الاعشاب الضارة	نكاشة .	–	–

كما نعثر في قطاع الخدمات على الادوات التالية :

أكار	١٤٤	٢١٦	حافر الانهر وكاريها	مر ، فاس ، مجرفة ، قفة .	–	–

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	التسيمه	التشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
بلانة	١٧	٥٠	دلاكة ومصوبنة	كيس حمام ، ليفة ، طاسة .	–	–
بيطار	٢٣	٥٨	معالج الدواب	مطارق كبيرة ، وسطى ، صغيرة ، مباضع ، كفات ، مماسك ، مبارد ، سنادين ، مكاوي ، كلبات، مزاعط، أميال، مشابح ، مقارض ، ابر ، لنصه .	–	–
بيار	٥٤	٦١	معزل الآبار الحلوة	عصاة طويلة ذات راس حديدي وكلاليب وحبل .	–	–
بويجي	٢٩	٦٩	ماسح أصناف النعال بالبوية	صندوق ، فراشي ، براميل بويه، علب دهون .	–	–
تراس	٢٩	٦٩	حامل الحبوب من القرى الى البايكة ومن البايكة الى القرى	حمار ، عصا .	–	–
جزاز	٣٩	٧٨	من يجز صوف الغنم	مقص	–	–
حارس	٥٢	٨٨	حارس الاسواق والحانات	صفارة	–	–
الحجام	٦٠	٩٢	الحلاق والمزين ومن يمص الدم بالمحجم	محجم ، موس ، كاسات زجاج .	–	–
حزام	٦٢	٩٦	من يتعاطى شد الاحمال بالحزم بالحبال	حبل ، خيش ، اصبع .	–	–
حلاق	٧٠	١٣	من يحلق الشعر والوجه بالموسى	موسى ، مقص ، مرايا ، كازات ، بشاكير ، كراسي ، وقلاطق ،	–	–
حمار	٧٢	١٠٦	صاحب حمير معدة للركوب	حمار ، غلام ، قضيب .	–	–

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	ادوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
حمامي	٧٤	١٠٧	مستثمر الحمام	–	ناطور، تبع،مصوبن قهوجي ، آجير ، وقاد ، زبال .	–
دايـة	٩٩	١٣٤	ممارسة التوليد	كرسي التوليد .	–	–
دقاق	١٠٣	١٤٤	من يدق اثواب الالاجا او اثواب القطن (دريما)	مدقة ، سندان خشبي .	–	–
دلاك	١٠٥	١٤٥	من يدلك ويزيل الاوساخ داخل الحمام وهو غير المصوبن	طاسه ، ليفة ، كيس .	–	–
ذباح	١٠٩	١٥٠	ذابح الغنم والمعز في المسلخ	سكين .	–	–
رشاش	١١٧	١٥٦	من يرش الماء في الاسواق لمنع ارتفاع الغبار	قربة مـاء .	–	–
ركاب	١١٨	١٥٦	من يؤجر حميره مـن مكان الى مكان	حمير ، عصا .	معلم واجير	–
زبال	١٢٣	١٦٣	مشتري الزبل للقميم من خانات الدواب	حمار ، سريجة ، مجرفة .	–	–
سقاء	١٤٠	١٨٥	من يتعاطى نقل الماء ايام انقطاعها عن الدورو سقاية في الاسواق	قربة ماء ، دابة ، سطل من جلد، طاسة ، جرة ،	–	–
طنبرجي	٢١٦	٢٩٤	سائق الطنبر	طنبر ، دابة .	–	–
عجائبك عجايب	٢٢٣	٣٠٢	صندوق الدنيا	صندوق ، مقعد ، سيبا .	–	–
عربجي	٢٢٦	٣٠٥	سائق العربة	عربة ـ خيل ، كرباج .	–	–
عرضحالجي	٢٢٧	٣٠٧	من يكتب العرائض	ورق ، ومحابر واقلام .	–	–

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
عكام	٢٣٩	٣١٨	من آهل الجلد والقوة يستخدم عند القوم في سفر الحجاج يسحب جمل الحاج	جمل ، محارة ، خيم .	—	—
عناب	٢٤٢	٣٢٠	ناقل العنب على حميره	سحاحير ، دواب .	—	—
عواد	٢٤٣	٣٢٢	الضارب على العود	عود ، ريشة .	—	—
قانونجي	٢٦٨	٣٤٦	الضارب على القانون	قانون ، ريشة .	—	—
قهوجي	٢٩٤	٣٦٧	مستثمر القهوة	طاولات ، كراسي ، أدوات لهو ، كاسات ، صواني ، منبع ناري ، غلايات شاي ، ركاوي قهوة ، وفناجين ، ملاقط نار .	اجراء ، صناع ، اراكيلي .	—
كراكوزاتي	٣١٠	٣٨٤	من يلاعب صوراً من جلد على شكل انسان وحيوان	ستارة ، خيالات ، قناديل ، عود ، دربكة .	—	—
كحال	٣١١	٣٨٥	من يكحل العيون المريضة	مكاحل ، أميال .	—	—
كميونجي	٣١٧	٣٩٢	سائق الكميون	عربة نقل ، دواب .	—	—
كناس	٣٢١	٣٩٥	كانس القمامة من الطرقات	مكنسة ، قفف .	—	—
كواء	٣٢٣	٣٩٦	كي الطرابيش والثياب	الطرابيش : قوالب ، منبع ناري ، الثياب : مكاوي ، منبع ناري .	—	—
لوكندهجي	٣٣١	٤٠٥	مستثمر اللوكنده	أسرة ، فرش لحف مخدات وشراشف ، طاولات ، مرايا ، أوعية للماء ، كاسات ، شعرية ، فراشي ، مصابيح ، قلاطق ، كنبات ، كراسي ، غرف طعام ومعداتها ، ومطبخ للطبخ ومعداته .	معلم ، صناع ، عشي ، سفرجي ، خدم	—

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفـــه	أدوات العمل ووسائله	القسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
مبيض	٣٣٤	٤١٣	مبيض الاوانـي النحاسية بالقصدير	منبع ناري ،	—	—
مجلخ	٣٣٧	٤١٦	من يصلح ماتلم من السكاكين والامواس	دولاب جلخ ، مسن .	—	—
مخرس	٣٤٣	٤٢٢	مصلح صحون القيشاني	مثقب ، مسمار نحاس .	—	—
مصوبن	٣٧٠	٤٤٦	من يدلك الابدان والحمام بالكيس والصابون	كيس ، طاسة نحاس ، ليفة .	—	—
مغربل	٣٨٣	٤٥٨	من جملة صناع الطواحين	غربال ، منخل .	—	—
مغسل	٣٨٤	٤٥٩	مغسل الموتى	نعش ، اوعية للماء ، منبع ناري ، طاسـة .	—	—
مقبعـة	٣٨٦	٤٦١	مطببة راس القراع	موسى ، طاقية جلد ...	—	—
مقوم	٣٨٩	٤٦٥	من يتعهـد مشال الـركب الحجازي	جمال ، محارات، صناديق ،خيم، تخوت ، شباري .	عكامة ، غلمـان ، طباخون، سقاية، مهاترة .	—
وقـاد	٤٢٩	٤٩٦	وقاد القميم	حلة نحاس او حديد ، مجرفة .	—	—

واذا تطلعنا الى أدوات العمل ووسائل الاتباع في قطاع التجارة نجد الجدول التالي :

النشاط	الرقم	الصفحة	تعريفه	أدوات العمل ووسائله	تقسيمه	تشابكه مع العمل في نشاطات اخرى
تبان	٢٦	٦٥	من يبيع التبن ويشتريه من مصادره	متبن ، خيش .	–	–
تراب	٢٨	٦٧	من يبيع التراب الاحمر	سريجة ، حمار ، مجارف ، فؤوس	–	–
جباسيني	٣٧	٧٧	بائع الجبس والواح البلور ايضا	منبع ناري، مدرس ، دابة، مدقة، منخل .	–	–
حطاب	٦٦	٩٩	من يقطع الاشجار اليابسة ويبيعها على حالها	حمير ، فراعة ، حبال .	–	–
دباس	١٠٠	١٣٨	بائع الدبس	معصرة ، حلة .	–	–
زيات	١٢٩	١٧٣	بائع زيت الزيتون	دابة ، وحقق ، وكيول .	–	–
صباراتي	١٩٠	٢٦٦	بائع الصبارة	كفوف ، عصاة خاصة ، فرش ، ملقط شعر .	–	–
صوفاناتي	٢٠٠	٢٧٤	بائع الصوفان (انواع من الكبريت)	جسام .	–	–
فاكهاني	٢٥٤	٣٣٣	من يبيع أصناف الفاكهة	جامات للبلور ، رفوف ، ميزان .	–	–
المتعيش	٣٣٥	٤١٤	من يتبضع من التجار ويبيع على دابة أو فرش	فرش خشب ، أو دابة ، ميزان .	–	–

إن استعراضاً شكلياً لحقل أدوات العمل ووسائل الانتــاج في الجداول المذكورة يبين لنا المرتبة التي يحتلها كل قطاع من حيث عدد النشاطات التي ذكر لها أدوات عمل ووسائل انتاج . هكذا احتل قطاع الصناعة الحرفية المرتبــة الأولى (٦٩ نشاطاً) ثم تلاه قطاع الخدمات (٤٥) ، فقطــاع الزراعة (١٧) فالتجارة (١٠) فالبناء والتشييد (٣) . وهنا نتساءل اين ادوات العمل ووسائل الانتاج الاخرى في النشاطات العديدة التي يتضمنها القطاع ذاته ؟ والجواب يبقى ما اشرنا اليه من قبل ، هو ان القاموس لم يهتم ، الا عرضاً ، بذكر أدوات العمل ووسائل الانتاج في هذا النشـاط أو غيره ، وفي هذا القطاع أو ذاك .

اما إذا نظرنا الى جوهر الأمور ، فاننــا لانرى بين أدوات العمل ووسائل الانتاج المذكورة إلا ادوات عمل ووسائل انتاج بسيطة ، ويكاد يكون معظمها من صنع محلي أو حولت مادتها الأولية محلياً ، وذات انتاجية ضئيلة ، ولا تساوى قيمتها ، بالتالي إلا شيئاً بسيطاً ؛ ويتكرر بعضها في اكثر من نشاط واحد . ولا نكاد نعثر بين ادوات العمل المذكورة هنا وهنــاك ، على أدوات ميكانيكيــة معقدة ، إلا نادراً ، كالمكنة المستخدمة في الخياطة والتطريز ، مثلاً ، والتي تضم عدداً من ادوات العمل بعضها يخلق القوة المحركة ، وبعضها ينقلهــا ، وبعضها يحولها الى أدوات فرعية للقيام بعمل فرعي وضروري في وقت واحد كتعبئــة المكوك مثلاً . وبعضها ينقل الحركة الى المكوك لتحركــه في حدود واتجاهــات معينة . وبعضها ينقل الحركة الى الابرة لتقوم بالعمل المطلوب منهــا وهكذا . والقاموس اذا تعرض ، في النادر ، الى مثل هذه الادوات ، فهو لايحاول التعمق في وصفها وذكر ميكانيكيتها رغم انها ذات اثر هام في العمل ، وفي الانتاجية ، وفي اختصار الكثير من اليد العاملة ، وحتى في القيمة . فكل ماقاله القاموس في هذه «المكنة» : « ثم من الآلات التي ظهرت في تلك المدة وانتشرت آلة تسمى «ماكينا» فصارت يستعان لها على الخياطة كثيراً . وهي من اشغال الفرنج ذات دولاب وآلات ، مما يبهر العقول . لكنها يستغنى عنها بشغل اليد ، لكن تلك أسرع بكثير »(٢) . هكذا تحدث القاموس عن الماكنة التي كان لها أثر كبير في مهنة الخياطة ، وقلبها راساً على عقب ، فزادت في الانتــاجية ، وحسنت نوعيــة العمل ، وقللت من استخدام اليد العاملة ، واكتسحت لذلك مجال هذه المهنة ، لتصبح اداة أساسية في عمل الخياطة والمنافسة ، محطمة المؤسسات التي لاتستخدمها ، ومزيدة في ثراء وقوة المؤسسات المستخدمة لها ... الخ .

---

(٢) القاموس ص ١٣١

وما قيل في « المكنة » « المبهرة للعقول » يقال أيضاً في أدوات عمل الدباغة : فقد ألمح القاموس الى أن بعض المنتجين « يستغني عن هذه الأفعال كلها بآلات مخصوصة حدثت في بلاد الغرب ، فيتم امر دبغ الجلود لها بيومين او ثلاثة بدلا عن الثمانية أيام أو العشرة » . هنا أيضا لم يحدثنا القاموس عن هذه الآلات وميكانيكيتها ، ونوعية انتاجها ، والتناسق والتكامل بين اعمالها ، وقيمتها. وكل ما لمح اليه هو الفارق في الانتاجية ، حيث يتم أمر دبغ الجلود فيها بيومين أو ثلاثة بدلا من ثمانية أيام أو عشرة .

شيء آخر لا بد من قوله في هذا المجال هو أن القاموس لم يحفل بذكر أدوات عمل ووسائل انتاج كان لها اثر كبير في تطور الانتاج والنقل والحياة الاقتصادية والاجتماعية كالخطوط الحديدية مثلا . فالخط الحديدي لم يذكر في القاموس أكثر من مرة ، وبشكل عرضي تماما ، في فقرة المكاري ، رغم اقرار القاموس ، بشكل غير مباشر ، بأهمية هذا الحدث على الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فهو اثر ، بالدرجة الاولى ، على حرفة المكاري ، وجعلها كاسدة بعد أن كانت من قبل رائجة جدا ، مع ما سبب هذا من ضيق حال المتعيشة من الأهالي ، .. والتجار ، والبوايكية ، والعلافة ، والخاناتية ، وهم الذين ارتبط دخلهم ، الى حد كبير ، برواج حرفة المكاري . لقد كان في دمشق يومياً ما لايقل عن ٢٠٠ مكار أو أكثر ، ولدى كل واحد خمس الى عشر دواب . وهي بحاجة الى طعام وشراب ومبيت يومي ، والى الاكساء بين حين وآخر . وهذا فضلا عن الحركة التي كان يخلقها وجود هذه الدواب ، من تسوق المنسوجات والمأكولات وغيرها من دمشق لبيعها في البلاد والتي يقصدونها أملا بربحها القليل . وعدا عن حركة نقل السلع والاشخاص من مكان الى مكان(٣) . كل هذا تغير ، الى حد كبير ، بمجرد سير قاطرات الخط الحديدي ، وقيام هذه القاطرات بنقل السلع والأشخاص من هذا المكان الى ذاك . ورغم هذا التغيير الكبير الذي أحدثه « الشمندفير » فان هذه الآلة لم تكن لتحظى بأية التفاتة خاصة من جانب القاموس . علماً بأن أول خط حديدي مد في سورية كان خط يافا ــ القدس الذي وضع موضع الاستثمار عام ١٨٩٢ ، أي في مطلع وضع القاسمي الاب للجزء الاول من قاموسه . ثم تلاه خط دمشق مزيريب الذي انشاته شركة بلجيكية عام ١٨٩٣ . وتلا ذلك خط دمشق بيروت الذي استثمر منذ عام ١٨٩٥ . كما وضع خط رياق ــ حماه موضع الاستثمار عام ١٩٠٢ ، وحماه حلب عام ١٩٠٧(٤) .

---

(٣) انظر ص ٤٦٦ .

(٤) راجع كتابنا اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية ص ٥٢ ــ ٥٣ .

يطول سنين عديدة ، حتى لو اكتسب جانباً هاماً من المعرفة والخبرة . وهو محل استثمار الصانع والمعلم على السواء . ومجبر على اطاعة أوامرهما وتنفيذ رغباتهما . وغالباً ما يكون عمله في المراحل الأولى ، دائراً في نطاق الخدمات الشخصية أو العائلية لكل من المعلم والصانع . ولهذا فهو يستشعر العداء الطبقي الغامض ضد معلمه وصانعه معاً ، وقد يتضامن اذا كان واعياً مع صانعه ضد معلمه في معركة الأول ضد الأخير .

واما التخصص في العمل داخل النشاط الواحد فهو تقسيم عمل من نوع آخر لا يقوم على اساس التملك أو عدمه ، أو على أساس اكتساب الخبرة في النشاط كله أو عدم اكتسابه ، بل على أساس حصر العمل في زاوية معينة من النشاط ، وهو أمر أورد القاموس صوراً عنه ، سواء في مهنة الفران ، حيث تخصص بعضهم في التقريص ، وبعضهم في العجن ، وبعضهم سمي مبشكراً ، فضلا عن الأجير والمعلم ، أو في مهنة الحماماتي حيث نجد تخصصاً يشمل : المعلم للاشراف والادارة والصندوق . والاسطة : غسالة راس النساء . والبلانة : من تخرج الأوساخ من الابدان . والناطور : من يكسو الداخل الى الحمام غب نزع ثيابه ، بأنواع المناشف ، كما يكسوه بالمناشف عند خروجه ويتعاهده بتغييرها . والتبع : وهو الذي يرفع عن الزبون مناشف الناطور ويبدلها بالفوطة التي يستتر بها وقت الغسل . ويلاحظ أرض الحمام داخلا وخارجاً بالغسل دائماً . مع عمل « النورة » المعروفة بالدواء ، وملاحظة تجفيف الفوط المعدة لوقت الاغتسال . ويأتي بالمناشف لمن تم اغتساله ويريد الخروج من المغتسلين المتوسطين أو الفقراء . اما اذا كان المغتسل غنياً فيأتي له بالمناشف الناطور أو معلم الحمام ذاته . والقهوجي : من يعد الأراكيل للمتحممين ، ويعد القهوة ايضاً . والأجير : لاخذ النعال عند الدخول وتقديمها لأصحابها عند الخروج ، وهذا عدا عن القميمي (قيم القميم) الذي يجمع الزبل ، ويشرف على عمل الوقاد ، وعن الوقاد : الذي يوقد الزبل . والأجير لنشر الزبل وجمع رماده .. الخ .

ثم إن التخصص قد يكون في مراحل متعاقبة من نشاط اخير هو النشاط الأم ، اي يأخذ مسيرة تصاعدية . وهو أمر الح اليه القاموس في بعض صفحاته . فمهنة نسج الآلاجة ، مثلا ، بحاجة الى اناس متخصصين في نشاطات مستقلة يكمل بعضها بعضاً ، كنشاط الكبابة ، والفتال ، والمسدي ، والصباغ ، والمزايكي ، والملقي ، فالنساج ذاته .

كما قد يكون التخصص في انواع معينة في نشاط واحد ، ويصبح آنذاك تنوعاً . ففي نشاط النسيج مثلا يوجد نسيج الآلاجا ، والديما ، والبرنجكية ، والكفافي ، والشراشف ، والشالات ، والاثواب الصالحانية ، والعبي .. الخ .

وهو تخصص ألمح اليه أيضاً القاموس في بعض معالجاته ، وان كان التلميح ضيقاً وقليل الحدوث .

وأما الحقل الثالث المتعلق بتشابك العمل والنشاطات المختلفة فحظه من البحث كان ضئيلا جداً . ونقصد بهذا التشابك الصلة القائمة بين عدد من النشاطات ، من جهة ، وبين النشاط الأخير ، من جهة اخرى . وهو النشاط الذي التقط به بعض وجوه عمل تلك النشاطات . فصناعة البيت الآن مثلا لاتتم بدون نشاط الحفارين ، ودون نشاط الحجارين والنحاتين ، ودون نشاط حداد صب الاسمنت وصباب الاسمنت ، والمعماري ، ودون نشاط التمديدات الصحية ، والكهربائية ، والشوفاج ، والطيان ، ونجار الابواب والشبابيك والمطابخ والاباجورات وحداد الشبابيك والاباجورات ، وحداد الالمنيوم ، والمبلط والدهان ، ونشاط صاحب الزجاج ، ونشاط العديدين داخل الحدود وخارجها وهم الذين تستخدم سلعهم لتركّب جاهزةً في البيوت ... الخ . وهذا البيت الناشيء قد نسكنه فنبدأ باستهلاكه على المدى الطويل شخصياً ، وقد نحوله الى سلعة ونبيعه من الآخرين بقصد الربح ، مع بقائه في الوقت ذاته ، سلعة استهلاكية شخصية للمشتري ، أو نؤجره من الآخرين لننتفع بمورده الناجم عن تمتع الآخرين باستعماله . وقد يكون الاستهلاك مباشراً ونهائياً ، كما يحدث لرغيف الخبز ، أو قطعة السكر ... الخ .

وقد يكون التشابك ايضاً لانتيجة أعمال نشاطات سابقة فقط ، بل ويتحول المنتوج ذاته الى مادة أولية تدخل في اعمال نشاطات أخرى . فدباغة الجلود التي تنهي تشابك عدد من النشاطات السابقة ، من تربية ماشية ، وذبح وسلخ ، واستخدام مواد صنعت في أماكن أخرى من قبل نشاطات أخرى ، تنتج جلوداً تكون مادة أولية لكثير من النشاطات التالية كصناعة الاحذية ، والقرب ، والجلايل ، والاكمار ... الخ .

لقد عالج القاموس عرضاً ، خلال ذكر بعض النشاطات ، وبشكل غير دقيق ، هذين الشكلين من التشابك ، وأورد بعض الامثلة عنهما من صناعاته دون أن يفرد لهما بحثاً خاصاً معمقاً .

•

• •

ومهما كانت سلبيات القاموس ونقائصه عند بحث أدوات العمل ، ومراتب العاملين ، وتقسيم العمل وتشابكه ، فإن ايجابياته ، مع هذا ، تتمتع باهمية كبيرة . فهو قد وضع الامور على بساط البحث ، واطلعنا على جوانب من أمور كان النسيان لولاه ، قد لفها وطواها ، وأبقانا بها جاهلين . انه بمحاولته هذه ، حفظ لنا بعض الصور عن الماضي ، وأبقاها حية أمامنا تساعدنا على بحث هذا الماضي بشكل علمي أو أقرب الى العلمية . وهو عمل جميل وجليل .

الأسعار والأجور

إذا كان الاقتصاد السياسي يعالج قضية الاسعار والأجور معالجة مستقلة عن بعضهما ، وفي فصلين مختلفين ، فإن العلاقة بين الأسعار والأجور تبقى علاقة قوية ، ويؤثر احدهما في الآخر تأثيراً كبيراً . إن ارتفاع أسعار السلع الضرورية للمعيشة مثلا ،يؤثر بالتالي ، على الاجور مخفضاً قيمتها الحقيقية ، مع بقاء قيمتها الاسمية واحدة . فإذا كان الاجر المعين يشتري ، من قبل ، كمية معينة من السلع الضرورية للمعيشة ، فإن هذا الأجر لايشتري غير نصف هذه الكمية اذا ارتفعت أسعارها بنسبة ١٠٠٪ . والعكس صحيح أيضاً . كما أن الآجور اذا ارتفعت أو انخفضت ، مع تساوي الشروط الاخرى ، أثر هذا أيضاً على الأسعار ، من حيث العموم ، فرفعها أو خفضها .

ونحن ، اذ نبحث الاسعار والآجور في قاموسنا ، إنما نحاول ، من حيث المبدأ ، ابراز ما خلّفه لنا القاموس من صور حية عن الأسعار والأجور لهذهالسلعة أو لتلك ، ولهذا الانسان العامل أو ذاك . مقدرين هذا الأثر الهام الذي خلّفه لنا القاموس حق قدره . فبفضله نعرف أسعار تلك المواد آنذاك ، وأجور اولئك حينذاك ، مقارنين اياها مقارنة شكلية ، لاعلمية دقيقة ، مع أسعار مثيلاتها أو الأشخاص المماثلين اليوم ، ماامكن . علماً بأن المقارنة العلمية الدقيقة غير ممكنة الآن في ظروفنا ، للاسباب التالية :

١ ــ ان الأسعار والأجور التي تضمنها القاموس هي أسعار واجور ثابتة ، غير متبدلة طوال مدة تأليف القاموس التي امتدت ، على أكثر تقدير ، قرابة ١٧ عاماً ، وهي المدة التي عمل فيها الوالد على وضع الجزء الأول (حتى تاريخ وفاته عام ١٩٠٠ علىأكثر تقدير) والمدة التي عمل فيها الإبنوالصهر على وضع الجزء الثاني (حتى تاريخ انتهاء وضعه ١٩٠٧ على أكثر تقدير) ــ باعتبار ان مقدمة الجزء الثاني تنطق باسم جمال الدين القاسمي وصهره خليل العظم (اي وضعت في حال حياته) . في حين انه لايعقل اطلاقاً ان تبقى هذه الاسعار والاجور ثابتة طوال قرابة ١٧ عاماً ، لاسيما في ظل نظام سياسي مضطرب ، ووضع اقتصادي متخلف متقلقل ، وفي ظل حروب واضطرابات وثورات تلتهم الاموال ، وتحطم الاقتصاد القوي بله الضعيف المتقلقل .

٢ ــ إن البارات والقروش والمجيديات والليرات التي يستخدمها القاموس للتعبير عن سعر هذه السلعة أو تلك واجرة هذا الشخص او ذاك ، انما هي مرتبطة بنظام النقد القائم ، اتراه يقوم على أساس المعدن الواحد ، أو المعدنين ؟

وهل يقوم ورقه النقدي على أساس التغطية الكاملة من هذا المعدن او ذاك ، او من هذا النقــد الاجنبي او ذاك ، أم على أساســ التغطية الجزئية ؟ ثم ماهي التطورات التي طرأت على هذا النظام النقدي ؟ وما هو الوزن الذي تمثله الليرة العثمانية من المعدن الذهبي أو الفضي ، وما هو معيار هذا المعدن ؟ هذه أسئلة لابد من معرفة الاجوبة الدقيقة عليها ، ومعرفة مراحل تغيرها ، ومعرفة الزمن الذي وضعت فيه أسعار وأجور القاموس لكل سلعة ، ولكل شخص ، على حدة وتقويم هذه الأسعار والأجور بالتالي ، على أسس ثابتة تتلاءم ومراحل التغيير المذكورة . وهذه أمور تحتاج الى اخصائيين والى مراجع والى بحوث جدية ، غير متوفرة ظروفها الآن .

لهذا لابد من أخذ الاسعار والاجور المذكورة في القاموس على علاتها ، لأخذ فكرة ، ومجرد فكرة عنها ، أيام صياغة القاموس . وقد نوفق بذكر بعض الأسعار والاجور لمثل الاشياء الواحدة ، والرجال الواحدين ، مذكورة بالليرة السورية في أيامنا هذه ، لزيادة في ايضاح التباين بين الأمس واليوم ، دون أن يكون لهــذه المقارنات اية قيمة علمية لعدم توفر الاسس الصحيحة اللازمة للمقارنة .

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	المـادة	الوحـدة	السـعر
انتكجي	٩	٤٠	طاسة نحاس قديمة	١	اشتريت بربية (نصف ريال) باعها ب ١٣ ليرة ذهبية فرنسية ، ثم بيعت من آخر ب ١٥٠ ليرة ذهبية فرنسية.
تتنجي	٢٧	٦٦	سكاير	الف سيكارة اهديت لعزيز مصر	الف ليرة
			غرامة التتن المهرب	اوقية	نصف ذهب عثماني
تراب	٢٨	٦٧	تراب احمر	حمل	قرش
			تراب الخلد	حمل	قرش ونصف
حصري	٦٥	٩٨	الحصير المصرية	الذراع	قرشان
			دونهـا	الذراع	قرش فاقل
			حصر بلودان	الذراع	اكثر من عشرة قروش
حفار	٦٧	١٠٠	اجرة المظلة على القبر	لكل يوم	للفقير عشرة قروش للغني ١٥ قرشا
حكاك الخواتم	٦٨	١٠١	الختم القمري	١	بين ١٠ ــ ٢٠ بارة
حلاب	٧١	١٠٥	الجبن	رطل شامي	ــ نحو خمسة قروش في أيام الربيع ــ أكثر من ١٥ قرشا في الخريف والشتاء
دباغ	١٠١	١٤٠	براز الكلاب	سلة الواحدة	٤ ــ ٥ قروش أو باكثر في أيام الشتاء
أبار	١٤٢	٢١٥	المسلة	بطول شبر الى النصف ذراع الاطول	بطول الشبر بارتان أكثر
أشناني	١٤٣	٢١٦	الاشنان	المد	خمسة قروش
جرادقي	١٥٣	٢٢٧	طبق الجردقة	الواحد	بين ٣٠ بارة وقرش حسب الجودة

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	المادة	الوحدة	السعر
شالاتي	١٧١	٢٤٨	شال شامي	١	بين ٦٠ ـ ١٠٠ قرش
شداد	١٧٦	٢٥٥	استثمار الارض من قبل صاحبها	المحصول	يدفع العشر ٧٥ر١٢٪ من دراهم وحبوب
					ويركو ٤ بالالف
شماع	١٨١	٢٥٨	شميع	شمعة العرس الواحدة	لاتقل عن ليرتين
صباباتي	١٩٠	٢٦٦	الصبار	الواحدة الكبيرة	٥ بارات
				الصغيرة	كل خمسة او ستة
صوجي	١٩٩	٢٧٣	الماء للشرب	كاس الماء	ماتسمح به نفس الشارب
صواف	٢٠١	٢٧٥	جزة الصوف	الواحدة	حسب الرواج احيانا ١٢ قرشا واحيانا ٧ قروش
				(صوف نعجة واحدة)	وزنها قبل الغسل بين ١٠ ـ ١٢ أوقية وبعد
					الغسل ٥ ـ ٦ آواق .
ضرضرمجي	٢٠٥	٢٨٢	ضرضرمة	الاوقية من المتقنة	٣٠ بارة
				(٦٦ درهما)	
				غير متقن	١٠ ـ ١٥ بارة
عكلجي	٢٣٦	٣١٥	العكل	العكال من صوف الشال	نصف ريال مجيدي اثنى عشر قرشا
				دونه	ارخص
				في الشام	يباع بالرطل ٤٨ قرشا للجنس الغالي
				في حماه	بالوحدة ٣٦ ـ ٢٦ ـ ٢٠ للادنى فالادنى
علقي	٢٣٧	٣١٦	بائع العلق	الوحدة في الصيف والربيع	٥ بارات
				في الشتاء يقل	٣٠ بارة
عناب	٢٤٢	٣٢١	العنب	الرطل	لايتجاوز ٣ قروش (حلواني بيتموني ، تربلي)
				من المرغوب فيه في آوانه	لايتجاوز القرشين للزيني والاسود
					لايتجاوز القرش للاحمر
عواماتي	٢٤٤	٣٢٣	العوامية	الرطل	لا تبلغ قيمته اكثر من ٩ قروش

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	المـادة	الوحـدة	السـعر
فجـال	٢٥٦	٣٣٥	الفجـل	الفجلة الكبيـرة الواحدة وجرزة الفجل من الصغار	٢ر٥ بارة
فحـام	٢٥٧	٣٣٦	الفحـم	قنطار خـالي من الغش من البقـاع	حتى ١٥٠ قرشا
فـراء	٢٦٠	٣٣٨	الفروة النفيـسة	الواحـدة من خالص الالما او السمور	٥٠ ذهب
قشاط	٢٧٥	٣٥٢	القشطـة	الرطل	في أيام الربيع حتى ١٠ قروش في الشتاء حتى ٤٠ قرشا
قطعجي	٢٨٣	٣٥٩	لوحـات للزينـة	القطعـة قطعة نفيسة منها قطع الاستانة الواحدة	٣ قروش فاكثر بيعت بخمسين ذهبا أقل من قرش
قطـان	٢٨٤	٣٦٠	القطــن	القنطـار	الف قرش عند قلة الطلب و ١٣٠٠ عند شـدته ويتراوح بن القيمتين في الحال الوسطى
قاووقجي	٣٠٣	٣٧٣	قيمـة الطـاحون	الواحدة	قديمـا ٢٠٠٠ قرش فيزمن كتابة القاموس الف ليرا في مرج الدحداح
			الربطة للنساء	١	نحوا من ٢٠٠ قرش فاكثر
كشاك	٣١٣	٣٨٨	الكشــك	قيمة الثمنية مـن المتقن غير متقن	حتى ٧ قروش اقـل
كعيكاتي	٣١٤	٣٨٩	الكعك (الشرك) الكعك الخلاخيـل البقصمـاط	الرطل الشامي الرطل الشامي الرطل الشامي	٥ ـ ٦ قروش انقص بقرش أو نصفـه ٤ قروش

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	المـادة	الوحـدة	السـعر
لحـام	٣٢٦	٤٠٠	اللحم المشفى بعظمه في الربيع	الرطل الشامي (٨٠٠) درهم	١٠ قروش
				الرطل الشامي (٨٠٠) درهم	٦ قروش
			المشفى في الشتاء	الرطل الشامي (٨٠٠) درهم	١٣٫٥ قرشا وأحيانا ٢٠ قرشا
مرابي	٣٥١	٤٢٩	من يقرض المال لقـاء فائدة		بعضهم ١٢ ٪
					بعضهم ١٨ ٪
					بعضهم ٥٠ – ٦٠ ٪ من الفلاحين والعرب + طعام وشراب اذا استضافهم المرابي
مقشاتي	٣٨٨	٤٦٤	صانع المقشات وبائعها	المقشة	حسب حجمها وجودتها من ١ – ٣ قروش

هذه الباقة من الاسعار التي اتحفنا بها القاموس توحي للمدقق فيها ببعض الملاحظات :

١ ــ فالاسعار متروكة للعرض والطلب دون أن يكون هنالك اي جهاز حكومي للرقابة والاشراف ولمنع الاستغلال والغش والخداع . والأمثلة كثيرة ، ولكن المثل المضروب في صنعة الانتكجي (٩/٤٠) يذهلنا الى حد بعيد . فالطاسة النحاسية التي اشتريت من مكة بربية واحدة وهي تعادل آنذاك حوالي نصف ريال ، تسام بمبلغ ٢٠ ليرة ذهبية ، وتباع بعد ذلك بمبلغ ١٣ ليرة ذهبية ، ثم تباع مرة اخرى بمائة وخمسين ليرةذهبية . فأية فوضى في التسعير ؟ وأي استغلال لجهل الناس بواقع الأمور .

٢ ــ والتحكم الاجنبي يبرز في صورة حية من صوره ، عندما أورد لنا القاموس حكاية التتنجي (٦٦/٢٧) المتعرض لمصادرة ما بعد وضع الريجي الاجنبية يدها على بيعوتجار ةوصنع التبغ . انه معرض لمصادرة تبغه مهما كانت كمياته ، ومعرض للحبس ايضا ، وفوق هذا فهو مجبر على دفع غرامة مقدارها نصف ليرة ذهبية عثمانية عن كل اوقية من التتن المصادر . وهكذا خربت بيوت معظم الذين كانوا يتعاطون هذه التجارة ، وانتهوا الى الحبس والافلاس لصالح الشركة الاجنبية المتحكمة .

٣ ــ كما تعطينا صورة عن البذخ والاستغلال في وقت واحد ولو في مادة واحدة ، بذخ تلك الطبقات الفنية ، من ناحية ، وعظيم استثمار المؤسسات الاجنبية لمثل هذه الطبقات ، من ناحية أخرى لتكدس الارباح الطائلة. فقد أهدي الى عزيز مصر ، من أجل تسهيل بيع الانتاج من الآخرين ، صندوق سجائر يحتوي على الف سيجارة افرنجية قيمتها الف ليرة . فكل سيجارة تدخن تكلف صاحبها والوطن ليرة واحدة . واغلب الظن أن هذه الاسعار واحدة سواء في مصر او الشام . في الوقت الذي يباع فيه تقريبا رطل اللحم الشامي المشفى بعشرة قروش ، ويباع رطل العنب الحلواني بثلاثة قروش ، واوقية الضرضرمة بـ ٣٠ بارة ، ورطل الجبن بخمسة قروش أيام موسمه .

٤ ــ وتعطينا صورة عن استغلال مصائب الناس ، وفرض الاسعار المختلفة باختلاف درجات الناس الاجتماعية ، ولو كان السعر المفروض هو لقاء الانتفاع بشيء واحد . ففي فقرة الحفار (١٠٠/٦٧) نرى أن أصحاب المظلات التي تنصب في الجبانة لوقاية الناس من أحوال السماء عند اجتماعهم على قبر الميت ينالون أجرة المظلة من الفقير عشرة قروش ، ومن الغني ١٥ عشر قرشاً أو اكثر، وهو مبلغ تفاوت بتفاوت مقدرة الناس على الدفع أولا ، وهو كبير بالنسبة الى

أثمان الكثير من السلع الاخرى، ثانيا ، كرطل الجبن مثلا في الموسم نحو ٥ قروش ورطل اللحم المشفى ١٠ قروش في الربيع ، ورطل كعك البقصماط ٤ قروش .

٥ ـ كما تبرز لنا باقة الاسعار هذه ، في بعض مفرداتها ، اختلاف السعر الهام ، للمادة الواحدة ، بين الربيع والشتاء . فالجبن الذي يباع رطله بنحو من خمسة قروش ، والقشطة التي يباع رطلها بعشرة قروش ، في الربيع ، يباع الاول في الشتاء ، بأكثر من ١٥ قرشا ، أي اكثر من ثلاثة أمثال ، ويباع الثاني بأربعين قرشاً ، أي أكثر بأربعة أمثال . وهو بون واسع ينجم عن موسمية الانتاج وعن عدم استخدام الوسائل الحديثة في حفظ مثل هذه المنتجات الى زمن غير زمن انتاجها ، وعن فوضى الاستغلال .

٦ ـ واذا قورنت بعض الاسعار بأسعارها اليوم للكمية الواحدة نجد البون العظيم بين السعرين . فاذا كان متوسط سعر كيلو عنب الحلواني عام ١٩٧٥(٧) **٢١٠ قروش فهذا** يعني أن سعر الرطل يساوي (٥٠٤) بدلا من ٣ قروش سابقا . واذا كان السعر المتوسط للكيلو لحم الغنم راسه بعبه هو ١١٫٨٠ ليرة سورية في العام المذكور فهذا يعني ان الرطل يساوي ٢٨٣٢ قرشا بدلا من ١٠ قروش سابقاً . واذا كان متوسط سعر كيلو الجبنة البلدية البيضاء يساوي الآن ٦٦٣ قرشاً سورياً ، فهذا يعني أن سعر الرطل يساوي ١٥٩١ قرشاً عوضاً عن ٥ قروش في الربيع و ١٥ في الشتاء أي عوضاً عن ١٠ قروش كسعر متوسط في السابق. والامثلة على ذلك التباين في الاسعار عديدة جداً . علماً بأن الأسعار المبحوثة هي أسعار عام ١٩٧٥ ، ونحن في عام ١٩٧٧ .



هذا مايتعلق ببعض الاسعار التي أوردها القاموس . وماقيل في الاسعار يمكن أن يقال ، الى حد كبير ،في الاجور . ان الاجرة ليست في ظل العلاقات الانتاجية الراسمالية اكثر من قيمة قوة العمل وثمنها المحول. والعمل الذييقدمه العامل لرب عمله ينقسم الى عمل ضروريوعمل فائض ، الى عمل مدفوع مقابله، والى عمل مجاني يناله رب العمل بلا مقابل . وهو تقسيم تبدي حتى في العلاقات الانتاجية الرقية والعلاقات الانتاجية الاقطاعية ، مع ظهوره ظهوراً واضحاً فيهما ، وبروزه بشكل خاطىء : بشكل قيمة العمل في العلاقات الراسمالية لاقيمة قوة العمل فقط ... إن قوة العمل هي السلعة في هذه العلاقات لا العمل ذاته ، وهي التي تتوفر لها القيمة . وسواء أكانت الاجرة حسب الزمن أو حسب القطعة ، فهي تبقى قيمة قو ةالعمل ، تبقى مقدار النقد المدفوع ثمناً لاستهلاك

(١) راجع المجموعة الاحصائية لعام ١٩٧٦

قوة العمل . ومقدار النقد لايعني أكثر من كمية وسائل المعيشة التي يستطيع شراءها العامل به . . وعلى هذا تكون لدينا اجرة اسمية معبر عنها بكمية النقد المدفوع ، واجرة حقيقة معبر عنها بكمية وسائل المعيشة التي يستطيع العامل شراءها بها . وقد تبقى كمية النقد وكمية وسائل المعيشة المتبادلة بهـا لقاءها واحدة . وهـذا يعني أن الاجر الاسمي مساو للاجر الحقيقي . ولكن غالبـاً ما يحدث التباين بينهما، في العلاقات الانتاجية الاستثمارية، ولاسيما الرأسمالية منها ، فتبقى الاجرة الاسمية واحدة في حين يرتفع ثمن وسائل المعيشة ، لهذا السبب أو ذاك ، فتقل الكمية التي يمكن شراؤها بالأجرة الاسمية ، وهنا تبدأ المأساة الجديدة في حياة العامل والشغيل والكادحين طراً .

وقد تزداد الاجرة الاسمية زيادة، تقل عن ارتفـاع أسعار سـلع الاستهلاك والخدمات ، فتهبط الاجرة الحقيقية الى هذا الحد أو ذاك وتتابع المأساة أيضاً .

وقد تقل اجور الانسان المتباين في الجنس والعرق والمواطنية ، رغم القيام بالعمل الواحد . وهنا ايضاً تتباين الاجور الاسمية للعمل الواحد . فاذا اضيف هذا العامل الى العوامل السابقة أمكن تصور فداحة الظلم والاستثمار اللذين يحيطان بالشغيلة عموماً ، وبالشغيلة المتباينين في الجنس او العرق او المواطنية بشكل خاص .

بعد هذه الكلمة الموجزة عن الاجور ننتقل الى قاموسنا لنستعرض ماخلفه لنا من صور الاجور التي تختلف من نشاط الى نشاط ، بالدرجة الاولى ، ونجمله في جداول تمهيداً لعرض الملاحظات الممكنة .

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
اسطة	٦	٣٧	غاسلة راس النساء في الحمام	حسب الراس	اجرة مخصوصة حسب الزبون وغناه
حبال	٥٤	٩٠	قاشر القنب	على قدر الانتاج	قضبان القنب
الحلاق	٧٠	١٠٣	الحلاقة	الواحدة : في دكان الحلاق للاغنياء والسداوات والمتوسطين	لا أقل من نصف مجيدي ابيض
				حلاق بلا دكان : للفقراء والفلاحين	١٠ بارات
حمار	٧٣	١٠٦	الحمار	لنحو ساعة	بعشرين الى الثلاثين فضة الى القرش
حكواني	٧٥	١١٢	الحاكي	في الليلة	نصف دخل صاحب القهوة
			صاحب القهوة (الشعبية)	لقاء المشروب	١٠ بارات
خباز	٨٥	١٢١	الفران	لكل مائة رغيف	٢ر٥ قرشان في القالب مع رغيف
			الاجير	نقل الخبزة	رغيف
داية	٩٩	١٣٤	الداية	الولادة والعنايةبالامو المولود	عند بعض الاغنياء قد يصل نقوطها الى اكثر من ٥٠٠ قرش
ذباح	١٠٩	١٥٠	الذابح في المسلخ	على كل دابة	قطعتان من لحمها ، قطعة من محل ذبحها والثانية ((حلاوة)) وثمنها ٥ بارات
رشاش	١١٧	١٥٦	الشخص الراش للماء	كل شهر	شيء معلوم عن كل دكان
ساعي	١٢٣	١٧٦	ناقل البريد الخاص	اجرة نقلمكتوبالىطرابلس والعودة .	ثلاثة ارباع المجيدي
اكار	١٤٤	٢١٦	معزل الانهر	يوم عمل	خمسة قروش
براك	١٤٦	٢١٩	ناقر حجر الطاحون	يوم عمل	٨ قروش

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
بستاني	١٤٧	٢١٩	مستثمر حانوت الاخرين على شكل بستان	عمل سنة	قيمة المنتوج تقسم الى نصفين : لصاحب الارض : مقابل ارضه ومائة ونصف ما يصرف على الزراعة من بذر وحرث . لصاحب العمل : لقاء الاتعاب وحفظ المزروعات وحراستها ونصف النفقات من قيمة الوارد
تهليلجي	١٥١	٢٢٢	شيخ التهليلة	التهليلة	بين ٥٠٠ قرش وعشر ليرات
ثعباني	١٥٢	٢٢٤	الثعباني	الامساك بثعبان أو حية	بعضهم اعطى ٥ ليرات
صيرفي	٢٠٤	٢٨٠	الصراف المبدل للعملة	—	من ٢٠ – ٣٠ بارة في ٪
طحان	٢١٢	٢٩٠	الطحان	اجرة طحن مد الحنطة (٦ أرطال شامية)	اذا كان الماء غزيرا من ٢٠ – ٣٠ بارة اذا لم يكن غزيراً حتى القرشين
طنبرجي	٢١٦	٢٩٤	طنبرجي	نقل الكلس خلال يوم عمل	٥ – ٦ قرش
صواب	٢١٧	٢٩٤	ضارب اللبن	آلاف اللبن	٢٠ قرشا
طيان	٢١٨	٢٩٥	المعلم الماهر الصانع	في اليوم في اليوم	ربما تبلغ ٢٠ قرشا ١٥ قرشا
عتال	٢٢٢	٣٠٢	عتال على ظهره	الطرد	٢٠ بارة اذا كان الموقع قريبا، فاكثر اذا كان ابعد
عجائبك عجائب	٢٢٣	٣٠٣	صاحب الصندوق	الدورة الواحدة	لاتزيد على ٥ بارات
عجان	٢٢٤	٣٠٤	عاجن الطحين	كل عجنة (١٢،٥ رطلا شاميا) من الطحين .	٣٠ بارة ورغيفان + قرش فوق ذلك مقطوع مهما كانت العجنة
عربجي	٢٢٦	٣٠٥	العربجي الماهر	أجرة اليوم	حتى ٨ قروش
عرضحالجي	٢٢٧	٣٠٧	كاتب العرضحالات	في اليوم	قد تبلغ ٤٠ قرشا أو أكثر
عزاق	٢٢٩	٣٠٩	عازق الارض بالمر	من الصباح الى الظهر	٥ قروش

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
عشا	٢٣١	٢١٠	العشي الماهر في اللوكندة او عند الذوات والعشية	في الشهر	حتى ٣ ليرات
عميل	٢٤١	٣١٩	الوكيل	في الشهر %	لحد ٤ ريالات مجيدي ٢٫٥ قرشان حسب الانفاق
غسالة	٢٥١	٣٢٩	الغسالة	حسب الغسيل	من ٣ – ٦ قروش مع الاكل ايضا والحطب والصابون على أصحاب الغسيل
			الفلاحة في القرى الغسالة المصرية	في اليوم – الثوب –	٦٠ باره وطعامها منها قرش وكذلك المنثورات (القطع الصغيرة) والحطب والصابون على الغسالة
غنام	٢٥٢ مكرر	٢٣١	تاجر الغنم عندما يبيع غنم الاخرين	له على كل راس	قرش من البائع وقرش من المشتري
فاعل	٢٥٣	٣٣٣	الفاعل	من الصباح الى المساء	٧ قروش
فتال	٢٥٥	٣٣٤	الفتال	اجرة فتل رطل الحرير عند الكنتاد وكل رطل بحاجة الى عمل ثلاثة اشخاص.	حتى ١٥ قرشا أي ٥ قروش للشخص الاتقوم بالكفاية
فرام التتن	٢٥٨	٣٣٧	فارم التتن	فرم الرطل الشامي	قرش واحد
قراط	٢٥٩	٣٣٨	لفرط ثمر الزيتون	يوم عمل	لاتزيد عن أربعة قروش
فراء	٢٦٠	٣٣٨	الفـراء	اجرة التفرية وهناك من يحدد اجرة التفرية للفراية	من ١٠ قروش فصاعدا بنصف ريال مجيدي
قابلة	٢٦٩	٣٤٧	القابلة	لقاء التوليد وتعهد الطفل حتى الأسبوع	حسب الحال من ليرة الى نصفها الى ريال مجيدي عدا « النقوط » قديما الذي كان يجمع بين ٥٠٠ – ١٠٠٠ قرش
قنواتي	٢٩٢	٣٦٤	باني قساطل المياه	في اليوم	١٥ قرشا فاكثر

جدول الاسعار المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
قهوجي	٢٩٤	٣٦٨	صاحب المقهى	الجلسة	بعضها ٢٠ بارة وبعضها ١٠ بارات وبعضها ٥ بارات
قواص	٢٩٥	٣٦٨	خادم القناصل الاجانب	شهريا	٣٠٠ قرش فاكثر
قولجي	٣٠٥	٣٧٢	المحافظ على بيادر الغلال لصالح العشار	شهريا	١٢٠ قرشا
كراكوزاتي	٣١٠	٣٨٤	الكاراكوزاتي	في الليلة	نصف وارد القهوة
كسار	٣١٢	٣٨٦	كسار الحطب	القنطار	١٠٠ بارة
كلاب	٣١٥	٣٩١	اجرة المخبر عن موت اوتهليلة ..	اخبارية	١٠ – ٢٠ بارة
كناس	٣٢١	٣٩٥	الكناس عند البلدية	يوميا	٤ قروش
كواء	٣٢٢	٣٩٦	كواء الطرابيش كواء الثياب	الطربوش القطعة	١٠ بارات – ١٥ – ٢٠ حسب الحال ٤٠ بارة
لبان	٣٢٣	٣٩٨	من يجمع اللبن ويوصله للمرتب اليهم	لقاء كل علبة	١٠ بارات
لفاف	٣٢٩	٤٠٤	لفاف جذع الشجرة بالقش	النصبة	لاتزيد الاجرة على ٢٠ بارة والقش عليه
لوكندهجي	٣٣١	٤٠٥	مستثمر اللوكنده	اجرة الليلة	الاعلى ١٠ قروش ، الوسط ٦ قروش ، الادنى ٣ قروش
مؤدب أولاد	٣٣٢	٤٠٧	شيخ الكتاب	خمسية عن كل ولد شهرية .	بين ٢٥ بارة الى قرش ٦ قروش فاكثر عدا الاكراميات في المناسبات
المبيض	٣٣٤	٤١٣	المبيض	الوعاء	٢٥ بارة أو ٤٠ بارة حسب غلاء القصدير ورخصه .
مجلخ	٣٣٧	٤١٦	صاحب دولاب الجلخ	للقطعة	١٠ – ٢٠ بارة

جدول الأجور المستحقة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
مجركش	٣٤٠	٤١٩	الطرز	كل مائة درهم فضة كل مائة درهم فضه كل مائة درهم فضه	٠ر١٧ قرشا ، ثم أصبحت ١٥ ، ثم ١٠ ، ثم ٧ ، ثم ٥ ، ثم ٠ر٢ ومنذ ٢٠ سنة من حديث الصانع الى كاتب القاموس ٠ر٢ قرش
المحمرة	٣٤١	٤٢٢	محمر الكرمة	يوم العمل	٠ر٢ – ٣ قروش .
مخرس	٣٤٢	٤٢٢	مصلح ماانكسر من الاواني الصينية والمالقية والبلورية	كل مسمار	١٠ بارات
مدري	٣٤٥	٤٢٤	من يدري الحب لفصله عن التبن والتراب (مجموعة ٤ – ٥) أشخاص	قديما : غرارة الحب (٨٠ مدا) عند وضع القاموس : غرارة الحب (٨٠ مدا)	٦ امداد حب ٢– ٠ر٢ اذا كانت الغلة ثمينة ، ٣ امداد اذا كانت الغلة رخيصة .
مرابع	٣٤٩	٤٢٧	مستخدم عند اصحاب الحوانيت للبذار ، السقي ، الحراسة، الحصاد ، العناية بالاشجار كل الاعمال الزراعية	سنويا لقاء الاتعاب سنويا	سابقا : ربع المحصول بعد رفع الميري في عهد القاموس : ١٢٠٠ قرش + ٢٠٠ قرش للشيخ فضلا عن الاجرة .
مزارع	٣٥٣	٤٣٠	مستاجر الارض ، يقدم كل ماتحتاج اليه. ضريبة الميري على صاحب الارض وفي مكان آخر نفهم أنها ترفع من الغلة قبل القسمة .	المحصول للاشجار للكرمة	½ المحصول لصاحب الارض لقاء الارض والماء ½ المحصول للمزارع لقاء الاتعاب والنفقات ، مع كافة التبن . ٤ قراريط من قيمة الاشجار ٦ قراريط مقابل العزق
الزعبر	٣٥٥	٤٣٤	الزعبر	اجرة الدخول على الشخص	ريال مجيدي قرب محل الشغل ، نصف ريال في الخلف .

جدول الأجور المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحـدة	الاجور وواحدتهـا
مزين	٣٥٦	٤٣٦	خاتن الاولاد	على الراس	الاغنياء لحد الليرة ، بعضهم نصف ليرة ، وبعضهم ريال مجيدي ، الفقير اقل .
مسالخي	٣٥٩	٤٣٧	ذابح الغنم والمعز في المسلخ	كل راس	١٠ بارات
مسحي	٣٦١	٤٣٨	الذي يعد مساكب الارض للصيفي بعد الحراثة	يوميـا	لاتقل عن خمسة قروش + لبن او دبس
المسحر	٣٦٢	٤٣٩	من يوقظ الناس عند السحور في رمضان ويدعوهم للصيام	شهر رمضان	ـ طعام يومي (فضلات الطعـام) ـ عند انهاء رمضان بعض الدراهم مع اطعام من حلاوة العيـد
المسـدي	٣٦٣	٤٤١	من يقوم بتسدية الرشق	اجرة رطل الحرير	من ٧ـ ٨ قروش
مصوبن	٣٧٠	٤٤٦	مدلك الابدان بالكيس والصابون	حسب الراس	قد تبلغ يوميا أكثر من عشرة قروش وفي الجمع والاعياد اضعاف ذلك .
مصيف	٣٧١	٤٤٧	زارع الصيفي جماعة تاخذ ارضا	الموسـم	½ لصاحب الارض لقاء ارضـه والحراثـة والعمارة والماء واجرة العمل . ½ للمصيفين يقسم على افرادهم لقاء اتعابهم
مطعم	٣٧٤	٤٥٢	مطعم الشجر	الطعم الواحـد	٣٠ بارة أو ٤٠ بارة حسب الاتفاق بدفع نصفه سلفا والباقي عند نجاح التطعيم .
المعـاك	٣٧٧	٤٥٤	مارت المشمش لصنع القمرالدين	يوميـا	لا تزيد عن خمسة قروش
معشبة	٣٧٩	٤٥٥	رفع الاعشاب الضارة	من الصباح الى المساء	من ٦٠ بارة الى القرشين حسب الرواج والكساد .
معصراني	٣٨٠	٤٥٦	عاصر الزيتون	مهما كانت الكميـة	لقاء البذر الناتـج (يعصـره صاحب المعصرة ويستخرج زيته ويبيعه لاصحاب الاتون للحـرق) .

جدول الأجور المستقاة من القاموس

النشاط	الرقم	الصفحة	الشخص	الوحدة	الاجور ووحدتها
مقرىء	٢٨٧	٤٦٢	قارىء القرآن بمناسبة الوفاة	القارىء يوميا	لاتقل عن ١٠ قروش + اطعامهم احسن الطعام
مقوّم	٢٨٩	٤٦٥	متعهد مشال الركب الحجازي	التخت المحارة شبرية او جملا	للغني من ٨٠ ــ ١٠٠ ليرة حسب رواج الموسم للمتوسط من ٢٥ ــ ٤٠ ليرة حسب رواج الموسم للادنى ــ النصف عند المشال والاخر عند الوصول
الملقي	٣٥٥	٤٦٨	مهيء الرشا للحائك	عشرين صاية	٦ ــ ٧ قروش
ممسدة	٣٩٦	٤٦٩	ممسدة بطن الاولاد	للطفل	من ٢٠ ــ ٦٠ بارة
نقاش	٤١٩	٤٨٦	ناقش اصناف الاواني من النحاس	الرطل من النحاس	لاتقل عن ٣٠ قرشا
نكاش	٤٢٢	٤٨٩	ناكش الارض لتهويتها ورفع الاعشاب	يوميا	لاتقل عن ٣٫٥ قروش
لاقوط	٤٣٤	[illegible]	لاقط السنابل الساقطة	يوميا	لا تقل قيمة ما يجمعه عن ٢ ــ ٣ قروش

إن القاء نظرة فاحصة على هذه الجداول في ظروف وضع القاموس يوحي لنا بالملاحظات التالية :

١ ــ إن الاجور التي وضعت ، في هــذه الفقرة أو تلك ، وضعت لمرة واحدة ، بينما استغرق وضع القاموس حوالي ١٧ عاماً ، في الحد الاقصى ، مما يجعل الأجر المبين في الفقرة المعنية متعلقاً بالزمن الذي كتبت فيه الفقرة فقط ، ولا ندري هذا الزمن على وجه التحديد ، مما يجعل التعميم للأجر على امتداد مدة وضع القاموس أمراً غير صحيح . فأجرة صانع الطيان [١٥ قرشاً] مرتبطة بالزمن التي كتبت فيه فقرة الطيان ، ولا بد من اختلاف هذه الاجرة مع الزمن الممتد لوضع القاموس ، لاسيما والناس في ذلك الزمن كانوا يعيشون في ظل اقتصاد مضطرب ، يتحكم بــه الرسمال الاجنــبي ، وتسيطر المؤسسات الاجنبية على العصب الحساس في الادارة الاقتصــادية ، ويحطمه التبديد والتبذير وسوء الادارة والاستغلال ، وتتدنى قيمة نقده تدنياً متواصلاً .

٢ ــ ولهذا السبب ذاته لاتصح مقارنة اجور عدد من الفقرات بعضهــا ببعض في زمن واحد . فأجور صانع الطيان اليوم لايمكن مقارنتها مع أجرة الأكار اليومية ، مع أجرة الفاعل اليومية ... لانها موضوعة في ازمان مختلفة ، تتباين فيها قيم النقد والاوضاع الاقتصادية تبايناً كبيراً .

٣ ــ وفي حال افــتراض أن الاجور وضعت في زمن واحد ، وأوضــاع اقتصادية واحدة ، وهو غير صحيح ، فاننا نستطيع ان نتبين ان أجور العمل الزراعي هي ، على العموم ، أقــل من اجور العمل في المدن . فاذا كــانت أجرة النكاش اليومية لاتقل عن ٥ر٣ قروش واجرة المعــاك لاتزيد على ٥ قروش ، والمَسحّي لاتقل عن خمسة قروش ، والفرّاط لاتزيد على أربعة قروش ، فان أجور العربجي تصل حتى ٨ قروش ، وصانع الطيان ١٥ قرشاً ، والبراك (ناقر حجر الطاحون) ٨ قروش ... الخ .

٤ ــ كما نتبين احياناً وجود فارق كبير في الاجور للعمل الواحــد ، في ازمان مختلفة . فالمبيض يتناول اجر تبييض الوعاء ٢٥ بارة وأحياناً ٤٠ بارة ، واجرة المجركش كانت لكل مائة درهم فضة ٥ر١٧ قرشا فأصبحت ١٥ ثم ١٠ ، ثم ٧ ، ثم ٥ ،ثم ٥ر٢ . والمدري كان يتناول اجر تدرية غرارة الحب التي تعد ٨٠ مداً ٦ أمداد من الحب ، ثم أصبحت مدين الى مدين ونصف اذا كانت الغلة ثمينة ، و ٣ امداد اذا كانت رخيصة الثمن ، والمعشّبة بين القرشين الى ٦٠ بارة .

٥ ــ إذا اخذنا الأعمــال البسيطة التي لاتتطلب من مبــاشرها تأهيلاً فنيــاً ، نجد ان الاجور اليوميــة مثلاً لكناس البلدية ٤ قروش ، وللعربجي ٨ قروش وللفاعل ٧ قروش ، ولمعزل الانهر ٥ قروش ، وللطنبرجي من ٥ ــ ٦

قروش ، أي أن المتوسط هو في حدود ٦ قروش . ومن هذا نستدل أن الحد الادنى للمعيشة ، لمثل هؤلاء الشغيلة ، يتراوح حول هذا الرقم .

٦ ــ كما نتبين من استعراض بعض الأجور ان متوسط أجر بعض الأعمال التي تحتاج في المدينة ، الى خبرة معينة ، وتأهيل معين تتراوح أيضاً حول الرقم ١٤ قرشاً . فناقر حجر الطاحون لتقوم بمهمة الطحن على اكمل وجه يتناول يومياً ٨ قروش ، وأجرة معلم الطيان ٢٠ قرشاً وصانعه ١٥ قرشاً ، وباني قساطل المياه ١٥ قرشاً ...

٧ ــ وإذا ماقارنا الاجور التي كان يتناولها اناس معينون لقاء يوم عمل واحد ، وفي مهنة واحدة ، والاجور التي يتناولها أحفادهم الآن في المدة والنشاط المماثلين ، نجد البون الشاسع ، والفارق العظيم بين عدد الوحدات النقدية التي كانت تؤخذ بالأمس ، والوحدات النقدية التي تؤخذ اليوم ، لقاء العمل الواحد أو الخدمة الواحدة . كان الفاعل ، مثلاً ، يتناول لقاء يوم عمل ٧ قروش ، فأصبح الآن يتناول بين ٢٠٠٠ ــ ٢٥٠٠ قرش سوري . وكان الطيان المعلم يتناول يومية حتى ٢٠ قرشاً فأصبح يتناول بين ٥٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ قرش . وكان صانعه يتناول ١٥ قرشاً فأصبح يتناول لاأقل عن ٣٥٠٠ قرش ، وكانت أجور اللوكنده لليلة الواحدة ١٠ قروش في الدرجة الأولى ، و ٦ قروش للمتوسطة ، و٣ قروش للدنيا ، فأصبح متوسط أجور الليلة الواحدة في عام ١٩٧٥ في الدرجة الممتازة بين ٦٥٠٠ ــ ١٢٥٠٠ قرش ، وفي الدرجة الأولى ٣٤٠٠ قرش ، وفي الدرجة المتوسطة ١٣٠٠ قرش ، وفي الدرجة الدنيا ٧٠٠ قرش(٨) . وهكذا دواليك ..

---

(٨) أخذنا هنا الارقام الوسطية ، علما بانه يوجد تباين كبير في الاجور بين درجات الفنادق ذاتها ، وبين الفئات في الفندق ذاته . فاجور الميريديان لليلة الواحدة بدون افطار في غرفة لشخص واحد بين ١٤٠ ، ١٦٠ ، ١٨٠ ، وفي غرفة لشخصين ١٦٠ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، وفي جناح خاص ٣٢٠ . في حين تبلغ الاجور في فندق الدرجة الاولى فئة أ : ٥٠ للشخص الواحد مع حمام ، و ٤٠ بلا حمام ، وللشخصين ٦٥ ، و ٥٠ على التوالي ، وفي الفئة الثانية من الفندق ذاته ٤٠ ليرة لشخص مع الحمام ، و ٣٠ بلا حمام ، و ٥٠ لشخصين مع حمام و ٤٠ بلا حمام ، بينما تبلغ الاجور في فندق الدرجة الثانية فئة أولى لشخص واحد ٢٠ مع الحمام وبلا حمام ١٥ وللشخصين مع الحمام ٣٠ وبلا حمام ٢٥ ، وأقل من ذلك في الفئة ب . أما فنادق الدرجة الثالثة فالمتوسط في الفئة الادنى ٩ ليرات ، وفي الفئة الثانية ٧ ليرات وفي الفئة الثالثة ٥ ليرات وهكذا ...

الفصل الثالث

صور من شامنا

اللبـاس

لقد استطاع القاموس أن يعرض لنا ، من خلال صفحاته ، صوراً هامة من صور اللباس في شامنا المحكي عنها . صحيح أن هذه الصور لم تتناول كل شيء ، ولكنها ، على كل حال ، عرضت الواناً من اللباس بدءاً بلباس الرأس ، وانتهاء بلباس القدمين . ولولا هذه الصور التي قدمها القاموس فلربما طوى الزمن كثيراً من الازياء ، واصبحنا جاهلين حقيقة اهتمامات الناس في اللباس ، وتطور هذا الاهتمام مع الزمن . وهذه مزية هامـة أخرى من مزايا قاموس الصناعات الشامية .

لبـاس الرأس

لباس الرأس هو من الالبسة التي تكون دائماً موضع اهتمام الانسان ، لانها تتوج رأسه وتظهره بمظهر معين امام الناس . وكثيراً مايكون لباس الرأس شعاراً يدل على مكانة معينة لصاحبه . ويختلف لباس الرأس بين لباس البيت ، ولباس الخارج . وحتى هنا كثيراً مايلبس الانسان لباس رأس لعامة النـاس ، وللشئون العادية ، حتى اذا كانت هنالك استقبالات خاصة ، أو مناسبات معينة ، أو لقاءات مرموقة ، عندئذ يختص صاحب اللباس راسه بأجدّ ماعنده ، وأغلى مالديه ، شأنه في ذلك شأن الانواع الأخرى من الالبسة التي يرتديها .

ولباس الرأس عانى كثيراً من التطور والتبدل ، سواء عنـد النساء أو الرجال ، وان كان تطور لباس راس الرجال أسرع ، وأكثر تنوعاً ، وتباينـاً واتقاناً . وفضل قاموس الصناعات الشامية انه حفظ لنا صوراً عديدة من صور هذا اللباس توالت مع الزمن ، وانتهت الى الوضع الذي انتهت اليه في زمانه .

فالقاووق الـذي « انقرض مـن نحو نصف القرن الماضي ، وانقرضت صناعته ، ولم يبق إلا رسمه » ، هو « قلنسوة كانت تلبس على الرأس . يفصّلها صانعها من جوخ أو غيره ، على قدر الراس . ولها بطانة وظهارة ، وتحشى بينهما بقطن . وسطح دائرتها المماس لأعلى الراس ، وهو الترس ، عريض مدور ، فيخيطها صانعها ، ويلائم بين الظهارة والبطانة بدروب فيها عديدة ، وأسلاك مخيطة . وفي الترس نقوش من الخيـاطة ، وضروب لطيفة تجمع على زرّهـا في الوسط » .

هذا القاووق الذي كان لباساً عاماً للراس ، لو قدر لأحدنا أن يلبسه الآن ويتجوّل به في الاسواق ، لاصبح محط انظار الناس ، واستغراب الكثيرين ، وهزء

العديدين أيضاً . ولكنه هكذا كان . كانت له شعبيته . وكان له مجده . وكـان العلماء والوزراء والاعيان يزيدون عليه الشاش الأبيض على شكل العمّة . وكان لف الشاش على هيئة العمة فنّا قائما بذاته لا يتقنه إلا أناس اختصوا بذلك وأصبح هذا العمل مهنة لهم ، ومنه مرتزقهم . لأنه يكون بهندسة خاصة ، كما يقول القاموس :

والقلبق وهو نوع آخر من لباس الراس ، كان يلبسه ، على مايبدو ، جنود الحكومة ، وفي قديم زمانه كان « بمثابة لبادة المولوية الآن في طوله ، إلا انه أسود لتغشيته من جلد الجدي الصغير » . وكان في طوله كعلبة اللبن المعروفة بالشام ، وليس فوقه عمامة ،(٩) . ويبدو أن هذا اللون من القلبق قد انقرض ، وعـاد شيء منه في عصر المؤلفين للقاموس ، على هيئة لطيفة ، « حتى صار يلبسه كثير من كبار العسكرية ، وهيئته كالطربوش ولكنه مغشى بجلد خروف أسود . وفي ترسه أعلام من رسم أو قصب ، وأكثر الرجال الآن يصنعون لهم قلابق يلبسونها في بيوتهم اذا قدموا من أشغالهم ، أو عند منامهم . وهي أنواع : فمنها حرير ، ومنها المطرز بحرير ، ومنها المجلوب من البلاد الاجنبية ، وهي مما تخف على الرأس بالنسبة الى العمّة »(١٠) . أي أصبح القلبق لباساً مدنيـاً بيتياً ولباساً عسكرياً .

والعُرف لباس رأس تشبه خياطته خياطة القاووق « ولكن ليس له سطح مدور ، بل كان شكله مخروطياً يشبه الآن التاج والطواقي التي يبيعهـا فقراء الهنود والأفغان . ولكبر هذه العمّة وارتفاعها استعير لها اسم « العرف » فانه في اللغة اسم للرمل والمكان المرتفع » ، وهو لباس خاص بالأكابر .

والطّبزة « اسم لكسوة كبـرى ، وعمـة عظمى . تلف ، مـن الشاش الأخضر الكثير الأذرع ، على القاووق أو العرف . كان يلبسها العلماء ومشايخ الطرق ، في مواعيد خاصة ، وأوقات معينة ، وفي ليالي إقامة الأذكار . » وحجوم هذه الطبزة تختلف وتتباين . فمنها المفرطة في الكبر ، ومنها المتوسطة ، ومنها الصغيرة . « وهذه لم تزل يحافظ عليها بعض بيوت العـلم والطرق في دمشق يخبئونها لوفاة عالم ، أو شيخ طريق ، يضعونها على النعش ، ناحية رأس الميت إعلاماً بانه عالم ، أو شيخ طريق ، أو نسيب » .

اما **التاج** فلباس راس كان يلبسه بعض المتصوفة ، وبعضهـم كان يتعمم عليه ، وبعضهم لايتعمم .

---

(٩) راجـع القـاموس ص ٣٧٩ .

(١٠) راجـع القـاموس ص ٣٨٠ .

وأما « **اللبادة** » فكانت ، على مايبدو من القاموس ، على أشكال لكل شيخ طريق شكل في لبادته خاص ، فمنها لبادة طويلة بطول لبادة المولوية يلف عليها صوف أبيض بهندسة خاصة ، ومنها لبادة كالطربوش ، ومنها لبادة مضلَّعة .

« أما التعمم فكان حسب الأذواق والرغبات . كما كانت مادة التعمم مختلفة متباينة . وكان هنالك اناس مختصون بصف طيات العِمَّة حسب رغبة صاحبها ومظهره من علم أو طريقة . وبعضهم كان يعمم على القاووق او اللبادة . وبعضهم على قاووق مدوَّر كالدف الكبير المعروف « بالمزهر » وبعضهم يتعمم بالشاش الأبيض ، وآخرون باللون الاخضر ، وآخرون بالحرير المطرز المعروف ب « عزيز خان » و ب « الاغباني » . وهي عمة سائر التجار ، وبقية الناس الآن . وكانت العمة من هذا الصنف غالية الثمن تبلغ ٥٠٠ قرش فأقل ، كبيرة ، كثيرة الأذرع . ولغلائها كانت كثيراً ماتخطف ليلاً من الرؤوس ، ويتحدث الناس صبيحتها أن فلاناً خطفت البارحة عمته » .

والحديث عن **الطربوش** حديث ذو شجون في لغة القاموس . فكان المعروف قديماً هو الطربوش العباسي . وكثير من الناس كانوا يتعممون عليه وتحته لبادة وتحتها طاقية وهكذا « مما يثقل جداً على الرأس ، ويورث النزلات الدماغية ، بل العمى : حتى كان الطربوش قديماً أثقل من الآن وأوسع وأغلظ ولم يزل يتلطف حتى الآن »(١١) . وعند الحديث عن تاريخ الطربوش يفهمنا القاموس أن استعماله كان قليلاً . وكان على شكل الطربوش المغربي . أما العامل الاساسي في انتشار الطربوش وعموميته فهو اقدام السلطان محمود خان على لبس الطربوش . وكان بذلك أول من لبس الطربوش من الملوك الاسلامية . ومع انتشار الطربوش أخذت القواويق تتضاءل وتتراجع . « وصارت تجلب الطرابيش من البلاد الأجنبية . وبدأ امرها ينتشر حتى عم . واستعاضت الناس به عن جميع ماتقدم من القاووق والعرف والطبزة واللبادة . إلا بقية من مشايخ الطرق لم تزل محافظة على هيئة أسلافها تعيشاً بها . وصارت الناس تتعمم على الطربوش . ثم وجدوا كبر العمامة فيه غلظة ، فأخذوا يتلطفون في تصغيرها حتى آل الأمر الى ماترى »(١٢) .

وعمة الطربوش البيضاء لم تكن زياً لكل العلماء في دمشق . فالشريف يلف الاغباني عليه . والعلماء المعمرون لايتعممون إلا به . أما العمة البيضاء ، بزيها

---

(١١) راجع القاموس ص ٣٧٧ .

(١٢) راجع القاموس ص ٣٧٥ .

المتقن الآن ، فكانت خاصة بقضاة دمشق الاتراك فقط . ثم لم يلبث التقليد أن فعل فعله حتى فشت العمة البيضاء بين العلماء وبين أشباه العلماء بشكل عجيب.

وعند الحديث عن العمة لايسع المرء إلا التوقف قليلاً عند هذه النظرة الصائبة التي أخذ بها القاموس ، مبتعداً عن القشور ، متمسكاً بالجوهر ، في زمان كانت الاغلبية فيه صريعة الجمود والجهل والتمسك بالقشور على أنها من قواعد الدين . انه يهاجم أولئك الذين يظنون « أن التعمم من قواعد الدين . ويشنون الغارة على من ترك التعمم . ويسترجعون ويستندون الى أحاديث العمامة التي كلها موضوعة ومكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما بينه علماء الحديث في الاحاديث الموضوعة . ويجل الدين عن أن يدخل في اصوله مثل ذلك من الازياء . فانها تابعة لحالة كل عصر . راجعة الى مايألفه الناس في كل زمان . وماذا يعد المرء من هوس العامة بالدين في هذا وأمثاله ، فإنا لله وإنا اليه راجعون»(١٣) . وهو لايعتم أن يهزأ بأولئك الذين اتخذوا من العمة مظهراً للتدين . ومن سماكتها دليلاً على الورع ، عندما يحدثونه عن الفلاح من التل ، في أواسط القرن الماضي الذي كان يتعمم بعمة كبيرة . وانه مرة أراد أن يظهر صكاً في مبيع أو مشترى ، فأنزل من قمة رأسه عمته التي هي كالبرج ، الى الارض . واخذ ينقب من ثنايا عمته على الصك ، فأخرج من الثنية الأولى أوراق الميري . ومن الثانية أوراق الذمم على أهل البلد . ومن الثالثة مشطا وخلالاً ومقصاً ومرآة . ومن الرابعة مكاتيب يخبئها ، ومن الخامسة الصك المفتش عليه من صكوك وحجج . فكانت عمامته كأنها خزانة أوراق أو صندوق الحوائج »(١٤) .

والطربوش المذكور أصبح له باعة مختصون . وهو على أصناف منها الطربوش المعتاد ، ثم المصري والمغربي . وكل طربوش له طرة على حسبه ، أي « شرابة » . منها الطرر « الملكية » ، ومنها الطرر « العسكرية » ، ومنها الطرر « العباسية » . وكل منها على صفة مخصوصة . وغالب أهالي دمشق يلبسون الطربوش العادي ، وما بقي من أطراف البلدان وكافة أهل القرى يلبسون الطربوش العباسي(١٥) .

ويستطرد القاموس ، في مكان آخر ، الحديث عن الطرة فيقول : « كانت أولاً طويلة وعريضة جداً ، تتدلى على الكتفين وتنتشر على الرقبة ، واطراف الكتف . يقول بعضهم إن حكمتها كانت لوقاية نقرة القفا من الشمس ، والرياح

---

(١٣) راجع القاموس ص ٣٧٦ .

(١٤) راجع القاموس ص ٣٧٧ .

(١٥) راجع القاموس ص ٢٩٢ .

اللاسعة . ولم تزل تصغر حتى صارت بالهيئة المعروفة مما لافائدة فيها الآن ، إلا انها زي خاص ، وهي الفارقة بالشام بين فرقة الدروز وغيرهم ، لأن الدروز يتعممون على الطرابيش بلا طرة ، وأما غيرهم فبطرة »(١٦) .

والطربوش المعتاد بحاجة ، بين الفينة والفينة ، وفي مناسبة الاعياد ، خاصة ، الى كي بواسطة قوالب نحاسية . منها مايعرف بـ « البوغلي » و « العزيزي » و « اليارم زحاف » وغيرها ، على حسب طلب من يكوى له . وذلك انه يضع في حانوته دكة من خشب . ويصف عليها تلك القوالب النحاسية المجوفة . ويكون تحت كل قالب ثقب في وسط الدكة ملبس من حديد لوضع النار به . وذلك لتسخين القوالب . فيدخل لدكانه من أراد كي طربوشة . فغبٌ أن يقيم الطرة عن الطربوش ، يرشه بالماء ، ويركبه على القالب الذي يرغبه صاحب الطربوش . ويركب فوقه قالباً ثانياً ، له يدان من خشب ، يمسكهما الكواء ، ويكبس بقوة فوق ذلك القالب المركب عليها الطربوش جملة مرار . حتى اذا بلغ حده فيرفعه وقد انكوى . فيركب عليه الطرة ويمسحه ويكويه . وغالب الفقراء والمتوسطين اذا عتق الطربوش يعطونه الى الكواء يصبغه ويمسحه ويكويه فيخرج كانه جديد »(١٧) .

ثم ان القاموس لم يهملْ في حديثه عن لباس راس الرجال لباس رأس النساء . فيحدثنا عن **الربطة** التي كانت النساء يعصبن بها رؤوسهن . « إلا انها كانت كبيرة هائلة تلف على طاقية مخصوصة لفائف وعصابات ، من مناديلْ عديدة وغيرها ، حتى تصير هيئتها كجرن الحمام الصغير . ومن النساء من كن يضعن على اطرافها بنوداً ، لها طرّ يعلق عليها ذهباً ، أو حلية أخرى » . وكان لف الربطة معقداً الى حد توجب وجود نساء مخصوصات للقيام بها واتقان صنعها . « يربطن بها المناديلْ بعد طيها طياً خاصاً ، وشكلها بدبابيس ، وصرف وقت كبير في هندستها ، واتقان تكويرها . وكان يتفق في ذلك العصر أن يكثر عند اللفافة المذكورة ، الربطات . وتزدحم عليها النساء . ويتسابقن تعجيلها إمّا لِعُرسٍ او نحوه » . ويبدو أن التطور نال من الربطات اشد منال ، وغيرها لتحل محلها الطرابيش الخاصة بالنساء . فكن يتعممن عليها . ثم بطلت هذه الطرابيش أيضاً . « ولم تزل تتقلب عليهن الأزياء التي للرجال والنساء ، الى هذا الزي الآن . وكانت الربطة في الاغلب للأكابر من النساء والفتيات أو المقلدات .

---

(١٦) راجع القاموس ص ٣٧٨ .

(١٧) راجع القاموس ص ٣٩٦ .

ولم تكن لهن كلهن . وذلك لانها كانت تساوي قيمتها نحواً من مائتي قرش فاكثر، لكثرة المناديل الحريرية ، وما ماثلها من ذوات القيمة »(١٨) أما النساء الفقيرات فكن يتعممن بطرابيش مفروش عليها طرة وفوقها نحو ثلاثة مناديل »(١٨) .

هذه الأزياء التي تحدث عنها القاموس كان أغلبها قد طواه الزمن ، وأصبح أثراً بعد عين . وقد رويت اخبارها لواضعي القاموس ممن ادرك جانباً منها للرجال وللنساء ، أو سمعها عن آبائه . وإذا كان القاموس يعتبر « هذه المرويات تدخل الآن في انواع العجائب ، ولا يتمالك سامعها أن يستغرق في الضحك وان كان وقوراً » فما تول نسائنا ورجالنا الآن ، وقد أصبحت أزياء زمن القاموس ايضاً أثراً بعد عين ، وتبدلت الأذواق ، واصبح الراس ، في المدن بشكل خاص ، لايطيق ، في الغالب الاعم ، حمل شيء ، عارياً ، إلا من شعر أو شعيرات صفت على هذا النحو أو ذاك ؟

لبـاس الجسم

لم يتحدث القاموس كثيراً عن لباس الجسم وأنواعه وأزيائه ، وفوارقه بين الرجال والنساء والاولاد ، وانما تحدث عن انواع من النسيج يتخذ اكسية تصنع سرابيل ، اي البسة على حسب حال اللابسين . والملابس تختلف أزمنة كالشتاء والصيف ، وأمكنة ، كالقطر الحار والبارد . وأشهر أنواع النسيج المحلي الآلاجة ، وهي أقمشة الحرير والغزل ، وتكون الآلاجه باشكال مختلفة ، والوان متنوعة ، واسماء كثيرة . فمن اسمائها : الهندية ، والقطنية ، والمصرية ، وكمخة ، ومثمنة ، ومسننّة وعطافية »(١٩) .

ويقطع كل ثوب تسعة اذرع ، أو تسعة أذرع وربع . وتسمى هذه القطعة « صاية » . وهناك نسيج الديما أيضاً . وهي أثواب تنسج من القطن . والديما هي « كسوة أهل بلدتنا وغيرها من الفقراء »(٢٠) .

ويبدو أن هذين النوعين من النسيج كانا يشكلان المصدرين الاساسيين للباس الناس من شعبيين وغير شعبيين . وهذا بالاضافة الى انواع الجوخ المستوردة ذات الالوان البسيطة كالاسود، والازرق والاحمر، أو المنقوش الملون، عدا عن الاقمشة الاجنبية الاخرى . واغلب الظن أن زي اللباس الشعبي كان القميص والشال المعروف بالفراماش ، والسليمي ، والخراساني ، بالاضافة الى

---

(١٨) راجع القاموس ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

(١٩) راجع القاموس ص ٣٩ .

(٢٠) راجع القاموس ص ١٤٧ .

انواع الاكمار الرجالية والولادية ، والتي يستعملها كافة أهل القرى والغالب من أهالي دمشق ، فضلا عن الثياب المطرزة . ولا توجد بين ايدينا مادة تعين على دراسة انواع الملابس الرجالية والنسائية والولادية الداخلية منها والخارجية ، واختلافها بين الصيف والشتاء ، وبين الاماكن الحارة والباردة ، الريفية والمدنية وحتى بين القرى ذاتها ... الخ . وكما كان أكابر القوم والموسرون يقبلون على شراء فاخر الاقمشة ،وغالي الثياب ، فان كثيراً من الطبقات الفقيرة كان يستعين على تأمين ملابسه من الملابس المستعملة التي كان لها ، مع الامتعة المتنوعة ، سوق خاص في دمشق هو سوق الاروام ، وسوق أخرى هي « سوق النسوان » ، وسوق ثالثة هي « سوق القميلة » .

لباس القدمين

عرفت القدمان انواعاً متعددة من اللباس . منها القديم ، ومنها الجديد . وهي انواع تختلف باختلاف الناس ومنازلهم وطبقاتهم ، واماكن سكنهم في القرية أو في المدينة، وباختلاف زمن الشتاء والصيف. بين هذه الملابس:

القبقاب : وهو يصنع من خشب الصفصاف والجوز . وتنجر قطعة خشبه التي تقص بطول نصف ذراع فاقل ، وعرض ثمانية قراريط ، تنجر على هيئة الرجل . ولذلك تختلف مقاييس القباقيب باختلاف سن الانسان وجنسه . فمن القباقيب الولادي ، ومنها الرجالي ، ومنها النسواني . والقبقاب الذي كان مرغوباً في الزمن السابق لزمن القاموس هو القبقاب « الشعراوي » الذي يعمل له رجلان بمقدم ومؤخر القدم تطول عن نصف ذراع . وهناك نوع يسمى بـ « نصف الكرسي » أقصر من الاول . وقد فات ركب هذه الانواع في زمن واضعي القاموس .

أما القبقاب الذي كان مرغوباً في زمن القاموس فهو قبقاب « المهاجرين » نسبة للتعديل الذي أوجده السكان المهاجرون من الجراكسة على القبقاب المألوف . فقلد الدمشقيون هذا القبقاب ورصعوه بفصوص الصدف . ويتحدث القاموس عن شكله بأن « مقدم قدمه لاصق بالأرض ، ولمؤخره كعب بطول ثلاثة قراريط » ، كما يتحدث عن شكل آخر معروف بـ « الكندرة » وصنعته قريبة من صنعة قبقاب المهاجرين . إلا أن مقدمه ومؤخره ذو ارجل بطول أربعة قراريط لاصقة بالقبقاب . لأنها تنزل في تجويفتين من مقدم سطح القبقاب ومؤخره ثم تغرى بالغراء ، وهي ترغب لحمامات دمشق ، وقد تلبس ايام الشتاء من قبل كثير من الفقراء اتقاء لأوحال الطرق .

إن الطلب على القبقاب طلب واسع . ف « كافة نساء دمشق يلبسن القبقاب في البيوت ، والاولاد الصغار ، والبعض من أهل القرى » . واتساع الطلب هذا جعل للقبقاب سوقاً مخصوصة ، هي « سوق القباقبية » حيث يصنع بمهارة وفن واتقان لاسيما المرصع منها بالصدف وتباع ، بالاضافة الى وجود دكاكين متفرقة هنـا وهناك ، وتجار مخصوصين يتجرون به الى خارج دمشق .

البابوج : عبارة عن نعل أصفر بلا دائر . وهو نعل يلبسه أهل العلم وفقراء الطلبة والنادر من النساء العجائز ، على نحو مايحدثنا عنه القـاموس . وهو أنواع . منه مايلبسه نساء الفلاحين ، وهو على أنواع أيضاً ، حسب اصطلاحاتهم بملبوسهم . فان لكل قرية طرازاً مخالفاً لغيرها. ومنه نوع يسمى «الاسلانبولي» رقيق مكشوف ، داخله قطعة جوخ بلون جميل . ويضيف القاموس قائلا : « وقد كان من نحو ثلاثين سنة ، جميع نساء دمشق يلبسن البابوج مع المست ، وهو الخف . والأكابر منهن يلبسن المست مع البابوج الاسلانبولي . ثم لازلن يتمدن شيئاً فشيئاً حتى صرن يلبسن الكنـادر والكواليش والسكربينات الافرنجيـة المختلفة الاشكال والغالية الاثمان ، الى زماننا هذا وهو سنة ١٣٠٩ » .

كان الرجـال والنساء يلبسون المست والبابوج . ولذلك راجت هـذه الصناعة ، في الزمن الأسبق . ولكن تبدل الاذواق ، وظهور أشكال جديدة من البسة القدمين جعلت حرفة البوابيج تتراجع حتى لم يبق من صناعتها ، زمن واضعي القاموس ، إلا القليل . وهم يشتغلون للفلاحين الباقين على طرازهم القـــديم .

المست : هو الخف المعمول على شكل البوتين في زمان القاموس . يصنع من الجلد الاصفر او الاسود ، بدون كعب . وقد راج هذا الملبوس في الزمن السابق لزمن واضعي القاموس . اما في زمانهم فقد قل لابسوه ، وتأخرت صنعته ، وقل الطلب عليه كالبابوج .

الصرماية : هي نعل أحمر بدائر من دون كعب . يلبسها، كمايقول القاموس، كثير من أهل الشام وأهل القرى بتمامها . وهي أنواع . فمنها لطيف الشكل يسمى ب « الحلبي » يلبسها بعض أهالي دمشق . ونوع يعرف ب « نصف كشفه » يلبسها أهل القرى . ومنها نوع أصفر يلبسه أهل العلم . وصناعتها رائجة حتى الى مابعد زمن وضع القاموس .

الكندرة : لفظة جديدة في لباس القدمين . ومنها صانعها الكندرجي . وهو ، كما يقول القـاموس ، « صـانع النعال المشهور . فمنهـا المعروف بالكندرة ،

والصباط ، والكالوش ، والجزمة واصناف كنادر النساء » . يصنعها الكندرجي من اصناف الجلود المعروفة باللماع ، و « الكشي دريس » ، و « الدودة دريس » و « البويا » ، و « الجلد » الاصفر والاحمر ، و « الكلاش » المستوردة .

والطريف في هذا المجال ان الكندرة عندما نزلت الاسواق، واخذت بمنافسة الخف والبابوج الاصفر والصرامي الحمر ، وشاع امرها في حدود عام ١٢٨٠ ، اخذ بعض المتنطعين يعتبرونها من زي الفرنجة الذي تجب محاربته ، وعدم السماح باستعماله . وشنوا ، بالتالي ، حرباً عليها ، ولكن الجديد مالبث أن ثبت أمام القديم ، وأخذ باكتساحه . وبدأ الورع وغير الورع يلبسها ، حتى راجت صنعتها في دمشق ، رواجاً عجيباً . وأصبح لها أسواق متعددة ، وغدا الاقبال على شرائها ولبسها كبيراً جداً .

الزربول : هو المداس الكبير الغليظ . يعمل ويصنع في سوق مخصوصة هي « سوق الزرابلية » . وهو لباس الفلاح على العموم . وربما بقي في رجليه سنين عديدة . وكلما ثقب أسرع الى اصلاحه بالرقع الغليظة . حتى يصبح الزربول ، بعد زمن ، ثقيل الوزن ، غير مساعد على خفة حركة الرجلين . وربما ضرب المثل للرجل الكبيرة بأنها تحتاج الى زربول .

الأفــراح

من طبيعة الانسان انه يألف المرح والسرور والغبطة . ولهذا يسر الانسان لمناسبات الافراح . وبعض المناسبات تقررت تاريخياً فحافظ عليها واحيى مناسباتها كالأعياد . وبعضها يفتعلها ليدخل السرور الى نفسه ، وليتمتع بالبهجة ، كالأدوار ، وليالي الطرب ، والنزه . وبعض المناسبات تدل في أساسها ، على مرحلة هامة في تطور الانسان ، وعلى حدث جميل فريد في حياته ، كالأعراس. وبعضها يدل على أداء واجب ديني ، وعودة من مشقة غير مأمونة ، فيحتفل بالغائب بعد غياب ، ويبارك له مسعاه ، ويشكر الله على سلامة الوصول كالعودة من الحج . وبعضها مناسبات تبهج قلب الأقرباء رغم آلام جراح الأطفال ، كالختان . وبعضها يدل على بلوغ درجة علمية معينة كالختمية .. الخ .

ونحن واجدون بين طيات القاموس صوراً وأخباراً عن كثير من هذه الأحداث عرضها من خلال بحثه « صناعاته » . فكانت صوراً وأخباراً محدثة عن عادات وتقاليد ومفاهيم اعتبرت جزءاً من حياة الشعب . بعضها اندثر هذا المظهر منها أو ذاك ، وبعضها حافظ على وجوده ، وبعضها أصابه التغيير والتبدل ، وتآلف من روح العصر الجديد .

الأعراس : العرس هو حفلة زفاف العريس الى عروسه ، والعروس الى عريسها . ويبدأ الاستعداد لها قبل أيام على الأقل . فتصلح الفتاة من شأنها ، ويصلح الرجل من شأنه . وقد يبدأ الطبال والزمار عملهما الدعائي لهذه الحفلة قبل ثلاثة أيام . « فلا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار ، والرجال والأولاد آخذون في اللعب بالسيف والعصا . وأوقات السرور المصطلح عليها عندهم ثلاثة ايام يمرحون ويلعبون . وأبو « ناعسة » ، وهو أحد النور ، يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة ويقوم ببعض الالاعيب . حتى اذا دخل اليوم الرابع يزفون العروس لعريسها ، وتتفرق تلك الجموع مع الطبال غب أن يأخذ جائزته من العريس »(٢١) .

وبين التقاليد التي كانت مرعية حتى قبل وضع القاموس نقش أيدي وأرجل العروس قبل الزفاف . « فكل عروس زفت الى زوجها لا بد أن تنقش يديها ورجليها . ويشترك معها من يرغب من أهلها وذويها . فيؤتى بالنقاشة قبل

---

(٢١) راجع القاموس ص ٢٨٨ .

يوم الزفاف ، وتباشر اولا بتنقيش العروس ، فتنقش يديها ورجليها ، وبعدها من يرغب من أهلها فتنقش أيديهم فقط »(٢٢) .

والنقش يكون باذابة كمية من الشمع العسلي على النار مع اللبان الاسود ، وتنقش به اليد عروقاً متنوعة ، بواسطة قشة تغمس بذلك المذاب ، وينقش بها ، فيجمد على اليد بالحال ، وغب ذلك يوضع على تلك الورق معجون الحناء ، وتلف الايدي والارجل بلفائف من قماش عتيق . حتى اذا ثبتت الحناء على النقش يلقون تلك اللفائف ويقلعون الشمع واللبان مع الحناء ، فتظهر تلك العروق التي صبغت من الحناء بلون أحمر . فيطلونها ب «الغشوش» وهو ماكان من مسحوق القلي والزرنيخ والحناء البيضاء والفلفل والبهار ، اجزاء متساوية ، يمزجونها بقليل من الدبس ، يدهن محل النقش مقدار ربع ساعة ، ثم يغسل ذلك الطلاء ، فيصبح ذلك اللون احمر أسود قاتماً(٢٣) » .

وكان النقش ، قبل زمان القاموس ، فاشياً بين الاغنياء والفقراء على السواء . اما في زمن القاموس فقد قلت الرغبة فيه ، واقتصر على لفيف من العوام في أطراف البلد .

وقد قضت العادات المرعية ان المراة هي التي تنتقل الى بيت الزوج ، وانتقالها هذا مع اهلها واصدقائها ومدعويها لايتم بنفس الابهة والاحتفالات التي يتم بها زفاف العريس الى عروسه في داره .

وكان يسبق استقبال العروس الى بيت عريسها ، قبل زمن القاموس ، اعمال تقوم بها دايتها الماشطة ، « فهي التي تمشطها ، اي تسرح شعرها ، وبذلك سميت ماشطة » ، وتلبسها ثيابها ، وتزينها بأصناف الحلي والحلل والشكول(٢٤) . أما في زمن القاموس « فقد اصبح المتكفل بتزيين المراة أهلها واقاربها وذلك لعموم التمدن ، واضمحلال التغفل » .

اما الاحتفال الاكبر فيحدث للعريس عند زفافه ، ويبدأ الاحتفال بالباس العريس لباس العرس في احدى دور اصدقائه او اقاربه مابين الصلاتين المغرب والعشاء ، وبعد الانتهاء من ذلك يأتي شخص لقبه المجري لابساً ثوباً احمر يصيح بصوت جهوري : سعيد من يصلي على النبي، قلب العامر يصلي على النبي . الخ وبيده مجمرة فيها انواع العود والبخور، ليسير امام العريس هو ويتابع صياحه،

---

(٢٢) القاموس ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

(٢٣) القاموس ص ٤٨٢ .

(٢٤) القاموس ص ٤٠٨ .

بينما يكون أهل العريس وجيرانه وأصحابه وخلانــه واهل محلته قــد نظموا « عراضة » بعد أن أتي بالمرفعجية فيطبلون ويزمرون . ويحمل بعض المحتفين السلاح ، ويصيحون بأصوات مختلفة ، بأدوار حماسية عامية مقفاة ، ويدورون بالاسواق ووراءهم العريس يكتنفه أهله وأصحابه من الرجال والشيوخ، وامامهم الفوانيس والمصابيح . وأمــام العريس المجري يصيح بما تقــدم الى ان يصل العريس لداره(٢٥) حيث يستقبل بالأهازيج والزغاريد . وهنا تتداخل أهازيج الرجال خارج البيت معزغاريد النساء وتهاليلهن داخل البيت، ثم يجلس العريس الى جانب عروسه ، وتبدأ حلقات الرقص والاغاني والاغاريد والموسيقى .

ويكون أهل الزوج قد أحضروا « شمعة لاتقل عن ثلاثة اذرع ، مقصورة بيضاء مزينة بأصناف النقوش والفاكهة من رمان ، وأجاص ، وتفاح وغيرها ، المعمولة من الشمع والملصق ذلك بالشمعة ، لتوضع الى جــانب العروسين . وبعدها يدخل العريس مععروسه الى غرفتهما ليختليا فيها، وتتتابع الاحتفالات حتى الصباح ، حين يدعى الجميع الى اطــاييب المآكل والحلوى ، وبعدهــا يتفرق المدعوون .

أما في القرى فقد جرت العادة ، بعد التلبيس ، بين العشائين ، أن يدور المحتفلون بالعريس حول القرية ، « وكل من الحاضرين يعطى بيده شمعة من قبل أصحاب العريس مشعولة ، والنساء أيضاً ، عند زف العروس لبعلها ، « تحمل » كل واحدة منهن بيدها شمعة مشعولة ، وأمام « العروس » شمعة كبيرة تمسكها إحدى اقاربها(٢٦) » .

ولا بد في ليلة الزفاف من الاشارة الى دور المــاشطة التي كــانت تتمتع بصلاحيات خطيرة ، ومنزلة كبيرة . فهي تلازم العروس ليلة زفافها ، من أجل الاستئناس بها . فتجلس قريبة من باب غرفة العريسين ، تنتظر نداء العروس « لغرض لهما ، من شرب ، أو إحضار أم العريس أو أخته ، أو عمته ، أو الذهاب بالعروس الى قضاء حاجة ، أو فرش الفراش وامثال ذلك . ولا تزال على باب العروسين حتى الصباح . ويكرمها الزوج بمجمع انواع الحلوى ، مــع شمعة عسلية ، ويضيف الى ذلك دراهم على قدر ثروة أصحاب العرس(٢٧) » .

وقد لاتطيق العروس غشيان زوجها وتمانعه في ذلك . « فينادي الزوج للماشطة . فتحضر ، وتمسكها ، أو تقعد على صدرها ، وترفع لهرجليها قسراً .

---

(٢٥) القاموس ص ٤١٧ ــ ٤١٨

(٢٦) القاموس ص ٢٥٨

(٢٧) القاموس ص ٤٠٩

وتشير عليه ان يفعل . وهي تصرخ وتستغيث ، ولا من مغيث . وقد وقع من جراء ذلك حوادث مؤلمة، كثيراً ماافضت الى موت البنت ضحية الجهل المركب(٢٨) »

وقد تفعل الماشطة شيئاً آخر عند عدم الحاجة الى فعل ماذكر . فتنتظر منديل الفراش الدال على بكارة العروس . وتذهب بـه الى الأهل لاثبات عفتها وطهارتها .

وقد تكلف من قبل الزوج بعمل آخر في هذا المجال ، هو افتضاض بكارة العروس باصبعها لعجزه عن إزالته بنفسه . وقد تستحضر بعض الماشطات معها مفتاحاً وتلف عليه قطعة شاش ، وتفتض العروس به(٢٩) » .

هكذا كانت تسير حفلات الاعراس التي يلتقي فيها الزوج لأول مرة ، في الغالب ، بزوجته ، والزوجة بزوجها .

الختمية والختان : عرفت الكتاتيب في بلادنا كأول مدرسة أولية شعبية خاصة ، فيها يلقن الطفل والطفلة ، حروف الهجاء مفردها ومركبها واشكالها ، ويتعلمان مبادىء القراءة والكتابة ويتعرفان الى طرف من الحساب . ويتناول الشيخ أو الشيخة ، لقاء ذلك ، خمسية يتقاضاها كل خميس ، بين خمس وعشرين باره الى قرش ، ومنهم من يأخذ مشاهرة من ٦ قروش فصاعداً . « ولهم مرتبات » ، إذا أتم الصبي السور ، الى سورة «سبح» ، وعند ختمه جزء « عم » ، وكذا اذا وصل الى سورة « ياسين » ، وعند النصف ، وفي الختام . وهذه المرتبات تسمى « حلواناً » ، يكرم بها الشيخ ، ومن في معيته من عريف كبير ، أو معين . وعند الختام يعطى من الاكرام إما ماشرط أولاً ، وإما ماتسمح به نفس ولي الصبي(٣٠) » .

والختمية احتفال يقوم به شيخ الكتاب، بالاتفاق مع أهل الصبي، بمناسبة معرفته قراءة القرآن وختمه له .

ويقوم الاحتفال المذكور ، في هذه المناسبة ، على عمل « نشيدة » للمحتفى به . « وهي اجتماع اولاد مكتبه ، لابسين احسن الثياب ، غب أن يلبس الطفل المذكور الاثواب المقصبة بينهم ، وامامه المجري ، صاحب الترجمة ، لابساً ثوباً احمر ، يصيح بصوت جهوري ، على النحو المذكور في حفلة الاعراس . والاولاد ينشدون باصوات عالية أناشيد الكتاتيب . ويدورون بغالب أسواق البلد .

---

(٢٨) القاموس ص ٤٠٩

(٢٩) القاموس ص ٤١٣

(٣٠) القاموس ص ٤٠٨

ويعودون لدار صاحب النشيدة . حيث يكون هيء لهم الطعام . وبعده يفرق عليهم جميعاً الدراهم . وقد يكتفي بتوزيع الدراهم من غير طعام ، أو بتوزيع قراطيس الحلوى(٣١) » .

وهذا الاحتفال ذاته يمكن أن يقام للاطفال الذين يراد ختنهم . وبعد الانتهاء من ذلك وعودة الاطفال الى بيتهم ، يقوم « المزين » بعملية الختان . ويتعهد الاطفال المختونين جملة أيام بتغيير اللصوق حتى الشفاء ، « وله على ذلك اكرام كل شخص على حسبه . فالاغنياء يعطون المزين لحد الليرة والبعض نصفليرة ، والبعض ريال مجيدي ، والفقير أقل من ذلك(٣٢) » ، وهي عملية « تروج ايام الربيع بدمشق ، حيث يكون موسم الفول الأخضر(٣٢) » .

الحج : يتسم هنا الحج بالاحتفال الرسمي والشعبي عند خروج محمل الحاج من دمشق ورجوعه اليها . فبعد أن يعد المقوّم ، متعهد مشال الركب الحجازي ، مايلزم الحجيج من جمال ، وخيم ومعداتها ، وتخوت ، ومحاير وشباري ، يؤمن العكامين والغلمان والطباخين والسقاية وغيرهم ممن يقومون بخدمة الحجاج ، وقيادة جمالهم ، ونصب الخيم وحلها ، واعداد الطعام ، وتأمين المياه ... الخ يبدأ خروج المحمل من دمشق في موكب شهير « فيخرج الموكب من سراية العسكرية بدمشق لقرية القدم . يحف به مأمورو الملكية والعسكرية أصحاب الرتب ، لابسين الأثواب الرسمية ، كل على قدر طبقته. وتنتشر الناس للتفرج من السرايا الى القدم حيث منزل الموكب هناك . ويحضر للتفرج على هذا الموكب مالا يحصى من قرى دمشق، ومنبيروت وحمصوحماه، والبلادالمجاورة، ويتقدم المجري أمام المحملوالسنجق ماشياً الى القدم(٣٣) »، حيثيودعالحجاج ويعود الناس الى أماكنهم . وعند عودة المحمل من مكة ، يجري احتفال مماثل وتبدأ حركة الركب من القدم الى سراية العسكرية . وينال المجري اكراماكافياً .

هذا مايتعلق بالاحتفال الرسمي . اما الاستقبالات الخاصة ، والتهاني التي تتقبل في دار الحاج ، فلا يتحدث القاموس شيئاً عنها ، وربما كان الأمر كما هو عليه اليوم تقريباً . إذ يفد الناس للسلام على الحاج في داره التي قد تزين بالسجاد والزينات الاخرى مهنئين بسلامة الوصول ، وداعين الله قبول اداء الفريضة ، وان تكون الحجة مبرورة . وبعد تقديم أهل الحاج الضيافة المعهودة يخرج الناس لتهنئة حاج آخر . وهكذا ..

---

(٣١) القاموس ص ٤١٧

(٣٢) القاموس ص ٤٣٦

(٣٣) القاموس ص ٤١٨

التسلية واللهو

المقــاهي : بين امــاكن اللهــو والتسليــة الهــامة المقــاهي . وهــي مكان يأنس اليه من يريد تمضية بعض الوقت ، واللهو بوسائل التسلية المتوفرة فيها : من شطرنج ونرد ، وضومنا ، وضاما وبلياردو ، وورق شدة . . . الخ . . وفي المجتمعات البدائية التي يسيطر عليها التخلف ، وتضيق فيها دائرة النشاط الاجتماعي والثقافي والعلمي ، ويفصل فيها بين الرجل والمراة ، ويتسكع فيهــا الاقتصاد ، ويكثر فيها الطفيليون والعاطلون عن العمل ، في هذه المجتمعات تكثر المقاهي لاحتواء الناس الذين لاعمل لهم ، أو تكثر اوقات فراغهم ، ولا يجدون وسيلة لتمضية هذا الفراغ إلا في مثل هذه الاماكن. واغلب هذه المقاهي، مقاهي للذكور دون الاناث . وقد يوجد نادر منها يضم بعض العائلات . وغالبية قصّاد هذه المقاهي يجلسون فيها منذ الصباح لتناول فنجــان القهوة أو الشــاي أو الزهورات ، وتدخين اركيلة اذا كانوا من هواتها ، حتى طلوع النهــار ، حين يغادرونها الى مراكز عملهم . وإذا لم يكن لديهم عمل واصلوا قعودهم حــتى الظهر ، يقتلون وقتهم بألوان الحديث . وغالبا مايقضونه باللعب بأدوات التسلية المذكورة . وبعد الظهر يكون رواد المقاهي اكثر ايضاً ، حيث يبقون الى العشــاء ، او الى ساعات متأخرة من الليل .

ويتحدث القاموس عن هذه المقاهي قائلا : « والقهاوي كثيرة بدمشق ، فكل محلة لاتخلو من عدة قهاوي . والقهاوي التي ضمن البلدة يكون رواجها كثيراً زمن الشتاء ، وفي فصل الصيف يزهد بها لشدة الحر . وغالب الأهالي ينتشرون لجهة القهاوي « القريبة » كثيراً لدمشق التي تروج في زمن الصيف . كما انها في فصل الشتاء يزهد بها لشدة البرد . وهي الموجودة في جهة المرجة ، على شاطىء بردى فيقعدون بها . ويتناولون القهوة والمرطبات كالليموناضة ، وشراب الورد ، والتوت وغيرها ، ويشربون التنباك والسيكارات ، ويلعبون بتلك الملاهي المشروحة أعلاه(٣٤) » .

اما المقاهي التي تقدم المشروبات الروحيــة ، فهي معدومة في الاحيــاء الاسلامية ، ولا يتوفر بعضها إلا في الاحياء المسيحية . « البعض ممن يتعــاطى المسكرات ، والعياذ بالله ، يذهب لجهة الباب الشرقي في حارة النصارى ، حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجناين في باب توما ، وقاصدوها يتعاطون القهوة مع الاراكيل والمسكرات(٣٤) » .

---

(٣٤) القاموس ص ٣٦٧

ويلتفت القاموس الى العامل الطبقي الذي يلائم بين طبيعة المقهى ووضع الداخل اليه عندما يقول « وبالجملة فالقهاوي متفاوتة في مظهرها وموقعها والداخل لكل يكون على حسبها . وهذه الحرفة ، والحمد لله ، رائجة جداً ، صيفاً شتاء » .

حتى هنا يتحدث القاموس عن المقاهي وروادها حديثاً موضوعياً ، ولكنه مايلبث أن يصب جام غضبه على هذه الأماكن ، وينال من روادها بكل قسوة ، متهماً إياهم في دينهم وعقلهم وشرفهم وأخلاقهم . « وعلى كل حال فلا يدخل تلك القهاوي من كان ذا شهامة أو عقل أو دين ، حيث انها مجمع الاسافل والاراذل(٣٥) » . فمساكين هؤلاء الرواد ، يجبرهم مجتمعهم على العيش اجتماعياً على النحو المذكور ، ويعمل القاموس نهشاً فيهم ، ورغم هذا الموقف منهم ، ولا شك انه موقف الكثيرين من رجال الدين وأهل الصلاح والاخلاق ، في ذلك الزمن ، فان المقاهي كانت عديدة ، وزوارها كثيرين ، والمهنة رائجة صيفاً شتاء ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

بعد هذا ننتقل الى طريقتي لهو شعبيتين هما الكاراكوزاتي والحكواتي . وهما طريقتان تختلفان كل الاختلاف عن المقاهي ، من حيث الرواد ، والوسائل ، والروح ، والهدف . فمعظم رواد الكاراكوزاتي والحكواتي من الناس الشعبيين ، أطفالاً وشباباً وشيوخاً ممن يمجدون البطولة . ويأنفون من الاخلاق الوضيعة . ويتعشقون الشهامة والاباء والإنفة . ويحتقرون الجبن والخسة والدناءة . انهم مع « أبطالهم » الشعبيين في مغامراتهم ومعاركهم ، وحياتهم ، وبؤسهم وشقائهم ونعيمهم وسعادتهم . ترى الحزن يسيطر عليهم عندما تحيق بأبطالهم الصعاب ، ويقعون في المآزق ، وادّين لو انهم يستطيعون مساعدتهم . وترى الفرح والبهجة في العيون والنفوس والحركات ، عندما ينتصر الابطال على الصعاب والاعداء ، وعندما تحاصر الفضيلة الرذيلة ويضرب الخير الشر . إن تمجيدهم لاخلاق ابطالهم الرفيعة هو تمجيد للاخلاق الشعبية الرفيعة ، أخلاق الانفة ، والشهامة ، والبطولة ، والصدق ، والمحبة ، والامل بالخير . وسماعهم لقصص ابطالهم يوطد فيهم الاتجاهات الايجابية في اخلاقهم ، ويضعف سلبياتها . ومن هذه الزاوية كانت طريقة الكاراكوزاتي والحكواتي مدرسة لتعليم وتوطيد الأخلاق الشعبية ، بشكل خاص .

الحكواتي : كان للحكواتي « في كل قهوة وقت مخصوص لالقاء الحكايات . وغالب أوقاته بعد المغرب وبعد العشاء . فيجتمع الناس في القهوة . وتصغي

(٣٥) القاموس ص ٣٦٨

لقوله ، مع السرور والانبساط . وقبل شروعه في الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى ب « الدهليز » وفيها أمور مضحكة ونصائح ، وهي من العجب . ثم بعد اتمامها ، يشرع لهم في اتمام ما كان قدمه لهم في الليلة الماضية . يصور لنا القاموس تفاعل المستعمين مع القاص ، تفاعلاً قوياً جداً ، قد يصل الى حد الخروج على حدود الصبر ، ونبذ الأكل والشرب ، وسيطرة القلق الطارد للنوم ويورد في هذه المناسبة ، مثل ذلك الحمصي الذي لما علم بسقوط عنتر أسيراً عند كسرى ، وتوقف الحكواتي عند ذلك ، اسودت الدنيا في عينيه ، وذهب الى بيته حزيناً رافضاً الطعام ومسيئاً معاملة زوجته ، وخرج الى الأسواق لايقر له قرار . حتى ذهب الى بيت الحكواتي موقظاً إياه من نومه قائلا له : « قد وضعت عنترة في السجن مقيداً ، وانت تنام مستريح البال ، فأرجوك أن تخرجه من السجن وانا اعطيك ماتجمعه من الجمهور الآن . فانني لاأقدر ان أنام وعنترة محبوس مسجون » . فلم يزل الحمصي على حاله من الغضب والهيجان ، حتى اتم له الحكواتي القصة ، واخرج له عنترة من السجن . فطابت نفسه وحسن حاله وخرج شاكراً .

كانت مهنة الحكواتي رائجة جداً . وغالب الناس يكبون على استماعه . ولم يكن عمله ليقتصر على المقاهي ، بل كان كثيراً ما يدعى الى الدور ليُسمع المدعويين قصة أبطاله ، وليشنف آذانهم ويبهج نفوسهم بحديثه عنهم .

الكاراكوزاتي : واذا كان تأثير الحكواتي على المستمعين منحصراً بوقائع قصته ، من ناحية ، وبصوته الذي يتلون حسب وقائع الاحداث ، معطياً نبرة الحزن او الفرح ،او الحماس ،او الشمم والاباء من جهة اخرى . فان الكاراكوزاتي يستطيع التأثير على المستمع لابتعداد أصوات الخيالات ، والمحافظة على الصوت الواحد للخيال الواحد ، فحسب بل وباراءته الاشخاص يتحركون امامه ، يمشون ، ويركضون ، ويركبون الخيل ، ويحملون السلاح ، ويدخلون المعارك ، ويغنون ، ويبكون ، ويلبسون الازياء الملونة ... هنا لاتعمل حاسة السمع فقط ، كما عند الحكواتي ، بل وتضاف الى ذلك حاسة البصر ايضاً ، وهو امر هام في التأثير على نفس المشاهدين المستمعين .

وقد وصف لنا القاموس مكان عمل الكاراكوزاتي ، ووسائل عمله ، وحركاته، وتقليده لاصوات الخيالات ... « وصاحبها يشتغل بالقهاوي، ينصب ستارة من قماش ، في زاوية القهوة ، يربط بأسفل الشاشة خشبة على عرض الستارة . ويضع فوقها سراجاً يوقد من زيت الزيتون. وهو يقف خلف الستارة، يلاعب الخيالات ، ويأتي لكل واحدة منها بلغة وكلام خاص . فتارة يضحك ،

وتارة يبكي ، وتارة يغني ، على حسب حركة الخيالات ، وتكون القهوة مملوءة بالمتفرجين ... وقد يوجد من اتقن هذه الحرفة مع سرعة حركاتها ، من يكون صوته جميلا فيقصده الشباب والشيوخ يتفرجون على العابه ، ويترنمون بجميل صوته(٣٦) » .

وإذا كان الطفل يفرح ويطرب لما يسمعه ويشاهده ، واذا كان الغافلون يتخذون هذا لهواً ، فان العباد العلماء يعتبرون مما يشاهدون ويسمعون ويعلمون أن الله مانصب هذا إلا مثلاً . فقبل ان يبدأ الكاراكوزاتي تحريك صوره على الطريقة التي يقتضيه فصل القصة ، « يخرج شخص يسمى « الوصاف » . فيخطب خطبة يعظم الله فيها ويحمده . ثم يتكلم على كل صنف من الصور التي تخرج بعده من خلف هذه الستارة . ثم يعلم الجماعة أن الله تعالى نصب هذا مثلاً لعباده ليعتبروا ويعلموا أن هذا العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها . وان هذه الستائر حجاب سر الفد ، المحكم في الخلائق . ومع هذا كله يتخذه الغافلون لهواً ولعباً(٣٧) » .

صندوق الدنيا : وإذا كان الكاراكوزاتي والحكواتي وسيلتي لهو شعبيتين الى حد بعيد ، فان صندوق الدنيا ، « عجائبك عجائب » ، وسيلة محدودة التأثير ، قليلة الاهمية نسبياً ، ومع هذا فلها زبائنها وعشاقها .

فبعد أن يصف القاموس تركيب الصندوق ، وعيونه البلورية المكبرة ، ولولبيه اللذين تلتف حولهما الصور على طول عشرة أذرع بعرض الصندوق ، يأخذ بالحديث عن عملية العرض . فيحمل صاحب هذه الحرفة صندوقه ، الذي هو راس ماله . ويجلس به في مجتمع العامة . فيهرع اليه الاولاد الصغار والبعض من العوام والفلاحين يتفرجون على هذه الصور من الاثقاب المار ذكرها ، وهو يدير احد اللولبين الفارغ ، حتى إذا مرت تلك الصور بأجمعها ، والتفت على اللولب التالي انتهت الفرجة . حينئذ يلقي ستائر على الاثقاب من داخل الصندوق فتحجب به الاثقاب والصور . فمن رغب ان يعيد النظر أو ينظر ، يدفع له الاجرة سلفاً . ومن اكتفى ذهب لسبيله(٣٨) » .

المسرح : بعد هذا يأتي المسرح ليكمل الكاراكوزاتي والحكواتي وصندوق الدنيا . فعلى خشبته تبرز الاشخاص ذاتها بأجناسها ، ولباسها ، وازيائها ، واسلحتها ، وحركاتها ، وخصائصها ، ولهجات اصواتها . فلا حاجة لحكاية

---

(٣٦) القاموس ص ٣٨٤

(٣٧) القاموس ص ٣٨٥

(٣٨) القاموس ص ٣٠٣

فقط ، ولا لصور تتحرك وتتحدث فقط ، بل الانسان ذاته ينتحل الشخصية المطلوبة بكل مالها وما عليها . ويعرض الاحداث امام المتفرجين بدقائق صورها وحركاتها وتواليها . يضحك احياناً ، ويبكي أحياناً أخرى . يغضب آناً ، ويفرح آناً آخر . يرقص حين يجب الرقص ، ويغني حين تجب الاغنية .

وقد تحدث القاموس عن هؤلاء فقال « والقائم بذلك شركة مؤلفة من جملة اشخاص، تستعد لوجود مايلزم الى التمثيل من اثواب مصنوعة للرجال والنساء، واسلحة وغيرها . يعينون وقتاً بمحل مخصوص يمثلون به . وبصدر ذلك المحل ايوان يعرف ب « المرسح » وله ستار يرفع وقت التمثيل ، ويسبل حين الاهتمام بما يرتبونه من تغيير الملابس . فيمثلون هيأة من مضى من الاوائل ، كالملوك والامراء . وما يتعلق بمن بلي بالعشق ، وما جرى معهم . يمثلون في كل ليلة رواية تشتمل على جملة فصول . وكل فصل يأتون به بما يناسب الحال من اللعب والرقص ، والتشبه بالملوك والوزراء والامراء والعشاق مع تغيير الهياة بالملابس وغيرها(٣٩) » .

لقد اخذ هذا العمل الفني الجديد المتطور يكتسح سوق المشاهدين . ويروج رواجاً عجيباً طوال ست سنوات بدء من عام ١٢٩٥ . واصبح المحل المعد للتمثيل يغص بالمتفرجين . « بحيث لو تأخر شخص عن الميعاد المضروب ، لم يجد محلاً للجلوس به » . ونشأ عن ذلك بعض المفاسد المتمثلة « في أن الصانع الذي يعمل في يومه من الأجرة يصرفه على التفرج عليها ، ويترك أولاده وعياله يتضورون جوعاً(٣٩) » . فسعى اعداء التقدم والتطور عند أولى الامر . وما زالوا في مسعاهم حتى « صدر أمر سام من مقام الصدارة بمنع « القوميديا » بالمرة . فمنعت لوقتنا هذا . سوى انه بتلك المدة كان يأتي من البلاد جماعة من نساء ورجال . والغالب يكونون من الأرمن والروم . يمثلون الروايات الافرنجية ، مشتملة على فصول . منها تمثيل ، ومنها رقص ، وفصول مضحكة ، ولكنها تكون بصورة موقتة ، يقصدهم من يرغب بالفرجة عليهم(٤٠) » . « وفي عام ١٣٢٤ حضرت جوقات من مصر، وسمحت لهم الحكومة باعادة التمثيل القديم، فأخذوا يمثلون الروايات العربية المهمة . وصار يقصد الفرجة عليهم اهالي دمشق افواجاً افواجاً(٤٠) » . وهكذا طويت صفحة المنع، وعاد المسرح يحتل منزلة هامة في تسلية الناس ولهوهم .

جلسات الانس والطرب : تحتل جلسات الانس والطرب مكاناً هاماً بين

---

(٣٩) القاموس ص ٤٧٠

(٤٠) القاموس ٤٧٠ — ٤٧١

العوامل المؤدية الى البسط والانشراح . ونجاح هذه الجلسات منوط بالمطربين والعازفين والشكل الحسن ، والمآكل اللذيذة والاضحاك الفني .

فقد اعتاد اكثر الشاميين ، كما يحدثنا القاموس ، الذهاب في زمني الربيع والصيف الى المنتزهات والبساتين لترويح النفس . وقد يصطحبون معهم مغنياً يشجيهم بصوته الرخيم على أنغام العود آنا ، و « نوبة الآلات » أحياناً : من ضارب على القانون ، وضارب على العود ، وعلى الكمنجا ، وعلى الدف ، وعلى النقارات والدربكة . وكان بين المنتزهات الشعبية المطروقة ايام الصيف ، منتزه « عين القصارين » حيث تقوم المرجة الآن . فهو « منتزه لطيف . ماؤه عذب . يقصده غالب أهالي دمشق . حيث يوجد هناك قهوه‌جي مستعد بوجود كراسي ، وحصر ، وقهوة وأراكيل لمن يستعمل الاركيلة . فيقعدون عنده يتنشقون الهواء العليل . وكثير منهم يأخذ طعاماً يتناوله هناك . وهو محل لطيف جداً . أرضه مفروشة بالكلأ الاخضر ، تحف به أشجار الحور والصفاف(٤١) » .

إن ولع الدمشقيين بأماكن النزهة ، وبالتمتع بالهواء العليل والمناظر الجميلة ، أكبر من أن يوصف . وقد حدثنا القاموس عن جانب من جمال الشام لاسيما في فصل الربيع حين « تكتسي الاشجار بحلل الزهور المدهشة بألوانها وأنواعها . وتفيض الانهار بالمياه المتدفقة . فينطلق المتنزهون الى منتزهاتها الشهيرة : كدمر ، والربوة ، والوديان ، وجهات الغوطة . وبالجملة : اينما توجه الانسان بتلك الاوقات فانه لا يمكنه وصف ما يدخل عليه من النشاط والسرور واستنشاق الهواء الجيد مع روائح الزهور البديعة ، ومناظره المدهشة خصوصاً اذا صعد الى المحلات المرتفعة ... لذلك فالكثير من الناس ، رجالاً ونساءً وأولاداً يعملون « السيارين » في تلك المنتزهات الجميلة . فيتجمعون جمعة مؤلفة من أصحاب وخلان . ويأخذون معهم ما طاب من المأكولات . ويركبون العربات . ويقصدون تلك الجهات . وفي الصيف عند اشتداد الحر يقصدون الرياض الوافرة المياه ، كدمر والهامة ، والربوة والجديدة وعين الفيجة ، والاشرفية . وفي كل يوم من الساعة العاشرة نهاراً « اي بعد العصر ــ المؤلف » يقصد كثير من الشاميين تلك الجهات ، راكبين العربات ، مصطحبين بطعام المساء ، يقعدون

(٤١) القاموس ٣٥٤

الى الساعة الرابعة ليلاً خصوصاً في الليالي المقمرة ، ويأوون الى دورهم . والبعض يتناول طعام العشاء . ثم يسير اليها ، ويمكث الى نحو نصف الليل . والعربات لاتفتر عن الذهاب والاياب (٤٢) » .

اما اذا كان الوقت شتاءً ولا سبيل الى الخروج الى المتنزهات، فيستعيض الدمشقيون عن ذلك بـ « الدور » ، حيث يجتمعون في ليلة من كل أسبوع عند احدهم ، فيأتي لهم صاحب الدور بمغن وعواد أو نوبة الآلات . كما قد يأتيهم بأناس يحترفون فن الاضحاك . وهكذا يقضون الوقت بين التنكيت ، وسماع الموسيقى ، والحان الغناء . وبعض انقضاء هزيع كبير من الليل ، تقدم المأكولات، واغلبها من الحلويات ثم يتفرق الحضور بانتظار الدور القادم .

---

(٤٢) القاموس ص ٣٠٦

الاتــراح

قد يكون الموت أهم حدث في الأتراح ، لاسيما اذا كان الفقيد عزيزاً ، محبوباً ، لحسن أعماله وجميل سيرته . والعادات والتقاليد التي ترافق حدث الموت عادات وتقاليد قوية التأثير . وتحترم بكل التفاصيل تقريباً . وتنتقل من جيل الى جيل . ويكاد يستوي في رعايتها الفقير والغني ، والجاهل والعالم ، والكبير والصغير ، والمبدئي وغير المبدئي ... الخ . واذا كان الجوهر في هذه الامور يبقى ثابتاً تقريباً ، فهذا لا يمنع من تبدل وتغيير في بعض المظاهر والتفاصيل. وهذه العادات والتقاليد تختلف وتتباين بتباين الاوطان، والشعوب، واختلاف الاديان والمعتقدات . وقد تتباين بعض التفاصيل ، في بعض الامور ، حتى في الوطن الواحد ، وعند الملة الواحدة ، بين بلدة واخرى ، أو طبقة وطبقة أحياناً .

وقد ابرز لنا القاموس صوراً زاهية عن اهم العادات والتقاليد في شامنا عند حدوث الوفاة . وبين لنا كيف أن بعضهم اذا مات أحد الاغنياء أو كبار التجار ، وفي الزمن السابق لقاموسنا ، كان يستأجر اللطامات النادبات النائحات ، ويوفونهن أجورهن سلفاً . ليقمن ، مع الاهل ، بما يجب اعرابه عن الخسارة الفادحة نحو الميت المسجى . وطبيعي أن يكون العمل عند هؤلاء متناسبا مع الاجر : « ان كان كثيراً فكثير ، وان كان قليلاً فقليل » . وكان جمع اللطامات مؤلفاً من اربع الى عشر نساء . « يلبسن الثياب السود . ويسخمن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم . ويحللن شعورهن على أكتافهن . ويدرن بأطراف الدار ، وهن كالرئيس ، وأهل الميت حولهن كالتلاميذ . فيأخذن بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعدون صفات الميت ومحاسنه وما كان عليه في حال حياته من بره واكرامه وعطائه ، وإحسانه للفقراء والارامل والايتام وغيرهم . ويلطمون على صدورهن وأرجلهن ، ويصيحون بالولاويل . ويساعدهن على ذلك أهل الميت الى أن يخرج بالميت من الدار . وحتى اذا كان الميت قضى نحبه بغير بلده غريباً وحيداً ، وبلغ أهله ، فيأتون باللطامات فيقيمون ذلك المأتم ثلاثة أيام متوالية(٤٣) » .

---

(٤٣) القاموس ص ٤٠٣

واذا كان أثر هذه العادة قد ضعف عن قبل ، فمع هذا لاتزال طوائف من اللطامات تندب للعمل عند اهل هذا البيت أو ذاك . وموقف القاموس من هؤلاء النسوة المأجورات ومستأجريهن موقف شديد . فهو يصف هذا العمل بأنه « من حرف النساء المتهتكات » . ويذهب الى ان هذا العمل « أصبح نادراً وقوعه إلا من اراذل الناس وسفلتهم(٤٤) » . فلماذا هذه الاتهامات وهذه القسوة بحق من اراد احترام تقليد سير عليه من قبل ومايزال يسار ، وكان ينظر اليه على انه من حق الميت على احيائه ؟

والخطوة الأخرى الملازمة لحدث الموت هي مقر القبر . وقد اشتهرت بين مقابر دمشق مقبرتان : مقبرة باب الصغير ، ومقبرة الدحداح . وسبب شهرتهما ولاسيما الأولى منهما ، هو احتواؤهما على قبور للصحابة والتابعين والصالحين واهل البيت . ولهذا غالباً ما يفضل اهل البلدة الدفن فيهما . ومن هنا كان الطلب عليهما كبيراً . وكان هذا سبباً في اثراء الكثيرين من حفاري القبور فيهما . « لاسيما اذا مات احد من الاغنياء أو الامراء ، فانهم (أي الحفارين) يأخذون منهم فوق ما يريدون ، من أجرة دفن واجرة مظلة . واجرتها في كل يوم للفقير عشرة قروش، وأما الغني فيأخذون عنها في كل يوم ١٥ قرشاً أو أكثر ، سيما اذا كان الميت أميراً أو وزيراً ، فلا تسأل عما يأخذونه ، وكذلك مثل اجرة كراسي ايام الصباحيات ، واجرة تفتيش عن القبر الى السنة غالباً(٤٥) » . واذا حصل بلاء في البلدة كان دخل الحفارين عظيماً ، « كالريح الوخم الذي حصل في الشام عام ١٢٦٤ ــ لا أعاده الله ــ فانه عدّ فيه من الوفيات كل يوم أكثر من الف(٤٥)» . فمن مثل ذلك يحصل للحفارين في تلك المواسم ــ لا كانت ان شاء الله ولاتكون ــ الغنى والثروة الكثيرة(٤٥) » .

بعد هذا يأتي دور المقرئين . وفي عرف الشاميين ان المقرىء يتلو القرآن في مواسم المآتم . وقد جرت العادة عند وفاة أحدهم « أن يقرأ على قبره صباحاً ثلاثة أيام فقط ان كان فقيرا ، وليلاً أيضاً ان كان غنياً ، مع ذكر الله تعالى بالاناشيد ، ويختمون ذلك بالدعاء ويهبونه لروح الميت . والبعض من الاغنياء يفعل ذلك اربعين يوماً على القبر . ويقراون ايضا في بيت ذلك الميت . وأجور مشايخ القراءة تتباين بتباين حال المتوفى . كما ان عدد من يستحضر منهم للقراءة على القبر او بيت الميت متفاعل مع الحال المذكورة . « فالمتوسط بنحو شيخين

---

(٤٤) القاموس ص ٤٠٣

(٤٥) القاموس ص ١٠١

للقراءة على القبر ، وثلاثة في البيت لاتمام الاربعين من وفاة الميت . ولا تقل أجرة الشخص منهم عن عشرة قروش يومياً مع اطعامهم أحسن الطعام(٤٦) » . والفني يحضر اكثر من ذلك والفقير اقل .

كما جرت العادة في دمشق أن يقيم أهل الميت في اليوم الثالث لوفاته وليمة يدعون اليها الفقراء والمساكين داخل الدار . ويوزعون الارغفة والطعام لمن هم خارج الدار . أو يعملون له اسقاط صلاة ويوزعون دراهم على روحه(٤٧) » .

وربما كانت حفلة التهليلة اقوى الحفلات التي يوجبها الاقرباء على انفسهم تجاه الميت . وهي حفلة يتلى فيها القرآن ، وتنشد الاذكار ، وترقص المولوية ، ويدعى للميت الدعاء . وهي يمكن أن تقام في الليلة الثانية بعد الوفاة . وفي ليلة أول خميس له . وفي ليلة الاربعين . وليلة وفاء عدة الزوجة . وليلة تمام السنة على الوفاة. هذهالليالي يمكن أن تقام كلها تباعا اذا كان المتوفى مثريا أو موصياً . أو يقام بعضها ان كان متوسطاً .

ويبدأ الاستعداد للحفلة بذهاب وصي الميت أو وارثه الى بعض العلماء أو مشايخ الطرق الذين اعتادوا القيام بهذه الحفلات . وينقده من المال حسب الوصية أو تبرع الورثة ، بين الخمسمائة قرش الى عشر ليرات . وربما زادوا على ذلك ان كان المتوفى تاجراً كبيراً ، أو وجيها خطيراً ، وذلك نادر . فياخذ شيخ التهليلة المال ويشتري به الحوائج اللازمة من سمن لقلي العوامة ، وطحين ، وزيت كاز ، وحطب ، وسكر ودخان . ويرسل وراء قلا العوامة للاتفاق على العجين والطحين وعمله . فيحضر ويعجن من النهار في أطباق ، ويبني كانونه ، وتهيأ له تنكة سمن ، ويكون بيت الشيخ قد تهيأ بفرشه وترتيب أمكنته لجلوس الضيوف والمدعوين ، وتعلق المصابيح . كما انه يكون دعا رئيس الذكر مع جماعته ، وهم نحو ستة أو أكثر ، وقد يدعى لها جماعة من المولوية . حتى اذا أذن العشاء اخذ المدعوون وأهل الذكر ومن يدعوه الشيخ من أهله وجيرانه ، يفدون الى دار الشيخ . فبعد أن يلبث الجميع حصة يتناولون بها القهوة ، تفرق أجزاء الربعة . فبعد أن يقرأ منها ما يقرأ ، تمد لرئيس الذكر وجماعته فرش يجلسون عليها . ويبداون بعملهم وتسمى « المسبحة الاولى » . ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف والمنشدون من ورائهم ستة الى عشرة بنسبة أهمية التهليلة .

(٤٦) القاموس ص ٤٦٣

(٤٧) القاموس ص ٣٩١

ويضيفون الى الاذكار كثيرا من الاناشيد الاخرى . وترى ضجة المنشدين تسمع من مسافة ٢٠ بيتاً أيام الصيف . فبعد انقضاء العمل، يستريحون برهة يشربون فيها القهوة . ثم يقومون الى اعادة العمل السابق بعمل أخف يستمر نحو ساعة ، ثم يستريحون أيضا . ويقومون بعد للوقوف . فيذكرون ، وهم قيام أقل من ساعة ، أنواعاً من الاناشيد والهيام والتواجد . وهناك تلبس جماعة الميلوية وهم عشرة أو أقل ، لباسها الابيض ، وتدور على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويحات ، ثم ينصرفون . ويختم رئيس الذكر وجماعته العمل بذكر الآمدية . ثم يدعو شيخ التهليلة للميت . ويؤمن الحاضرون على هذا الدعاء ويهدي ثواب قراءة القرآن ونشدان الاذكار الى الميت ، ثم يجلسون . ويكون أهل دار الشيخ هيأوا سفرة الطعام من بعد المسبحة الاولى . ودعوا لها من حضر تدريجياً على حسب المقام . ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يكون أكل كثير من الحاضرين وانصرف . ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والميلوية ومن خدم ، وما بقي فيأخذه(٤٨) .

والطريف في ذلك ان التهليلة ينبغي أن لا تخلو ، بحال من الاحوال ، من العوامة ، و « الفواشات » حسب تعبير بعض البلدان ، ولو وجدت سائر أنواع الحلوى والفواكه ، واذا تمت التهليلة بدون العوامة لم يعد للتهليلة وزن ، ولا ذكر ، واعتبرت كأن لم تكن .

---

(٤٨) راجع القاموس من ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

الشئون الصحية

مستوى صحة الانسان مرتبط بالمستوى الفكري والعلمي والثقافي السائد في البلد . وفي وطن حكم من غير أهله ، وخضع لاستثمار أسياده الوحشي ، وانتشر الجهل ، وندر العلم ، وقلت المعرفة ، واصبحت قيمة الانسان فيه أبخس من ابسط سلعة تباع وتشترى ، في هذا الوطن تضعف العناية بالشئون الصحية وتندر مؤسسات رعايتها ، ويترك الانسان، على العموم، لجريان قدره. يتدبر أموره حسب طاقته . ويرد عنه هجومات اعدائـه المتعدّدين المتنوعين بوسائله البسيطة الخاصة . ولذلك قل ان يبقى غير مهيض الجناح ، غير مثال في صحته . وما قيل في صحة الانسان الذي كرم من الخالق ، لا يعد شيئاً أمام ما يمكن أن يقال في صحة الحيوان الداجن الذي يعتبر ثروة كبيرة في حياة الوطن الاقتصادية . لاسيما في بلد متخلف تعتبر الزراعة فيه أساس الحياة الاقتصادية الأول .

ان أول ما يلفت النظر في الشئون الصحية الانسانية هو مأكل الانسان ومشربه . فهذه شئون يمارسها الانسان يومياً عدداً من المرات ، فيأكل ويشرب. يأكل اللحم والخضر النيئة ومنتجات الحليب ، ويشرب الماء والشرابات المتنوعة . وهو في كل مرة يأكل أو يشرب معرض لهجوم أنواع الميكروبات نتيجة انعدام التدابير الصحية من رقابة ، ومكافحة غش ، وانعدام الحفظ في اوعية وشروط مخصصة ، وعدم مكافحة الذباب والحشرات ... وسنرى جانباً من غش الاطعمة في بحث الخداع والتضليل والغش واللصوصية . وكثيراً ما نلمس سوء الشروط المحيطة بمياه الشرب . فشرب الناس عادة ، وقبل استجلاب ماء عين الفيجة عام ١٣٢٧ ، هو من ماء الانهار المكشوفة المعرضة لمختلف انواع التلويث ، من مجار وأقذار ، وسباحة ، وغسيل ، وتغسيل ... أو من ماء العيون التي يستجلبها السقاء براويته أو قربته التي غالباً ما تكون في ظروف صحية سيئة . وهذا عدا عن استحالة أكل الخضروات النيئة بدون تطهير طبي نظراً لقذارة المياه والأرض والسماد التي تحيط بانباتها . ومن هنا كان الكثير من امراض جهاز الهضم المتفشية في الناس ، والتي يكاد يستحيل وجود شخص خال من بعضها أو الكثير منها .

يضاف الى هذا سوء ظروف اعداد بعض الاطعمة في المطاعم الشعبية بشكل خاص . فيحدثنا القاموس في فقرة « الرواس » بائع المقادم والرؤوس والكروش، ان حلة الرواس يضرب بها المثل « لكبرها وعمقها واستقذارها غالبا ، لكونها توضع في محل ويبنى حولها بحيث تمكث سنين لاتقام ولا تجلى ، ولا تبيض ، بلى تبقى ظلمات بعضها فوق بعض .. ان البائعين القذرين « يأخذون الرؤوس والأكارع ، أي المقادم ، من المسلخ ، ويضعونها في دكاكينهم ، فتأتي الصناع والاجراء الوسخو الثياب ، القذرو الرائحة ، من كثرة الدماء والاوساخ التي على ثيابهم الزرقاء . ولا معرفة بطهارة ولا نجاسة ، حتى اذا نظفت بهذا الماء القذر اخرجوه ، ووضعوه في الحلة التي ذكرناها . ويوقدون العظم الذي أستخرجوه من الرؤوس مع الامخاخ التي يلتقطونها غالبا من دكاكين الجزارين . فتخرج رائحة الوقيد خبيثة جدا . بحيث تشم من مسافة بعيدة . ثم بعد الاستواء ، يعلو الحلة دهن ، فيقيمونه ويجعلونه في وعاء مخصوص قريب من الحلة . وأعلم أن الرواسة لايعرفون السمن فضلا عن شرائه ، الا ان كانوا يأكلونه من غير أهل حرفتهم . لأن الدهن الذي يزيد عندهم في دكاكينهم يدخرونه في بيوتهم لأكلهم وأكل عيالهم ، فجميع الاكل الذي يدخله السمن يجعلون عوضه من دهن الرؤوس الذي شرحناه . كذلك مايزيد عند هؤلاء من الكروش وغيرها ، يقتاتون به غالباً »(٤٦) .

ويتصل بأكل الانسان ومشربه ايضا إرضاع الطفل الذي يصعب على أمه ، لهذا السبب أو ذاك إرضاعه حليبها . عندئذ تلجأ الام الى مرضعة يتوفر لديها حليب المراة المماثل . وغالباً ماتعيش مثل هذه المرضعات في ظروف معاشية قاسية من غذاء وسكن ولباس ... وهي عوامل تؤثر ، فيما تؤثر ، على حليب المرضعة ذاتها . كما تكون غالباً من منبت تسوده الجهالة ، والقذارة وسوء الخلق واللامبالاة نحو الآخرين . وهو أمر اشار الى بعضه القاموس . « ويندر من تلك المراضع من يكون عندها رقة حاشية ، إذ لايحترف بهذه الحرفة إلا من كانت من اطراف الناس ، محتاجة ، فتطمع بالاجور الوافرة وقد لايرضيها القليل ولا الكثير ، عدا عن التهكم بأهل الطفل . ولكن الحاجة اليها تدعو لاستجلاب رضائها ، بكل ما يمكن »(٤٧) . هكذا نجعل اضعف مخلوق يحتاج الى كل رعاية وانتباه ، في ظروف غير مأمونة ، وكثيرا ماتكون نتائجها ذات سوء كبير على صحة الطفل خاصة .

---

(٤٦) القاموس ص ١٦٠ — ١٦١

(٤٧) القاموس ص ٤٢٩ — ٤٣٠

والبحث عن ارضاع الطفل يدفعنا الى البحث عن شروط ولادته ورعايته ، في الغالب الأعم . إن الطفل في مجتمعنا المذكور ، يولد بقوة الطبيعة اكثر مما يولد في رعاية العلم والشروط الصحية الملائمة . فالأم تضع ولدها لا في المستشفيات وفي رعاية طبية خاصة . بل تضعه في البيت ، وفي شروطه المتباينة . وهي لاتضعه أيضاً تحت اشراف طبيب مختص ، بل تضعه تحت اشراف القابلة، الداية ، التي أخذت صنعتها ، في الغالب ، عن أمها بالتسلسل والممارسة . هذه القابلة لاتعرف من أمور الشروط الصحية العلمية الا القليل البسيط ، ولا تتجاوز ثقافتها العامة حدود بعض المعارف البسيطة التافهة . وغالبا ماتكون أمية ، جاهلة ، لاتعرف من ظروف عملها إلا أموراً اعتادت رؤيتها وممارستها . واغلب نجاحها انما هو في الولادة الطبيعية العادية ، وكثيراً مايرافقها الفشل في ظروف الولادة الصعبة فتقف عاجزة عن القيام بشيء ايجابي مساعد ، أو تلجأ الى حركات وأعمال كثيراً ماتؤدي الى الاضرار بجسم الطفل ، ان لم تود بحياته ، أو بحياة أمه أيضاً . ويعرض القاموس فيلماً يكاد يكون وثائقياً عن عمل القابلة . « فاذا أحسّ أهل الحامل بالم الطلق ، فيرسلون وراء الداية ، وهي القابلة . فتاتي بكل سرعة . وذلك بعد مايهيئون كرسى الولادة من قبل شهر تقريباً . فان وجدت الداية اشتداد الالم وضعتها على الكرسي ، والا فتجلس عندها حتى يشتد الطلق . فاذا اشتد ، واشتداده بعلامات تعرفها الداية ، تضعها على الكرسي المخصوص ، وتجلس أمامها وتدعو لها كثيراً بالخلاص ، وتقول لها الداية : يابنيتي أعيني ولدك ، واحذري على كبدك . ولا تزال تجعل لها أسباب الملاطفة حتى تلد باذن الله »(٤٨) . ثم تقطع الداية حبل الخلاص ، وتدمل مكان الجراحة بما تراه من وجوه الاندمال . وقد تتغير أشكال أعضاء المولود عند خروجه من بطن أمه ، وأوضاعها ، فتتناوله الداية بالغمز والاصلاح . فاذا وفقت عادت الأمور الى مجاريها وقد لاتوفق . فيحدث تشويه في الجسم قد يلازمه طوّل الحياة .

« ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة ، لخروج أغشية الجنين . لانها ربما تتأخر عن خروج الاغشية ، وهي فضلات . فتعفن ويسري عفنها الى الرحم ، فيقع الهلاك . فتحاذر القابلة هذا ، وتحاول اعانة الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت »(٤٩) . ثم تداوى النفساء من الوهن الذي أصابها بالطلق ، وما لحق رحمها من ألم الانفصال . وتبقى المراة ،

(٤٨) القاموس ص ١٣٥

(٤٩) القاموس ص ١٣٦

طوال مدة النفاس تقريباً ، معرضة لكثير من المخاطر واشهرها حمى النفاس التي قد تودي بها نتيجة مخالفة لبعض ابسط الامور الصحية .

اما الطفل فيبقى تحت رعاية الداية واشرافها. تتعهده كل يوم الى يوم الاسبوع. «فتنزع عنه ثيابه. وتدهن بدنه. وتلبسه ثياباً جديدة، ثم تضعه في المهد.. وبعد الاسبوع الاول من ولادته تواصل تعهدها لـه كل خميس واثنين حتى الاربعين من عمره. وعندئذ تذهب الداية مع الام الى الحمام العام ، وتدلكها ، وتضع على جسمها ذروراً يسمى ب « الشداد » المشتمل على كثير من الاشياء البهارية » . وتواصل ترددها المتباعد في الزمن ، بعد الاربعين ، الى نحو من أربعة اشهر . ثم تمر بين الفينة والفينة لتطمئن على سلامة المولود . وكل هـذه الامور ايجابية ، ولكنها ، عمليا ، غير كافية . فقد تلم بالطفل ملمات تهـدد حياته بالخطر ، والداية جاهلة لطرق التصرف السديد ، حيالها . وقد تظن الامر بسيطاً فتعالجه ببعض مشروبات الزهورات أو ماء الورد ، وغير ذلك ، في حين يتفاقم وضعه ، ويشتد الخطر عليه . وقد يفتقد بين عشية وضحاها لعدم وجود الطبيب المختص العالم ببواطن الامور . وهو الامر الذي يفسر كثيراً من وفيات الاطفال المنتشرة عن سعة في الاشهـر والسنة الاولى أو السنتين الأوليين من عمره .

والانسان في استمرارية حياته يتعرض لكثير من اخطار الامراض المعدية وغير المعدية والى الجروح والكسور والرضوض . وهو في هذا كله ، تبقى حياته ، غالباً ، متأرجحة على كف عفريت ، ومتفاعلة مع كثير من الظروف المواتية أو غير المواتية . وقد يتم الشفاء ، ولكن قد يحدث الموت أيضا ، أو العجز الجزئي او الكلي ، او تنشأ العاهات الدائمة ، أو تنتابه الآلام المزمنة المضنية المبرحة . ومعظم الاخطار انما تنشأ ، في هذا ، عن معالجة الانسان من قبل اناس غير عالمين بأمور الامراض والمعالجة ، أو غير مختصين فيما يفعلونه ويعالجونه ، أو من قبل دجالين يقومون بأعمال لاصلة لها اطلاقاً بقواعد الطب وشؤونه . بـين هؤلاء الناس نجـد :

الجراح الذي يمارس معالجة الجراحة والجروح بلا علم ومعرفة . وانمـا اشتهر أمره وساعده الحظ في بعض ممارساته .

الخاتن وهو المزين الذي يتعاطى ختن الاولاد . وقد تنشأ عن استخدامه الموسى ، دون المراعاة الصحية اللازمة ، بعض الاخطار والامراض . وقد يلتهب الجرح الذي يحدثه فتحدث المضاعفات الكثيرة .

الراقي الذي يعالج مختلف الامراض، بالقراءة، والنفث على المريض وتعليق « التمائم » . وهذا عدا عن طرق الخداع الاخرى التي تنال من كرامة النساء خاصة ، والتي تستنزف الكثير من الاموال ، في الوقت الذي قد يستفحل الداء ، ويشتد المرض ، ويقترب الموت .

الحلاق ولاسيما حلاق الفقراء والفلاحين ، وهو لا دكان له . بل يطوف في الشوارع والاسواق يفتش عن زبائنه . فإذا قصده أحد الفلاحين او الفقراء ، علق عدته في حائط ، كشارع السنانية ، واجلسه على كرسي من قش ، « ويحلق له بموسى كالمنشار ، فلا يتم له الحلاقة حتى يخضب راسه بحناء الدماء ، من كثرة الشدوخ التي تشدخه بموسه المصدي »(٥٠) .

وبعض الحلاقين له معرفة بالفصادة والحجامة وعنده آلاتها . والمحجم هو « آلة كالقرن ، مجوفة ، رفيعة الرأس ، مثقوبة الفم ، يمتص الحاجم الدم بعد شرط الجلد بآلة حديد كالموسى . وقد يحجم الحجام بغير القرن ككاسات الزجاج من غير حاجة الى مص »(٥١) . أو قد يستخدم العلق لسحب بعض دم الجسم المريض .

ولم يمض زمن طويل عندما كان الحلاق يمارس مهمات طبيب الاسنان ذاته . فيشرط اللثة . ويعالج الاضراس والأسنان . وقد يقتلعها ، بالاضافة الى معالجة أمراض « بنات الاذنين » و « رفعها » ، أو قطعها أحياناً .

الكحال الذي يكحل العيون المريضة ، « وكان قبل انتشار فن الطب ورواجه ، كثير من الدجالين الذين يحترفون بحرفة الكحالة بدمشق . يخبطون خبط عشواء . ويتلاعبون بأعين الناس بدون علم بالفن ، ولا تبصر بمرض الحدقة . فيعطونهم الكحل المعروف بالحجر وغيره . وترى دائماً عين المريض ملطخة بالأوساخ ، يحتمل الالم جملة أيام ، حتى يزول ذلك العارض بنفسه»(٥٢) .

طبيب دجال ، وهو الذي يمارس مهنة الطبيب دون شهادات ومؤهلات . ويتطفل على الطب والاطباء . ويعالج البسطاء من الناس عند كل مرض وإصابة دون أن يعرف شيئاً عن تركيب الجسم وعلم الادوية ، وتشخيص الداء . وقد كان هؤلاء كثراً ويجدون ضحاياهم بشكل خاص في الريف والمناطق الفقيرة من المدن .

---

(٥٠) القاموس ص ١٠٣ — ١٠٤
(٥١) القاموس ص ٩٢
(٥٢) القاموس ص ٣٨٥ — ٣٨٦

الماشطة التي تفتض بكارة العروس الصغيرة بيدها الملوثة ، او بمفتاحها الملوث ، أو تعين الزوج على التمكن من زوجته الصغيرة . وهي أمور ربما نجمت عنها كثير من الاخطار التي قد تودي بحياة المراة ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل .

المقبعة وهي التي تطيب رؤوس القرعان من القرع بوسائلها ومعارفها الخاصة ، دون أن يكون لذلك اية صلة بمفاهيم الطب وقواعده وطرق معالجته . « فيؤتى لها بالقرع ، والغالب يكونون من الاولاد الصفار ، فتأخذ أولا باستعمال الدهونات والتغاسيل لتلك العلة . فاذا لم ينتج ذلك ، ولم يحصل فائدة ، حينئذ تستعمل القبع . وهو طاقية من جلد ، على قدر راس ذلك المبتلى . فغب قص شعره، تطلى تلك الطاقية من داخلها بالزفت والشمع المذاب، وتلبسه اياها براسه ، وتتركه أياماً ، فتلصق براسه كالمسمار . وبعد ذلك تقلعها بشدة وتشطب الرأس بالموسى ، وتدلكه بحمض الليمون ، وتعيد عليه طاقية غيرها . ثم تستأنف العمل كالاول ، ثم تعاوده مراراً حتى يشفى الرأس من تلك العلة وينبت شعر جديد . وهي معالجة صعبة مؤلمة يكاد الجماد يتفطر للاقرع من كثرة عويله ونحيبه حينما يعالج بها . . وقد كانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جداً ، وذلك لكثرة من كان يبتلي بتلك العلة »(٥٣) .

والامثلة على هؤلاء الدجالين كثيرة .

◆

◆ ◆

اما فيما يتعلق بصحة الحيوان ، فيبدو ان حظه من العناية الطبية العلمية كان ضئيلا جداً ، وان بعض المعالجات اعتمدت التمائم أيضاً .

فقد ذكر القاموس في فقرة السائس الذي يخدم الدواب انه « كثر من السواس تعليق حرز يشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل، رجاء الحراسة مع انها تتمرغ في النجاسة »(٥٤) . في حين قامت معالجات أخرى مبنية على الممارسة والمشاهدة والحدس الذاتي دون اية صلة لها بقواعد علم البيطرة ، وتشخيص امراض الدواب ، وعلم ادويتها ومعالجاتها . ويبدو أن الشخص الاول والوحيد تقريباً ، الذي كان يهتم بهذه المعالجة انما كان البيطار ذاته .

---

(٥٣) القاموس ص ٤٦١ – ٤٦٢

(٥٤) القاموس ص ١٧٦

البيطار هو ، كما يقول القاموس ، معالج الدواب . ثم يتحدث عن الصفات التي ينبغي أن تتوفر في هذا الانسان ، من صحة النظر ، وقوة الذراعين ، وخفة الحركة ، والنصح والصدق ، وقوة الاقدام ، وعدم النفرة من القاذورات ، والشفقة بالطبع أو التطبع ، مع العلم بأن الحيوانات تتألم كالانسان .

وبعد تعداد هذه الصفات التي ينبغي توفرها في البيطار ، يعدد أدوات العمل التي ينبغي ان تتوفر لديه ، وانواعها ، وصفاتها . من مطارق ، ومباضع وكفات ، ومماسك ، ومبارد ، وسنادين ، وقرم وشبح ومكاوي وكلبات ومزاعط وأميال ، ومقارص ، وإبر ، ولنصة .

ثم يطالب البيطار بالمهارة في التعرف على امراض الحيوان وأسبابها وعلاجها ، وأمراض آلات التناسل : كمرض الاهليلجة ، والعنكبوتية ، والضفدع ، والشاغية ، والخلد ، والسعال ، والقَصْر ، والجرد ، والشانكان ، والكوكب ، والحمر ، واللكون ، والمشش ..

ويصف صنعة البيطار بأنها مهمة ، جالبة للكسب الحلال المبارك . بالشروط المذكورة (٥٥) .

ولكل معالجة أو تطبيب لا بد من دواء . والدواء قد يصنعه الدجال ، والمتطفل ، والمزين ، والمقبعة ، والقابلة .. باعتماد مواد تتوفر لدى العطارين وغيرهم ، أو من حشائش تتأمن من الطبيعة . وقد يصنع الدواء الصيدلاني . وقد يحضر في الخارج ويستورده الأجزاجي ويبيعه . ويبين لنا القاموس ، في هذا المجال ، الفارق بين عمل الصيدلاني وعمل الأجزاجي . فالأول هو بائع أصناف الاجزاء الاصلية التي تدخل في العلاجات كالحشائش والزهورات والبذورات وما أشبه ذلك . وقد كانت هذه الحرفة ، قبل وجود الاجزاجي ، في غاية الرواج . ويبين القاموس الصعوبات التي كان يعانيها المريض من جراء استعمال ادوية الصيدلاني ، وهي المحضرة محليا ، وبشكل غير لطيف ، وتسبب انزعاجات كثيرة له . مقارنا إياها بسهولة استعمال الادوية الاجنبية . «ولعمري ان مابين الصنعتين لبوناً عظيماً . فأين ماكان يعانية المريض من استعمال العلاجات الاصلية : كفلي خشب الكينا ، والراوند ، والخيار شنبر ، والختيت ، وزيت الخروج وأمثالها ، مما تأبى النفس مشاهدته فضلا عن استعماله ، من لطافة صنعة « البرشان » لما كان كريها من العلاج أو مرا فيضعونه به ، ويلحمونه .

---

(٥٥) راجع القاموس ص ٥٩ — ٦١.

وكذا الاشياء المائعة كزيت الخروع الموضوع في « الكبسونة » يأخذ المريض بغاية القبول من دون كراهة ولا ازعاج ، مع وجود الحبوبات اللطيفة الملبسة بالسكر ، السهلة الاستعمال ، القليلة الكمية ، الكثيرة الفعل وان يكن في القيمة تفاوت كلي ، ولكن في الراحة أعظم »(٥٦) .

اما الاجزاجي فهو بائع العقاقير الواردة من بلاد أوروبا . ثم منها مايكون بسيطاً ومركباً . وكل منهما يروق الناظر شكله لما فيه من ابداع وصنعة على تلك الهيئات الحسنة السهلة التناول للمريض ، من مسهل مائع ، أو سفوف أو حبوب أو لصوق أو غير ذلك مما لايأنفه المريض لسهولة استعماله من خارج أو داخل ، بلا مشقة ، كما هو مشاهد ومعلوم (٥٧) .

---

(٥٦) القاموس ص ٢٧٩

(٥٧) القاموس ص ٣٦

الغش والخداع والتضليل واللصوصية

كثيراً ما نتبرم بالواقع الذي نعيشه عند مصادفتنا لسلوك لايروق لنا ، أو عند انتهاك بعض المبادىء الاخلاقية العامة ... فترانا نأسف للدرجة التي انحطت اليها أخلاق مجتمعنا ، وللعوامل الانانية التي تسير هذا وذاك من الناس دون أي اعتبار للصالح العام أو لصالح الآخرين . وترانا ، بالتالي ، نترحم على الايام الخوالي ، أيام كانت الاخلاق الرشيدة درع الناس في تحركاتهم ومعاملاتهم وسلوكهم ، وكانت مراعاة الصالح العام هي السائدة،والاخذ بالانانية الشخصية والمصالح الخاصة هو المنبوذ المحتقر . هكذا ننتهي الى القول ، بشكل آلي ، الى أن أمسنا افضل من يومنا ، وان مفاهيم الماضي الخلقية خير من مفاهيم الحاضر ، وان أناسي الامس ، كانوا بالتالي ، أسعد من اناسي اليوم .

الواقع أن الانسان في ظل العلاقات الاستثمارية يبقى ، من حيث العموم ، انسانا . وان سماح أسلوب الانتاج القائم لمالكي وسائل الانتاج الاساسية ، باستثمار الاخرين العاملين ، هو رأس الانتهاكات الاخلاقية ، وهو السبب في انتشار الانانية ، والكذب والخداع والتضليل واللصوصية ، والسعي وراء المصلحة الشخصية والتضحية بالمصلحة العامة . ولا بد لاخلاق بعض الشغيلة والكادحين من أن تتأثر ذاتها بهذا الاعوجاج الاخلاقي الخطير وان تنحرف ، الى هذا الحد أو ذاك ، عن المبادىء الاخلاقية الشعبية ، اخلاق الذين يتمسكون دائما بالحق ،والعدل ،وارادة الكسب الشريف ،والصدق ،والمحبة ،والامانة..

وعلى هذا فأمسنا ليس دائما أفضل من يومنا ، وامس أمسنا ليس احسن من أمسنا . وقد عرض لنا القاموس صورا متعددة متنوعة عن واقع الغش والخداع واللصوصية والتضليل في أيام زمانه مما ينال من كل قدسية يسبغها الجديد على القديم . ويحطم كثيرا من الصور الزاهية التي الفناها عنه . كما كان القاموس دائما حربا شعواء على التضليل والغش ، والسؤال ، والخداع ، واكل أموال الناس بغير حق . وأول طعن للقاموس في أهل زمانه هو « أنهم لما تحققوا كساد الفضل وأهله ، ونفاق ابن الدنيا مع جهله ، اختاروا النّفاق ولو بالنّفاق ، وآثروا الارتفاق ولو بالشقاق مع أن كسب الفضيلتين ، واحراز

التجارتين ، ما هو بالعسير على ابن الهمة الابية والنفس العصامية »(٥٨) ولكن اين ابن هذه الهمة وهذه النفس ؟

والقاموس الذي آمن بالدين كمنبع للاخلاق الفاضلة ، ودرع لكل انحراف عن جادة الاخلاق والصواب ، أفرد فصلا ، كما ابنا من قبل ، لذكر آداب الكسب والمعاملة ، حتى يبقى الانسان بعيدا عن متاهات هذه الدنيا الغرور ، وقريبا من نوال السعادة الاخروية . وخص التاجر ، باعتباره واسطة التبادل الاساسية ، بقيود تحفظ عليه دينه وتقواه . فهو أولا ، لاينبغي أن يعامل الصبي والمجنون والعبد والاعمى لأسباب ذكرها . وعليه، ثانياً، أن يتحرى عند عقد البيع والشراء جريان الايجاب والقبول . والا يحتكر ، ثالثاً ، شيئا من الاطعمه . وان ينصح ، رابعا في المعاملة بالا يثني على السلعة بما ليس فيها ، والا يكتم عيوبها...وأوصاه ، بالاحسان ، خامساً ، وهو عدم الغبن الفاحش في المعاملة. وأوصاه ، سادساً ، بالورع والشفقة على الدين. وبالا يغفل ، سابعاً ، عن ذكر الله في السوق . وبالا يكون ، أخيرا ، شديد الحرص على السوق والتجارة .

ولكن اداب الكسب والمعاملة هذه لم تراع من جميع أهل زمانه ، بل واختاروا النفاق ولو بالنّفاق ، ضاربين بوصاياه عرض الحائط .

إن الصور التي يوردها القاموس عن الغش والنفاق والتضليل واللصوصية كثيرة ومتنوعة هنا وهناك . وسنعمل نحن على تبويب الاهم منها في أبواب جامعة متميزة ، حتى يسهل الالمام بها ، وتستطاع الاحاطة بأنواعها .

واول باب يمكننا ايراده هو باب غش المواد ، استكثارا للكسب ، واستعجالا للغنى ، على حساب المحتاجين لهذه المواد .

البزاز : وهو « الذي يبيع الثياب والامتعة غير المخيطة من جميع الاجناس والاصناف حتى من اجناس الحرير » « فهي في ذاتها حرفة شريفة الا ان غالب بضاعة هذه الحرفة مغشوشة ... وغالبهم يظن أن نفاق بضاعته ، هو بالغش والكذب والايمان الفاجر وغير ذلك من الخداع » .

---

(٥٨) القاموس المقدمة ص٥ .

البنّي : « وهو من يبيع البن المدقوق »(٥٩) ، بعد تحميصه . « ولكن الغالب منهم أنهم يغشونه ، ولا يشتري منهم إلا القهوجية ، أو من يتكاسل عن دقه في داره ، ولذا تجد غالب القهاوي قهوتهم غير لذيذة ، وذلك لغشهم لها حال التحميص فيضعون معها قضامة مكسرة ، وشعيراً وصبراً ، على ما سمعت »(٦٠) .

الصبان : « وهو صانع الصابون وبائعه »(٦١) . « وبعض من يكون غشاشاً يجعل مع الجير والقلي ملحاً كنصف الجير ، ويمزجه ، بدل زيت الزيتون الخالص ، بالأدهان كدهن القرطم وخلافه ، أو بقليل من الزيت المعكر مع كثرة الجير والقلي »(٦١) .

الحلاب : « وهو اسم لمن يبيع الحليب من بقر أو معز »(٦٢) وهؤلاء الذين يبيعونه في دكاكينهم ، قل أن يبيعوه خالصاً ، وغالبهم يشوبونه بالماء حتى تذهب دسومته ، وهؤلاء الشائبون الغشاشون ، تجدهم وائماً في قلة من الدين والدنيا »(٦٢) .

الحناوي : وهو « اسم لمن يبيع الحناء التي تأتي من الحجاز وغيرها »(٦٣) . « ثم الحناء تقبل الغش كثيراً بوضع الرمل فيها . فمن اراد شراءه فليفركها بين إصبعيه . فان كانت معشوشة فيظهر الرمل بين أصابعه . وان كانت غير مغشوشة فتظهر نعومتها »(٦٤) .

الخباز : وهو اسم لمن يخبز الخبز بالنار وهو المسمى « بالرئيس »(٦٥) . « وبالجملة ، فهي صنعة رائجة لابأس بها ، تستر صاحبها ، سيما اذا اتبعت بالتقوى . وقد يوجد من الخبازين من لا تقوى عندهم ، سيما أيام القحط والغلاء — لا كان — فيضيفون لطحين الحنطة من طحين الفول والحمص والكرسنة مما تأكله البهائم ، كما شاهدنا ذلك . وسمعت من غير واحد من الصادقين انه اذا اشتد الأمر ، وكثر الزحام على الافران ، لا يقنعون بهذا ، بل يخلطون هذا الطحين ، أي طحين البهائم ، تراباً وصفوة وغير ذلك »(٦٥) .

---

(٥٩) القاموس ص ٤٣
(٦٠) القاموس ص ٥١
(٦١) القاموس ص ٢٦٨ — ٢٦٩
(٦٢) القاموس ص ١٠٥
(٦٣) القاموس ص ١١٧
(٦٤) المصدر السابق ص ١١٧ — ١١٨
(٦٥) المصدر السابق ص ١٢١

ويضيف القاموس ، في مكان آخر ، صوراً أخرى من غش الطحين حين يقول : « لكن ندر من استمرت ثروتهم (الطحانين) منهم الى آخر حياته ، وذلك لما انطوى عليه أصحاب هذه الحرفة من الغش الواضح البين : وهو طحن الحبوب التي قيمتها دون الحنطة كالذرة ، والناعم من طحين البرغل ، وما يبس من البطاطا ، وادخالها مع عجين الحنطة وبيعها على الفرانة »(٦٧) .

البرازقي : وهو بائع البرازق . « وهي لذيذة الطعم اذا كانت خالية من الغش وقد تغش بالسيرج ، والدهن بدل السمن » (٦٨) .

الفحام : وهو « بائع الفحم » . والبعض من تجار الفحم ، ممن لا يخاف الله تعالى ، يغشه بادخال الاحجار عليه مع كثرة ناعمة المعروف بـ « الدق » ، وهم لايفلحون ما لم يتوبوا ، تاب الله عليهم »(٦٩) .

القشاط : « وهو بائع القشطة ... والبعض ممن يحترف بتلك الحرفة ، غب تشريع الحليب بالطبق يدق الارز ناعماً أو النشا ويرش منه قليلا على وجه الطبق ، وذلك لأجل أن تتجمع الرغوة بكثرة وتجمد »(٧٠) ...

والحديث عن أمثال هؤلاء واسع .

اما الباب الثاني في الخداع والتضليل فهو باب الابتزاز والاحتيال . وقد أورد القاموس صوراً نذكر بعضها :

البزاز : وقد سبق تعريفه ، وهنا يعرض لنا القاموس صورة تدخل في باب الافلاس الاحتيالي التي يلجأ اليها بعضهم لأكل أموال الناس بالباطل . « ومنهم ، كما أخبرنا ، من يسول له الشيطان اكل اموال الناس والتجار بالباطل . ويزعمون برأيهم الفاسد أن احوالهم تأخرت . وذهب راس مالهم ومال غيرهم ، قائلين : إن الذي حصل لنا من وقوف الحال ، وعدم البيع والشراء . فتأتي التجار ومن لهم عليهم دين ، وتقوّم بضاعتهم بالسعر المعلوم ، فيخرج قرشهم ربعاً أو أقل او اكثر ، على حسب ما ابقوه من البضاعة ، فيأخذونها منهم ، أو يتركونها عندهم ويقسطون عليهم ما بقي من المبلغ ، وذلك بعد اعطاء الكفالة . ثم بعد ذلك يظهرون القلة والفاقة والمسكنة . وبعد مدة

---

(٦٦) القاموس ص ٢١٨
(٦٧) القاموس ص ٢٩٠
(٦٨) القاموس ص ٢١٨
(٦٩) القاموس ص ٣٣٦
(٧٠) القاموس ص ٣٥٢

يفتحون حوانيتهم ، ويأخذون في البيع والشراء ، ويرجعون لحالتهم الاولى ، فيظنون بهذا الفعل انهم ربحوا الدنيا . كلا والله ، بل خسروا الدنيا والآخرة ، واشتهر صيتهم بالافلاس ، وأكل أموال الناس ...(٧١)

البوايكي : « وهو اسم لبائع المقتاتات من قمح وذرة وشعير في مخزن كبير يسمى في اصطلاح أهل الشام « بايكة » ... وهذا البوايكي يثرى غالباً لأن أهل هذه الحرفة يحتكرون هذه الحبوب ، ويدخرونها الى زمن المحل ، أو وقت قلة المطر أيام الشتاء . فيبيعونها بأضعاف الثمن الذي اشتريت به . وغنيهم يسلف الفلاح بأن يعطيه أيام الشتاء مثلاً دراهم ، أو يشتري له ثياباً ، وما يحتاجه ، على أن يسلمه وقت البيدر قمحاً وشعيراً بثمن بخس جداً . والفلاح وقت حاجته للدراهم ونحوها يقبل منه لاضطراره لذلك . ثم الفلاح بعد اتعابه بالفلح والزرع والحصيدة والدراس ، وغير ذلك من المشقات العظيمة ، يأتي بالقمح الذي فضل عنده ، بعد أخذ الاعشار الميرية منه ، ومايلحقه من المصاريف للفعلة وغيرهم ، الى البوايكي المسلف له فيستلمها منه، وينزل أحمالها في البايكة المتقدمة . ثم أن بعض هؤلاء البوايكه يكيل كياله القمح والشعير بالتطفيف ، فتبلغ عشرة الفلاح تسعة أو أقل ، فيرجع صفراً ، بعد أتعابه طول سنته ، أو تحت الفاصل ، فيبقى مدة حياته فقيراً متعوباً مديوناً . واذا كان كياله للمشتري الوطني فيخرج عشرة الفلاح احدى عشرة ، أو اكثر . وهذا أمر متواتر عنهم .. »(٧٢)

وللدلالين والسماسرة والكومسيونجية والضمانة طرق أخرى في الابتزاز يمكننا من أفراد باب خاص بهم .

الدلال : وهو اسم لمن يبيع حوائج الناس ، وهي مهنة تقوم على الكذب والخداع . يقول القاموس : « ثم من خصال الدلالين المذمومة شرعاً وعرفاً اذا أخذ أحدهم السلعة ليبيعها يزيد بها لنفسه ، وينادي بأعلى صوته انها بكذا فاذا جاء شخص ممن لامعرفة له بأحوالهم يزيد بها ، ويجعلها عليه بتلك الزيادة. وتارة يزيد بها صاحبها ، وهي من أعظم المنكرات . وتارة تكون هذه السلعة قابلة للزيادة فيرتشي عليها من شخص ــ فيجعلها عليه ولا يقبل زيادة أحد . وهكذا لهم فعال خبيثة بل أعظم من ذلك . والحاصل كأن الامر بيدهم فان

---

(٧١) القاموس ص ٤٣ ــ ٤٤

(٧٢) القاموس ص ٥٥ ــ ٥٦

شاؤوا زادوا ، وحسنوا السلعة ، وان شاؤوا بخسوا . وبالجملة فالمتقي منهم قليل جداً ، وأكثرهم يبيع دينه بأقل قيمة من دنياه »(٧٣) .

السمسار: وهو «السمسار الذي يوجد في سوق الخيل والحمير والجمال. والقليل من صاحب هذه الحرفة الذي عنده نوع من الذمة . وهذا في النادر ، ولا حكم له . حيث لايخلو أحدهم من الزور والبهتان والكذب . فيدخل بين البائع والشاري ، فلا يخلو أحدهما من الغباوة ، فيعود بالخسران : فاما أن يكون بائعاً فانه يبيع بالخسارة . وإما ان يكون مشترياً فيشتري بالزيادة . وما ذلك إلا بتلك الواسطة التعسة ـ وهي السمسار ـ لأجل حظ نفسه وامر معاشه ، يغش الناس فيحسن بالثمن للبائع ولو ما حصلت دابته قيمتها . ويحسن للمشتري ولو كانت الدابة لاتساوي تلك القيمة حتى اذا تم البيع لايرتضي من الجهتين لابقليل ولا بكثير »(٧٤) .

العميل : وهو من يحترف بـ « العمالة » وهي وكالة عن بائع أو مشتر في أصناف البضائع والتجارات . وقد اثرى منها من لايحصى . إلا أن الاثراء منها لايكون غالباً مع الصدق في القيام بها . « إلا أن للعملاء دسائس كبرى وخيانات عظمى ، والموفق من عوفي منها . منها : أن الموكل قد يطلب جملة أصناف ، والعميل عنده البعض منها . فيرسلها اليه من عنده ويربح بها ما شاء . ثم يأخذ عليها معلوم فوق ربحه . فيتوهم الموكل أن هذه البضاعة مما اشتراه العميل وتعانى في جلبه . ومنها قد يكون للعميل شركاء فيشتري منهم موهماً انه اشتراها من عند أجنبي عنه ، فيطلب مايلزم للموكل منهم . فيقيد شركاؤه هذه البضاعة بالدفتر على حسب الاتفاق ، ويأخذ عليها المعلوم . ومنها انه قد يستلم العميل الدراهم من موكله نقداً ، ويشتري البضاعة نسيئة. ومنها أن منهم من يقيد القيمة بأكثر مما اشتراه ، وكل هذا محظور » (٧٥) .

الضمان : وهو من يضمن أصناف الفاكهة وثمر الزيتون من أصحاب الفلاحة والأشجار . وذلك عند ظهور الثمار يضمنها الضمان من أصحابها بمبلغ يتفق عليه الطرفان .

« والبعض يحصل له خسارة عظيمة ربما كان سببها عمله السيء . وذلك انه حينما يجتمع أصحاب هذه الحرفة لأجل المزايدة يتشاركون جميعهم باشارة من الذي يضمن حيث يتفق معهم على مبلغ يدفعه لهم سراً ، بشرط أن

---

(٧٣) القاموس ص ١٤٧

(٧٤) القاموس ص ٢٤٠

(٧٥) القاموس ص ٣٢٠

يزايدوه لدرجة النهاية . ولكنهم يجعلون ذلك ظاهراً على أعين أصحاب الرزق . ويتزايدون مزيداً جزئيا لا يبلغ ثلثي قيمة الثمر ، ويبارك لذلك الضمان ، الموجودون الجاري بينهم الشرط الذي ذكرناه ، وخصوصاً إذا كان صاحب الرزق عنده نوع من الغباوة فيضمن لمن لزمه المزاد بذلك المبلغ وذلك الضمان »(٧٦)

وهناك باب الاعتداء على الصنعة دون توفر مؤهلاتها ، وهو أمر يبنى على الخداع والتضليل . والامثلة على ذلك كثيرة منها :

الطبيب : اسم لمن يطبب المرضى ويداوي داءاتهم . ومن الواجب في حقه أن يكون متخرجاً من احدى الكليات المهتمة حائزاً للشهادات العالية بفنّه ... « فأما من يتشبث بما تلقفه من علاجات النساء ، والاطباء المتطفلين قبله ، ولا يعرف تشخيص الداء ، فهذا يحرم عليه شرعاً أن ينصب نفسه مطبباً ... وقد يقول بعضهم ان وصفات هؤلاء المتطفلين أكثرها لايضر لانها عقاقير معروفة، فيقال له : ما كل مرة تسلم الجرة ، وهذه الأرواح عزيزة، ومن ذا يسمح بروحه لجاهل يلعب بها »(٧٧) .

الساعاتي : « اسم لمن عنده معرفة بتصليح وترميم الساعة .. وقد وجدنا كثيراً ممن تعدى على هذه الصنعة ، بلا أستاذ ولا خبرة . وأوهم انه من معلمي هذه الصنعة ، بفتح دكان ، وتعليق ساعات . وقد عطل ساعات كثيرة لأناس غرّهم ظاهر أمره »(٧٨) .

أما باب الاستفادة من جهالة الناس ، والدجل عليهم وادعاء العلم بالغيب، والمعرفة بأسرار الحياة ، وابتزاز أموالهم ، وارتكاب الموبقات معهم أحياناً ، فهو باب كبير ، وخطره جسيم . وقد انتصب القاموس أشد الانتصاب ضد هؤلاء الدجالين . وفضح دجلهم بكل قوة . ودعا الى الحذر منهم والابتعاد عنهم . وذكر القاموس أنواعاً منهم :

الرّمال : « اسم لمن يعاني ضرب الرمل أي الخطّ فيه . واعلم ان بعض الناس يدعون معرفة الطالع والسعود ــ دعوى كذب وبهتان ــ فياتينهم ارباب العقول القاصرة من العوام والنساء ، ومن فقد ضالته ، أو من يريد من الحمقى أ ن يختبر سعده ، فيكذبون عليهم ، ويموهون على الناس بكلامهم ، مع أنهم لايدرون سعدهم أو حظهم ، فضلاً عن علمهم بسعد غيرهم أو نحسه »(٧٩) .

---

(٧٦) القاموس ص ٢٨٥

(٧٧) القاموس ص ٢٨٩

(٧٨) القاموس ص ١٧٤

(٧٩) القاموس ص ١٥٧

ثم يذكر القاموس انواع هؤلاء الرمالين . فمنهم من يجلس في الطريق الآخذ الى مقبرة باب الصغير ، يمد خرقه يفرش عليها الرمل ، وبجانبه امرأة او فلاح ، ويقول له اضرب لي رملاً على بختي ، فيخط باصبعه في الرمل المفروش على الخرقة ، ثم يذكر كلمات قد رتبها ، بعد ان يأخذ قليلا من الدراهم»
ومنهم من يجلس في داره ويأتي الناس اليه لمعرفة الحظ والسعد .

« وبالجملة فهذه الحرفة كالدجل ، بل الدجل بعينه ، ولاثم معرفة عندهم بها سوى انهم اتخذوها حرفة ومصيدة لاقتناص مال من خف عقله أو من في ماله شبهة »(٨٠) .

العرّاف : وهو يختلف عن الأول في ان هذا العراف لايستخدم الرمل أداة لعمله ، وفي انه مختص باظهار معرفة الشيء المسروق أو مكان الضالة وغيرهما من الأمور الخفية . وهي نوع من الكهانة كما يقول القاموس .
« إن البعض من الكاذبين الدجالين يتشبهون بأولئك العرافين الضالين (عرافي الجاهلية) فيزعمون أن لديهم معرفة الغائب والضمير . وقد تأتيهم النساء والحمقى من الرجال فيسلبون أموالهم بالحيل ، والأكاذيب ، والاماني ، والمواعيد »(٨١) .

المنجّم : « هو من يدعي معرفة السعود والنحوس ومكان الضالات وما يرغب في الزيجة ، ويحبّب في الزوجات ، فيأتيه أصحاب العقول القاصرة من النساء والرجال فيلبس عليهم بالكذب والبهتان »(٨٢) .

الراقي : « هو من يحترف ب « الرقية » ، وهي القراءة والنفث على المريض والمصروع وتعليق « التميمة » وهي الحجاب ، ويقال له في الشام « مكبس »(٨٣) . وفي وقت ساد فيه الجهل وندر العلم ، وزاد تعلق الناس بالقوى الخفية التماساً لعطفها واتقاء لشرها ، يروج سوق هؤلاء الدجالين . فيذكر القاموس أن المحترفين بهذه الحرفة في غاية الكثرة . وبعضهم متفوق على بعض . « يأتي اليهم النساء وهن أكثر زبائنهم . - ثم البسطاء من الرجال . ويشكون اليهم مرضاً عسر برؤه ، أو وسواساً ، أو أحلاماً مخيفة ، أو سرقة دراهم ، أو حلي او دابة او نكاية عدو ، أو ضرة ، ويطلبون منهم حجباً ، فعند ذلك يقرأ الراقي على المرقي ، وينفث عليه ، ويعده بتميمة يعلقها أو ورقة كذلك . ولكن بعد أن يشترط عليه من الدراهم مقداراً ، ومن البخورات وادوات

---

(٨٠) القاموس ص ١٥٨
(٨١) القاموس ص ٣٠٤
(٨٢) القاموس ص ٤٧٢
(٨٣) القاموس ص ٢٣١

الحجاب ما شاء هواه وقلة دينه وتقواه ، وأكله أموال الناس بالباطل الـذي ما انزل الله به من سلطان »(٨٤) . ويشكو القاموس من كـثرة انتشار هؤلاء الدجالين نساءً ورجالا ومن قوة ايمان العامـة بهم ، هؤلاء الحمقى والاغرار والمغفلين . ثم يصور مخـازي هؤلاء الدجالين . « ماذا يعد المرء من مخـازي كثير من الأشقياء المحترفين بهذه الحرفة ، الابالسة . وكم كانوا سبباً في هتك اعراض ، وفراق أزواج . وكم ارتكبوا الفواحش في مخـدرات ، يأتين اليهم ويلقين اليهم القياد تخلصاً مما ألم بهن . ويعتقدون الشفاء أو النجاح في الامل عندهم » ، ويذكر بعضاً من الحوادث الرهيبة التييذهب ضحيتها بسطاءالناس ولا سيما من النساء ، باسم الدين ، وباسم الانسانية . كما يعرض صوراً من ادوات الاعيبهم « ولهم عجائب في اقـتراح الخيوط والحرير ، والأوعيـة ، والحبر ، والاتيان بعصفور أو صرصور ، ووضعه حيـاً في « قزيزة » على حجمه ، ولحمها وسدها عليه ، وكـذلك الكتابة على أسفل القـدم أو بالدم وغير ذلـك »(٨٤)

واخيراً ، وليس آخراً ، يمكننا أفراد باب خاص بالشحادين ، والسائلين، الذين كثيراً مايلجأون الى الحيل في مسألتهم ، والى اصطناع المرض ، والعاهة، والبلاهة من أجل استدرار شفقة البسطاء من النـاس ، وغـير البسطاء . وتعبيرهم عن هذه الشفقة بمنحهم الدريهمات . وقد أطنب القاموس في ذكر فرقائهم ، وافانين دجلهم وحيلهم ، نذكر بعضاً منهم ومنها :

السائل : « اسم للفقير الذي يطوف بالاسواق والازقة ، ويسأل الناس من دكاكينهم وأبواب بيوتهم »(٨٥) .

« ثم أن السألة ، وهم الشحاذون ، ينقسمون الى اقسام :

فمنهم البسيط ، وهم الذين يقنعون بالعطاء أو بالدعاء .

ومنهم أهل الحبائل الشيطانية والحيـل الابليسية : كمن يظهر المشيخة والتلبيس . أو من يدعي الافلاس ويظهر ورقة تحكي انه كان من أبناء الناس .

ومنهم من يدخل على الكبار بمجمع تمر أو مجمعين ويدعي انه من أكابر أهل الحرفيين .

---

(٨٤) القـاموس ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣
(٨٥) القـاموس ص ١٧٧

ومنهم من يأخذ بتنكيس رأسه وبتصعيد انفاسه ، ومنهم من يأخذ بالخشوع والخضوع وكثرة البكاء والدموع ... ومنهم من تراه كالعلوج يظهر للناس انه مقعد مفلوج ... ومنهم من يحتال بالمشي على الاربع وهو أقوى من القرد وأشنع ... ومنهم من يحتال بغناء المواليا واشعار العشاق في الطرقات على الدكاكين وفي الاسواق ... ومنهم من يحمل أولاده الصغار ويدور بهم طوال النهار(٨٦) ... الخ .

الحيل كثيرة . والهدف واحد . هو استدرار العطف ومن بعده الأموال. والغريب أن بعضهم ، حتى ولو أصبح ذا مال وفير، يظل على حاله من الدروشة والمسكنة والمسألة . ويذكر القاموس في فقرة « الشحاذ » أنه عثر في بيت شحاذ بعد دفنه ، على صندوق من صناديق الكاز مملوء من نوع النحاسات فقط بلغ وزنه ٨٠ رطلاً مما تنوف قيمتها على عشرين الف قرش . هذا ماعدا عن أصناف العملة الفضية والذهبية »(٨٧) .

الكلاّب: « هو من يتبع الجنائز ، ويأتي دور الموتى ، من الفقراء المعدمين لتقبل الصدقات التي يوزعها أهل الميت »(٨٨) ، « فيأتي أولئك الكلاليب واكثرهم ، لنذالتهم ، لايرضيهم القليل ولا الكثير ... وقد يكون من يوزع الدراهم غير مهاب ولا جسور ، فيشتمونه ويضربونه .

« وهي حرفة رذيلة دنيئة لايتعاطاها إلا كل دنيء مسلوب الذوق والحياء. ولهم غرائب مضحكة . إذ قد يتسابون مع بعضهم ويتضاربون اذا كانت صدقة أحدهم تزيد عن الآخر ...

« وقد كثرت أصحاب هذه الحرفة بدمشق، وكثر أذاهم، ولهم جواسيس يجلبون لهم الأخبار عمن مات . ويحسبون لهم مواسم الموتى من اربعين أو إتمام السنة ، أو ان في اليوم الفلاني ، في المحل الفلاني ختماً أو تهليلة أو اسقاط صلاة ، ولهم مجتمعات يجتمعون مع بعضهم ويتذاكرون . حتى اذا كان أحد منهم ليس عنده خبر بختم او تهليلة ، يتأمل من ورائها دراهم وغيره ، يعلم ذلك ، لايمكن أن يخبره بالمكان والوقت إلا بأن يأخذ منه عشرة أو عشرين بارة . وعند دفعهم ذلك المبلغ يخبر عن الموضع الذي سيكون فيه ختم أو غيره وعن اليوم . وتعرف هذه عندهم بـ « التعريفة » و « الاخبارية » قاتلهم الله أنى يؤفكون(٨٩) .

---

(٨٦) القاموس ص ١٧٧ – ١٧٨

(٨٧) القاموس ص ٢٥١

(٨٨) القاموس ص ٣٩١

(٨٩) القاموس ص ٣٩١ – ٣٩٢

واذا كان اكل اموال الناس بالخداع والدجل والتضليل هو ، في حد ذاته، سرقة ولصوصية ، فان هنالك اناسا يمتهنون اللصوصية المباشرة لا المقنعة ، ويسلبون الناس أموالهم بالباطل . وقد تحدث القاموس عن هؤلاء الكثيرين كثرة كبيرة في أكثر من محل . ففي فقرة السّراق يقول :

السراق : وهو اسم لمن يسرق . ونوع منه يقال له « نشتري » . وهذه الحرفة كثيرة الوجود في كل بلدة . وهي أخبث الحرف ... وينبغي لكل شخص من تاجر او سوقي أو مار أو مصل أن يكون يقظاً على ماله وحاله ، خوفاً من لص أو مفتال . حتى اذا كان في مسجد ، واراد الوضوء مثلاً ، فخلع جبته أو ثوبه أو عمامته لأجل الوضوء ، **أن يضع حوائجه أمامه ، حتى نعله ،** ولو في الصلاة ، فكم من لصوص مخصوصة في الجوامع والمساجد ، اذا غفل أحد المصلين عن نعله سرق ، أو غفل عن عمامته أو ثوبه عند وضوئه مثلاً ، اخذ في الحال . فقد رأينا ذلك اكثيراً وشاهدناه »(٩٠) .

ويتحدث في فقرة اللص المماثلة قائلاً : « وهذه الحرفة لم تزل في قرى دمشق فاشية ، ولا يمكن لأحد أن يغفل عن داره أو بستانه إلا وتلعب أيادي اولئك الاشرار . فلا يجدون متاعاً إلا ويأخذونه ، ولا حيواناً إلا ويحرزونه ، فينغصون عيش صاحبه المسكين ويصبح لايجد له معيناً ولا مغيثاً » .

ويشير القاموس الى التعاضد القائم بين اللصوص انفسهم . وكيف يتساعدون في تصريف الأموال المسروقة . فالسارقون في مشرق البلدة يصرّف لهم بضاعتهم المسروقة زملاؤهم في اللصوصية في غربي البلدة مثلاً أو شمالها ، أو من قرى أخرى . « واما في نفس البلدة ، فكانت هذه الحرفة فاشية جداً في الزمن السابق ، لايخلو يوم من وقوع جملة سرق . ولكن في زمننا هذا نظراً لوجود الضبط والربط ، ولقاء نظر الحكومة في البلدة ، وايجاد الحراس في الاسواق والازقة ، وعلى الاسطحة ، ساهرين الليل كله ، أصبحت السرقات قليلة بالنسبة ، وندر أن يسمع بوقوع سرقة مهمة إلا إذا كان السارق متفقاً مع حارس ، أو لاحت له فرصة بنوم الحراس ، أو غفلة منها »(٩١) .

---

(٩٠) القاموس ص ١٨٣ — ١٨٤
(٩١) القاموس ص ٤٠١ — ٤٠٢

خاتمة

بعد هذه الجولات السريعة بين طيات القاموس ،وتسجيلنا هذه الصفحات من خلال معطياته ، نتساءل هل وفينا القاموس حقــه من البحث ؟ وهل قمنا بما يجب تجاه اولئك المؤلفين الميامين ؟ الحق انه مايزال بالامكان الغرف مــن معين هذا القاموس ، ومايزال بالامكان تحرير بعض الفصول الاخرى على ضوء معارفه ومعطياته . ولكننا خفنا سأم القارىء ، بالإطالة عليه أولا ، كما خفنا كثرة الزلل من جراء كثرة الحديث ، ثانيا . لهذا اكتفينا بما كان راجين أن يقدر لمختصين آخرين القاء اضوائهم ، على نواح أخرى من نواحي القاموس ، فتكون عندئذ الفائدة أعم وأشمل . كما يكون الواجب تجـاه المؤلفين أجل وأعظـم . بالاضافة الى أن المسئولين ومن يهمه الامر في مؤسسات أخرى ، قد يدرسون اقتراحاتنا ، ويغنونها بما عندهم ويتخذون التدابير الكفيلة بتأسيس « متحف أدوات العمل » و « متحف الصناعات السوريــة » وبالتشجيع علــى وضع « قاموس أدوات العمل السورية » و « قاموس الصناعات السوريــة » الذي يكون متمما لقاموسنا موضوع البحث .

ان هناك كثيرا من الامور التي يمكن فعلها لخدمة التراث الثمين ، ومن واجبنا تجاه هذا التراث أن نفعلها . فهل نسمع صدى لهذه المناداة ؟ وهل نرى شيئا مجسدا ملموسا يقام في هذا السبيل ؟

المراجــع

ـ قاموس الصناعات الشامية	محمد سعيد القاسمي ، جمال الدين القاسمي ، خليل العظم
ـ الاقتصاد السياسي	لمؤلفين سوفيت ترجمة الدكتور بدر الدين السباعي
ـ اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية	تأليف الدكتور بدر الدين السباعي
ـ الموسوعة السوفيتيية	الجزء ٣٦
ـ خطط الشام	محمد كرد علي
ـ المجموعة الاحصائية السورية	المكتب المركزي للاحصاء

الفهرس

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

للمؤلف

في مجال التأليف

- مشكلة الفلاح السوري — بالفرنسية
- الحرب والشعوب — بالعربية
- اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية بالعربية والروسية
- اضواء على قاموس الصناعات الشامية
- مشكلة المراة (العامل التاريخي) — مخطوط
- حول موازين عام ١٩٦٣ السلعية
- التقشف في الاستهلاك الخاص
- منجزات الخطة الاولى على ضوء تقارير تتبع التنفيذ
- «المرحلة الانتقالية» في عهد الوحدة بين سورية ومصر (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) الجزء الاول
- الدين الاسلامي ونضالنا في سبيل الديموقراطية

ـ في مجال التراجم ـ

- من الازمة الاقتصادية الى الحرب العالمية — هنري كلود
- أصول الحرية — روجيه غارودي
- الصين في طريق الاشتراكية — بالاشتراك مع نجاح ساعاتي
- مخاطر ازمة ومخاطر حرب — هنري كلود
- الانسان قاهر الطبيعة — بالاشتراك مع المرحوم نوري الرفاعي
- الارقام الاساسية لإنماء الاقتصاد السوفيتي — بالاشتراك مع نجاح ساعاتي

- الدولة والثورة لينين
- معطيات تكميلية لمؤلف لينين عن فارغا ومندلسن عن الامبريالية (جزء أول)
- الى أين يسير الاستعمار الاميركي هنري كلود
- الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية لينين
- الاقتصاد السياسي (المجلد الاول) لنخبة من الاساتذة السوفييت
- الاقتصاد السياسي (المجلد الثاني) بالاشتراك مع فؤاد مرعي في جزءالامبريالية
- الاقتصاد السياسي (المجلد الثالث) بالاشتراك مع نجاح ساعاتي
- الماركسية في القرن العشرين (ثلاثةأجزاء) بالاشتراك مع معصراني ، ساعاتي، ومرعي
- المادية الدياليكتيكية لاساتذة سوفييت بالاشتراك مع جاموس ومرعي

بالاضافة الى تدقيق ومراجعة والاشرافعلى اخراجعدد هاممن المؤلفاتالاخرى.

ر النسخة ١٠ ل.

مطبعة العلم